O B L O M O V

NOVEL
رواية

أبلوموف

إيفان غونتشاروف

ترجمة
نجاح الجبيلي



الجزء الثاني

رواية

أبلوموف

إيفان غونتشاروف

ترجمة: نجاح الجبيلي

الحزء الثاني


تليجرام
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
باحثون
محمد خطاب

القسم الثاني

تليجرام

غواص في بحر الكتب



الجزء الثالث

(1)

سار أبلوموف إلى البيت وهو يشعر بالسعادة والانفعال. جرى الدم في عروقه بشكل جذل وسطعت عيناه. بدا له أنّ شعره كان ملتهبًا أيضًا. هكذا دخل غرفته وفجأةً اختفى التألّق، حين فوجئ بمشهد بغيض، وأصبحت عيناه مثبتتين، على مكان واحد: كان تارانتييف يجلس في كرسيّه.

سألهُ تارانتييف بشكل صارم، وأعطاه يده المكسوة بالشَعر:

لماذا تُبقي الناس ينتظرون عدة ساعات؟ أين كنت تتسكع؟ وأصبح شيطانك العجوز ذاك خارج السيطرة تمامًا. طلبتُ منه لقمة لآكل لم يعطني أي شيء. طلبتُ منه الفودكا، فرفض أن يعطيني منها أيضًا.

قال أبلوموف بعدم اكتراث:

لقد كنتُ أتنزّه في الغابات.

ومازال غير قادر على الشفاء من صدمة زيارة تارانتييف، في مثل هذه اللحظة أيضًا!

لقد نسي المحيط الكئيب التي عاش فيه العديد من السنين، ولم يعد معتادًا على جوّه الخانق. جعله تارانتييف بطرفة عين يهبط من السماء إلى المستنقع. ظلّ أبلوموف يسأل نفسه بألم عن الغرض الذي جاء تارانتييف من أجله ومدة بقائه.

عانى من الآلام المبرحة بسبب فكرة أنّ تارانتييف ربما بقي لوجبة الطعام وأنه لن يكون قادرًا على الذهاب إلى آل إلينسكي. كان عليه أن يتخلص من تارانتييف بأي ثمن كان ذلك الشيء الوحيد الذي همّه الآن. انتظر بشكل عابس وبصمت أن يتكلم تارانتييف.

سأل تارانتييف:

لماذا لا تذهب وتلقي نظرة على شقتك، أيها العجوز؟

قال أبلوموف:

لم أعد بحاجة إليها. لن أنتقل هناك.

صاح تارانتييف مهدّدًا:
ماذا؟ لا تنتقل هناك؟ لقد استأجرتها ولا تريد أن تنتقل وماذا بشأن الاتفاق؟
أي اتفاق؟
هل نسيت؟ وقّعتَ اتفاقًا لمدة سنة. هيّا أعطني ثمانمائة روبل، ثم بوسعك أن تذهب حيثما تشاء. جاء أربعة أشخاص لاستئجار تلك الشقة وكلهم رُفضوا.
أحدهم كان يريد أن يستأجرها لمدة ثلاث سنوات.
تذكّر أبلوموف الآن بأنه في نفس اليوم من انتقاله إلى الكوخ الريفي جلب له تارانتييف ورقة فوقعها بسرعة ولم يقرأها. فكّر: «يا إلهي، ماذا فعلت؟».
قال أبلوموف:
لكني لا أريد الشقة. سوف أسافر للخارج.
قاطعه تارانتييف:
للخارج! مع ذلك الألماني؟ لن تفعلها يا صديقي... لن تسافر!
ولِمَ لا؟ فقد حصلتُ على جواز سفري. أستطيع أن أريك إيّاه لو رغبت. واشتريت حقيبة ثياب أيضًا.
كرّر تارانتييف أيضًا بلا مبالاة:
لن تسافر! من الأفضل أن تدفع لي إيجار ستة أشهر مقدمًا.
ليس لديّ نقود.
تستطيع أن تحصل عليها، أليس كذلك؟ إيفان ماتفيفيتش، أخو مالكة الأطيان، لن يتحمل السفاسف. سوف يرفع عليك دعوى فورًا: لن تكون قادرًا على التملص منها. لقد دفعت عنك من مالي الخاص، فمن الأفضل أن تدفع لي.
سأله أبلوموف:
من أين لك هذا المال الكثير؟
لا شأن لك بذلك. لقد استرددتُ دينًا قديمًا. هيّا، أعطني المال. ذلك ما جئتُ من أجله.

حسنٌ. سوف أقوم بزيارة لمدة يوم واحد هذا الأسبوع وأحصل على مؤجّر جديد للشقة. أنا آسف، لكنني الآن في عجلة من أمري.

بدأ يزرّر سترته.

قال تارانتييف:

وأي نوع من الشقة ترغب بها؟ لن تجد شقة أفضل منها. ألم ترها؟

أجاب أبلوموف:

لا أريد أن أراها. لماذا أنتقل هناك؟ إنها بعيدة جدًا...

قاطعه تارانتييف بشكل فظّ:

عمّن هي بعيدة؟

لكن أبلوموف لم يذكر ذلك.

ثم أضاف أخيرًا:

عن مركز المدينة.

أي مركز؟ وما حاجتك إليه وأنت مستلقٍ دائمًا؟

كلا لن أستلقي بعد ذلك.

لماذا؟

لا شيء. أنا... اليوم...

قاطعهُ تارانتييف:

ماذا؟

لن أتناول الغداء في البيت.

أعطني النقود وتستطيع أن تذهب إلى الشيطان!

كرّر أبلوموف نافد الصبر:

أية نقود؟ سوف أذهب إلى الشقة حالًا وأتكلم مع مالكتها.

أية مالكة؟ ماذا تعرف هي؟ إنها مجرد امرأة! كلا سيدي. اذهب وتكلم مع أخيها وسوف ترى!

حسنًا، سوف أذهب وأتحدث معه.

صحيح؟ لا أظن ذلك! أعطني النقود واذهب حيثما شئت.
ليس لديّ نقود. يجب أن أستدين.
أصرّ تارانتييف:
حسنًا، في هذه الحالة من الأفضل أن تدفع لي أجرة العربة. ثلاثة روبلات.
أين سائق عربتك؟ ولماذا أدفع ثلاث روبلات فهي كثيرة؟
لقد صرفتهُ. لماذا كثيرة؟ لأنه لم يرغب في جلبي هنا. قال الطريق رملية. وستكون هناك ثلاثة روبلات أجرة الرجوع!
قال أبلوموف:
تستطيع أن تذهب بالحافلة من هنا بنصف روبل. هاك النقود.
أعطاه أربعة روبلات. وضعها تارانتييف في جيبه، ثم سأله:
ماذا عن ثمن الغداء؟
أي غداء؟
سوف أتأخّر في المدينة من أجل الغداء، ويجب أن أذهب إلى الحانة في الطريق. كل شيء هنا غالٍ جدًا: أكيد سوف يطلبون مني خمس روبلات على الأقل!
انتزع أبلوموف بصمت روبلًا آخر ورماه نحو تارانتييف. لم يجلس لأنه كان قلقًا من أنّ ضيفه يجب أن يرحل بأسرع ما يمكن؛ لكن تارانتييف لم يذهب.
قال:
أخبرهم بأن يعطوني شيئًا لآكله.
علّق أبلوموف:
لكن ألم تقل إنك ستذهب لتتناول غدائك في الحانة؟
الغداء نعم! لكن الساعة تجاوزت الواحدة.
أمر أبلوموف الخادم زاخار بأن يعطيه شيئًا ليأكله.
قال زاخار بجفاف ونظر بغضب إلى تارانتييف:
لا يوجد شيء في البيت سيدي، لا شيء تم تحضيره.
ووجّه الكلام إلى تارانتييف:

ومتى ستعيد قميص السيّد وصدرته؟
سأله تارانتييف:
أيّ قميص وصدرة؟ لقد أرجعتهما منذ وقت طويل.
سأل زاخار:
ومتى حصل ذلك؟
ألم أسلّمهما لك، حين انتقلتم، أقحمتها في حزمة، والآن تسأل عنها.
كان زاخار مشدوهًا.
صاح ووجه كلامه إلى أبلوموف:
يا إلهي، تلك فضيحة يا سيدي!
أجاب تارانتييف:
استمرْ، أخبرني عن أمر آخر. أعتقد بأنك بعتها من أجل الشراب والآن تسألني عنها.
قال زاخار بصوت أجش:
كلا، فأنا لم أبع في حياتي ممتلكات سيّدي من أجل الشراب، وأنت الآن...
قاطعه أبلوموف بشكل صارم:
كفى!
سأل زاخار مرة أخرى:
ألم تأخذ مكنستنا واثنين من الأكواب؟
توعّد تارانتييف:
أية مكنسة؟ أوه، أيها الوغد العجوز! هيّا من الأفضل أن تعطيني شيئًا آكله.
قال زاخار:
هل تسمع كيف يشتمني يا سيدي؟ لا يوجد طعام في البيت ولو خبزة واحدة، وأنيسيا خرجت، أكّد بثبات وخرج من الغرفة.
سأل تارانتييف:

أين ستتناول غداءك؟ أمرٌ غريب أنّ أبلوموف يخرج للنزهة في الغابة ولا يتناول الغداء في بيته. متى ستنتقل إلى شقتك الجديدة؟ سيحلّ الخريف قريبًا. تعال وألقِ نظرة عليها.

حسنًا، حسنًا، سأزورها قريبًا...

ولا تنسَ أن تجلب النقود!

قال أبلوموف نافد الصبر:

أجل، أجل، أجل!

حسنٌ، هل تحتاج شيئًا لشقتك؟ لقد كسوا الأرضيات وصبغوا السقوف والأبواب والشبابيك وكل شيء. كلفت أكثر من مئة روبل.

تذكّر أبلوموف فجأة:

نعم، نعم، حسنًا... أوه. ثمة شيء أريد أن أخبرك به. هل يمكن أن تذهب إلى المحكمة بدلًا مني وتصدّق صك الائتمان...

قال تارانتييف:

وهل أنا محاميك؟

قال أبلوموف:

سأعطيك ثمنًا أكثر لغدائك.

تمزّق جزمتي سيكلفني أكثر مما تعطيني.

خذ عربة. سوف أدفع لك.

قال تارانتييف عابسًا:

آسف، لا يمكنني أن أذهب إلى المحكمة.

لماذا؟

لديّ أعداء يكيلون لي البغض ويبذلون ما بوسعهم لكي يحطموني.

قال أبلوموف والتقط سدارته:

حسنًا، سوف أذهب بنفسي.

حين تذهب إلى الشقة الجديدة سيقوم إيفان ماتييفيتش بكل ما تريد. إنه رجل لطيف. وهو يختلف كليًا عن الألماني المغرور! موظف روسي أصيل كليًا، جلس لمدة ثلاثين سنة على الكرسي نفسه، يدير مكتبه، ويملك النقود لكنه لم يركب أي عربة. سترته ليست أفضل من سترتي: لن يؤذي حشرة، يتكلم بصوت خافت، ولم يذهب متسكعًا في الخارج مثل صديقك...

صاح أبلوموف ضاربًا بقبضته على المائدة:

تارانتييف، لا تتكلم عن شيء أنت لا تفهمه!

فتح تارانتييف عينيه باتساع بسبب هذه الوقاحة غير المسموعة من جهة أبلوموف ونسي أن يبدي استياءه من وضعه في منزلة أقل من منزلة شتولتس.

دمدم وتناول قبعته:

هكذا إذن أصبحت يا صديقي. يا له من غضب!

مسح قبعته بكمّه ونظر إليها ثم إلى قبعة أبلوموف الملقية على منصّة الكتب.

قال وأخذ قبعة أبلوموف وحاول أن يلبسها:

أنت لا تلبس القبعة. أرى أنّ لديك سدارة. أعرني القبعة للصيف يا صديقي.

نزع أبلوموف القبعة من رأس تارانتييف بصمت ووضعها مرة أخرى على منصة الكتب. ثم صالب ذراعيه على صدره وانتظر تارانتييف كي ينصرف.

قال تارانتييف وانحشر بشكل أخرق عبر الباب:

أوه، اذهب إلى الجحيم. إنك غريب نوعًا ما يا صاحبي. سأنتظر حتى تتكلم مع إيفان ماتفيفيتش وأرى ماذا يحدث لو لم تجلب لي النقود.

❋ ❋ ❋

(2)

خرج تارانتييف وجلس أبلوموف على الكرسي، وهو يشعر بالانزعاج تمامًا. لم يستطع أن يتخلص من الانطباع البغيض الذي خلفتهُ زيارة تارانتييف لمدة طويلة. تذكر أخيرًا خططه للصباح، وتلاشى شبح تارانتييف الشائن من ذهنه؛ عادت الابتسامة على محيّاه. وقف أمام المرآة ليرى إن كان ثَمَّ أثرٌ لقبلة أولغا المتقدة.

قال برقة وبحماس مبتهج:

يا له من فرق بين كلمتي «أبدًا» الأولى والأخيرة. فالأولى ذبلت والثانية أزهرت على نحو بهيّ.

ثمّ استغرق عميقًا في التفكير. شعر بأن مهرجان الحب المشرق الصافي قد انتهى، وأن ذلك الحب كان قد أصبح واجبًا حقًا، يمتزج مع الحياة بأكملها، ويشكل جزءًا متكاملًا من وظائفها العادية وقد بدأ يفقد ألوانه القزحية. في ذلك الصباح، ربما، كان قد شاهد آخر شعاع وردي للحب، وفي المستقبل لم يعد يشرق بسطوع، لكن يدفئ حياته بشكل لا مرئي؛ سوف تبتلعه الحياة وستكون حافزه القوي الخفي. من الآن وصاعدًا ستصبح تجليات الحب بسيطة واعتيادية جدًا.

كانت الفترة الشعرية قد انقضت، وابتدأت الحقيقة الصارمة: المحاكم، الرحلة إلى أبلوموفكا، بناء البيت، رهن العزبة، إنشاء الطريق، مشاكل في العمل لا تنتهي مع الفلاحين وتنظيم العمل في العزبة الحصاد، نثر البذور، تنظيم الحسابات، وجه الوكيل المتجهم، انتخابات النبلاء، جلسات المحكمة... أحيانًا وعلى فترات متباعدة، تشرق عينا أولغا عليه، وتصله نغمات أغنية «أيتها الإلهة النقية»، وبعد انتزاع قبلة سريعة سيتوجب عليه الإسراع إلى الحقول، والمدينة، ثم ثانيةً إلى الوكيل وإجراء الحسابات. وصول الزائرين سيجلب له القليل من الراحة: سوف يتكلمون عن تقطير الكحول، والأقمشة التي سلَّموها إلى الحكومة... يا إلهي، أهذا ما وعد نفسه به؟ هل هذه حياة؟ مع ذلك، عاش الناس كأنّ في ذلك يكمن كل معنى حياتهم. وكان أندريه بدوره يحب هكذا حياة!

لكن الزواج العرس، آه، كان ذلك، على أية حال، هو قصيدة الحياة، وزهرتها المتفتحة تمامًا. تصوّر كيف يقود أولغا إلى مذبح الكنيسة: سيكون رأسها متوّجًا بزهر البرتقال مع خمار طويل. ستكون هناك همسات الدهشة بين حشد الناس. ستعطيه يدها بخجل، لاهثة برقّة، ورأسها ينحني بأبهة الجمال المعتاد لها، دون أن تعرف كيف تواجه الجمهور بنظراتها. سوف تومض الآن ابتسامة على وجهها، وستترقرق الدموع في عينيها، أو تتحرك الثنية فوق حاجبيها بفعل التأمّل.
وبعد أن ينصرف الضيوف من البيت سترتمي على صدره، كما فعلت اليوم، وهي ترتدي بذلة زفافها الرائعة...
فكّر: «كلا، يجب أن أذهب إلى أولغا. لا أستطيع أن أفكّر وأشعر. سوف أخبر الجميع، والعالم بأجمعه كلا، سأخبر عمتها فقط، ثم البارون؛ سوف أكتب إلى شتولتس سيتفاجئ! ثم أخبر زاخار: سوف يجثم عند قدمي وينبح من هول الفرح. سوف أعطيه خمسةٌ وعشرين روبلًا. سوف تأتي أنيسيا وتحاول أن تقبّل يدي:
سوف أعطيها عشرة روبلات ثم أهتف من الفرح بصوت عال لكي يسمعهُ الناس كلهم فيقولون: «أبلوموف سعيد، أبلوموف يتزوّج!». سوف أهرع إلى أولغا الآن سوف نجلس ونتهامس معًا عدة ساعات، ونضع خططنا السرّية كي نمزج حياتينا بحياة واحدة!» أسرع في الذهاب إلى أولغا. أصغت لأحلامه وابتسمت، لكن حالما قفز لكي يجري ويخبر عمتها، قطّبت جبينها بطريقة حذَّرَته فيها.
قالت:
لا تقل كلمة لأحد!
ووضعت أصبعها على شفتيها ورجتهُ أن يتكلم بصوت خافت لكي لا تسمع عمتها في الغرفة المجاورة.
لم يحن الوقت بعد!
سأل نافد الصبر:

ألم يحن الوقت الآن وكل شيء بيننا قد تمت تسويته؟ ماذا نفعل الآن؟ كيف نبدأ؟ لا يمكن أن نجلس فقط ولا نعمل شيئًا. يجب أن نفكّر بواجباتنا الحياة الجدّية تبدأ...

وافقته ونظرت إليه بتمعّن:

أجل. صحيح.

حسنًا، أود أن أتخذ الخطوة الأولى أن أذهب إلى عمّتكِ و...

تلك هي الخطوة الأخيرة.

ما هي الأولى إذن؟

الأولى أن تذهب إلى المحكمة: يجب أن تكتب بعض الوثائق، أليس كذلك؟

نعم. غدًا.

ولماذا لا تذهب اليوم؟

اليوم يوم مميز، ولا أستطيع أن أتركك يا أولغا.

حسنٌ جدًا، غدًا. وبعد ذلك؟

ثم أخبرُ عمتكِ وأكتبُ إلى شتولتس.

«كلا، يجب أن تذهب إلى أبلوموفكا... كتب السيد شولتس إليكَ ما الذي يجب أن تعمله في الريف، أليس كذلك؟ لا أعرف ما طبيعة العمل الذي لديك هناك هل هو بناء؟» سألت ونظرت في وجهه.

قال أبلوموف:

يا إلهي، إذا توجب علينا أن نصغي إلى ما يقولهُ شتولتس فلن نستطيع إخبار عمتكِ! يقول إنه يجب أن نبدأ ببناء البيت، ثمّ إنشاء الطريق، ثم فتح المدارس! لا نريد أن نبقى طوال حياتنا منهمكين في هذه المشاريع. دعينا نذهب هناك معًا يا أولغا، ثم...

لكن أين سنذهب؟ هل هناك منزل يأوينا؟

كلا، البيت القديم غير مناسب. أتوقع أن تنهار عتباته الأمامية حالًا.

سألت: إذن إلى أين سنذهب؟

يجب أن نعثر على شقة هنا.
لاحظت أولغا:
من أجل ذلك يجب أن تذهب إلى المدينة. تلك هي الخطوة الثانية.
بادر قائلًا:
وبعد ذلك...
أعتقد أنه يجب أن تتخذ الخطوتين في البداية ثم...
فكّر أبلوموف بشكل حزين:
ما الداعي لكل هذا؟ لا همسات طويلة الأمد، لا خطط لمزج حياتين بحياة واحدة! كل شيء تغيّر بطريقة مختلفة إلى حدٍّ ما. يا لها من فتاة غريبة أولغا! لا تقف ساكنة، لا تنغمر في الأحلام الرومانسية حتى ولو لحظة، كأنها لن تحلم في حياتها أبدًا، كأنها لم تشعر بحاجتها لإخضاع نفسها لأحلام اليقظة! اذهبْ إلى المحكمة فورًا ابحثْ عن شقة! إنها تمامًا مثل أندريه! كأنهما يتآمران ليكونا مسرعين في إنجاز مهمات حياتهما!
ذهب أبلوموف في اليوم التالي إلى المدينة، وأخذ معه ورقة مختومة ليحسم مهمته في المحكمة: ركب العربة إلى المدينة على مضض، متثائبًا ومحدقًا فيما حوله. لم يكن يعرف مقر المحكمة بالضبط، وزار أولًا إيفان غيراسيموفيتش ليسأله عن القسم الذي يصدقّ ويوقعّ فيه صكّ نقل الملكية. كان إيفان غيراسيموفيتس في منتهى السرور حين التقى أبلوموف ولم يسمح له بالذهاب دون أن يتناول الغداء معه. ثم أرسل إلى صديق ليسأله كيف ينجز مهمته لأنه لا يمتلك الاطِّلاع والخبرة الكافية في مثل هذه الأمور. انتهى الغداء والتشاور في الساعة الثالثة. وكان الوقت متأخرًا جدًا للذهاب إلى المحكمة، وفي اليوم التالي كانت المحاكم مغلقة بسبب عطلة السبت، لذا كان يجب تأجيل الأمر حتى يوم الإثنين.
ذهب أبلوموف إلى شقته الجديدة في فايبورغ. استغرقت العربة التي ركبها وقتًا طويلًا في السير عبر الممرات الضيقة ذات الأسيجة الخشبية الطويلة على كل جانب.

أخيرًا عثر على شرطي أخبرهُ بأن ذلك البيت كان جزءًا مختلفا من الضاحية، وأشار إلى شارع إذ كانت هناك أسيجة وبيوت، وعشب ينمو في الطريق، مليء بالأخاديد المصنوعة من الطين المجفف. واصلت العربة سيرها وأعجب أبلوموف من نباتات القرّاص أمام السياج والغبيراء التي تتلصص وراءها. وأخيرًا أشار الشرطي إلى بيت قديم صغير يقف في الفناء مضيفًا:

ذلك هو يا سيدي.

قرأ أبلوموف على البوابة: بيت أرملة المستشار بشنتيزين، وأخبر سائق العربة أن يدخل إلى الفناء.

كان الفناء بحجم غرفة، بحيث اصطدم عريش العربة بأحدى الزوايا وأخاف عددًا من الدجاجات التي تفرَّقت وهي تقوقئ في كل الاتجاهات، وحاول بعضها أن يطير. بدأ كلب أسود مربوط بسلسلة ينبح بغضب، مندفعًا إلى اليمين واليسار محاولًا أن يصل إلى خطم الخيول. جلس أبلوموف في العربة بمستوى النوافذ ووجد أنه من الصعب الخروج. كانت النوافذ تحتشد بآنيات النباتات العطرية والقطائف، ويمكن مشاهدة العديد من الرؤوس المتطلعة. نجح أبلوموف في الخروج من العربة؛ نبح الكلب بأشد ما يكون. صعد العتبات الأمامية... وهرع إلى المرأة العجوز المتغضنة التي ارتدت سارافانًا[60] رفعت طرفهُ مشمّرة عن خصرها.

سألتْ:

مَنْ تريد؟

صاحبة المنزل السيدة بشنيتزين.

أحنت العجوز رأسها ذاهلة.

سألت:

60السارافان من الأزياء الروسية التقليدية وهو ثوب على شكل شبه منحرف بلا أكمام.

هل أنت متأكد أنك لا تريد إيفان ماتفيفيتش. أخشى أنه ليس في البيت. لم يرجع من الدائرة بعد.

قال أبلوموف:

أريد أن أرى سيّدة المنزل.

في الوقت نفسه استمّر الصخب. بقيت الرؤوس تتلصّص من النوافذ؛ ظلّ الباب وراء المرأة العجوز ينفتح وينغلق وتطلّع ناسٌ مختلفون. استدارَ أبلوموف: كان في الفناء صبي وفتاة، وقفا ينظران إليه بفضول. ظهر من مكان ما فلاح نعسان يرتدي معطفًا من صوف الخروف، وكان يحجب عينيه بيده من الشمس، ويحدّق بكسل إلى أبلوموف والعربة. ظلّ الكلب ينبح نباحًا خافتًا متقطعا، وفي كل مرة يتحرك أبلوموف أو يخبط حصان فإنه يبدأ بالقفز في سلسلته وينبح بشكل متواصل. رأى أبلوموف عند اليمين وفوق السياج حديقة طويلة مزروعة بالملفوف، وعند اليسار، فوق السياج، رأى عدّة شجرات وبيتًا صيفيًا خشبيًا أخضر.

سألت المرأة العجوز:

هل تريد أغافيا ماتفينفنا؟ لماذا؟

قال أبلوموف:

أخبري السيدة بأني أريد أن أراها. لقد استأجرتُ غرفًا هنا.

إذن أنت المستأجر الجديد، وصديق السيد تارانتييف؟ مهلًا، سأخبرها.

فتحت الباب وانسحبت عدة رؤوس للخلف واندفعت إلى الغرف الداخلية. نجح في رؤية امرأة ممتلئة ذات بشرة بيضاء ورقبة ومرفقين عاريين ولا ترتدي قلنسوة، وابتسمت لأنّ غريبًا رآها. فاندفعت أيضًا بعيدًا عن الباب.

قالت العجوز:

تفضل، ادخل سيدي.

ورجعت وقادت أبلوموف عبر مدخل صغير يؤدي إلى غرفة واسعة وطلبت منه الانتظار.

أضافت:

ستحضر سيدة المنزل الآن.

فكّر أبلوموف: «والكلب ما زال ينبح» وفحص الغرفة.

وقعت عيناه فجأة على أشياء مألوفة: كانت الغرفة بأكملها مبعثرة بممتلكاته. الموائد مغطاة بالغبار؛ الكراسي متكومة على الفراش؛ الأفرشة والآنية الفخارية والخِزانات كلها مرمية بشكل مشوّش.

قال:

عجبًا! ألا يفعلون شيئا بشأنها يصنفونها ويرتبونها؟ يا للقرف!

فجأةً صرّ الباب وراءه، ودخلت الغرفة المرأة التي شاهدها برقبة ومرفقين عاريين. كانت في الثلاثين من عمرها. وكانت بشرتها جميلة ووجهها ممتلئًا جدًا بحيث بدا اللون غير قادر على شق طريقهِ عبر خديها. لم تعد تمتلك حاجبين مطلقا، وحلّت مكانهما رقعتان لامعتان منتفختان قليلًا كما يبدو مع شعر خفيف ضئيل فوقهما. كانت عيناها رماديتين بهيجتين كابتهاج تعبير وجهها كله. كانت يداها بيضاوين لكنهما خشنتان تبرز منهما عروق زرق منتفخة. ارتدت ثوبًا محكمًا ضيقًا، ومن الواضح جدًا بأنها لم تستعمل أية خدعة، أو حتى معطف إضافي، لكي تزيد من حجم وركيها وتجعل من خصرها يبدو نحيلًا. طالما لم ترتدِ شالًا فإنّ صدرها الجميل الممتلئ يصلح موديلًا لنحّات أو رسّام دون وجود أي خطر على حشمتها. كان ثوبها يبدو قديمًا وباليًا بالمقارنة مع شالها الأنيق وقلنسوتها الرائعة.

لم تتوقع أن يزورها أحد، وحين طلب أبلوموف مقابلتها، رمت بشالها على ثوبها العادي الذي ترتديه كل يوم، وغطّت رأسها بالقلنسوة. دخلت متوجسة وتوقفت. ونظرت بحياء إلى أبلوموف.

نهض وانحنى.

سأل:

ألا أتشرف مسرورًا بلقاء السيدة بشنيتيزين؟

أجابت:
أجل سيدي.
وسألت مترددة:
أترغب بالتحدث إلى أخي؟ أخشى أنه في الدائرة. لن يعود إلى البيت قبل الساعة الخامسة؟
بادر أبلوموف بالقول:
كلا، أنتِ التي أريد أن أقابلها.
وقد جلست على الأريكة بعيدًا عنه، ونظرت إلى أطراف شالها الذي غطاها حتى الأرض. وأخفت يديها تحت الشال أيضًا.
لقد استأجرت منك غرفًا، لكن الآن، نتيجة لظروف معينة، عليّ أن أعثر على شقة في مكان آخر من المدينة، لذا جئت لأناقش المسألة معك.
أصغت له ببلاهة واستغرقت في التفكير.
قالت بعد برهة:
أخي غير موجود.
قال أبلوموف:
لكن البيت ملككِ، أليس كذلك؟
ردت باقتضاب:
نعم.
طيّب، أليس القرار بيدك إذن؟
قالت بشكل رتيب:
لكن أخي غير موجود، إنه المسؤول عن كل شيء هنا.
ونظرت مباشرة إلى أبلوموف لأول مرة وخفضت عينيها إلى شالها ثانيةً.
أسرّ لنفسه قائلًا: «لديها وجه عادي لكنه يبعث على السرور. لا بدّ من أنها امرأة طيبة!» في تلك اللحظة أطلّ رأس فتاة صغيرة عبر الباب. أومأت أغافيا ماتفييفينا لها بشكل صارم دون أن يلاحظها أبلوموف، فتوارت.

وبأي وزارة يعمل أخوك؟
في دائرة حكومية.
أية دائرة؟
في دائرة تسجيل الفلاحين. أخشى أني لا أعرف اسمها.
ابتسمت مبتهجة، واستعاد وجهها فورًا تعبيره المعتاد.
سأل أبلوموف:
هل تعيشين مع أخيك؟
كلا، لديّ طفلان من زوجي الراحل، صبي عمره ثماني سنوات وفتاة عمرها ست سنوات.
وبدأت سيدة المنزل تتكلم بسرعة وامتلأ وجهها بالحيوية:
جدّتنا تعيش معنا أيضا. هي عاجزة بالكاد تمشي، وتذهب إلى الكنيسة فحسب؛ اعتادت الذهاب إلى السوق مع أكولينا، لكنها كفّت الآن منذ عيد القديس نيقولا: بدأت ساقاها تنتفخان. حتى في الكنيسة عليها أن تجلس على العتبات أغلب الوقت. أحيانًا تمكث معنا أخت زوجي الراحل والسيد تارانتييف.
سأل أبلوموف:
وهل يبقى السيد تارانتييف معكِ في الكثير من الأحيان؟
أحيانًا يبقى لمدة شهر. إنه صديق حميم لأخي. هما دائمًا معًا.
صمتت بعد أن استنفدت كل ما لديها من أفكار وكلمات.
قال أبلوموف:
ما أشد هدوء المكان! لولا نباح الكلب لظنّ المرء أنّ لا أحد يعيش هنا.
ردّت عليه بابتسامة فحسب.
قال أبلوموف:
هل تخرجين كثيرًا؟
غالبًا في الصيف. في يوم الجمعة الماضي ذهبنا إلى مصانع البارود.
سأل أبلوموف:

هل يذهب العديد من الناس إلى هناك؟
واسترقّ النظر عبر فتحة الشال إلى صدرها البارز، الثابت مثل وسادة الأريكة ولم يشعر بالهياج.
كلا، لم يكن عددًا كبيرًا هذه السنة. ظلت تمطر في الصباح لكن الجو صحا فيما بعد. عادة هناك عدد كبير من الناس.
أين تذهبين أيضًا؟
نادرًا ما أذهب إلى مكان. يذهب أخي ليصطاد السمك مع السيّد تارانتييف ويصنع حساء السمك هناك، لكننا دائمًا في البيت.
هل أنتِ متأكدة أنكم لا تخرجون دائمًا؟
نعم حقًا. ذهبنا السنة الماضية إلى كولبينو، وأحيانًا نذهب إلى الغابات هنا. حين يحلّ عيد الشفيع[61] لأخي في الرابع والعشرين من حزيران يأتي كل زملائه في العمل إلى الغداء.
هل تقومين بالزيارات؟
أخي يقوم بالزيارات فقط، لكن أنا والأطفال نذهب فقط في عيد الفصح وفي أعياد الميلاد لتناول الغداء مع أقارب زوجي.
ولم يكن ثمة شيء آخر للحديث عنه.
سأل:
أرى أنّ لديك أزهارًا. هل تحبينها؟
ابتسمت وقالت:
كلا. ليس لديّ وقت للأزهار. ذهب الأطفال مع أكولينا إلى حديقة الكونت فأعطاهم البستاني هذه الباقة. أما الجيرانيوم والصبّار فقد كانت هنا منذ أن كان زوجي حيًا.
في تلك اللحظة اقتحمت أكولينا الغرفة: كان ديكٌ يقوق ويصارع بيأس في يديها.

---

61 عيد القديس الذي يحمل المرء اسمه.

سألت:

هل أعطي هذا الديك إلى صاحب الدكان سيدتي؟

قالت السيدة بحياء:

ما هذا، أكولينا، انصرفي! ألا ترين بأنّ لديّ زائرًا؟

قالت أكولينا وأمسكت الديك رأسًا على عقب:

لقد جئت لأسألكِ فحسب. دفع به سبعين كوبيكًا.

قالت أغافيا ماتفييفنا:

عودي إلى المطبخ.

وأضافت بسرعة:

خذي الديك الرمادي وليس هذا.

وتورَّدت خجلًا، وأخفت يديها تحت شالها ونظرت للأسفل.

قال أبلوموف:

هموم المنزل!

أجابت ونظرت إلى أبلوموف بجرأة:

نعم. لدينا الكثير من الدجاج إضافة إلى البيض والفروج. الناس في شارعنا، وفي الأكواخ الصيفية، وفي بيت الكونت يشترون من عندنا.

اكتسى وجهها بالتعبير الجدّي الذي يشي بالتفكير العميق، حتى أنّ سيماء الحماقة تلاشت حين تكلمت عن موضوع مألوف لديها. وأيّ سؤال لا علاقة له باهتمامها أجابت عليه بالابتسامة والصمت.

لاحظ أبلوموف وأشار إلى كومة ممتلكاته:

يجب أن ترتّبيها.

قاطعته بسرعة ونظرت إلى أبلوموف بجرأة شديدة هذه المرة:

نويت ذلك، لكن أخي منعني من لمسها. قال: الرّب وحده يعلم ماذا تحوي خزائنهُ وموائده. إذا ما فقد شيء فلن نسلم منه.

توقفت عن الكلام وابتسمت.

علّق أبلوموف:

كم هو حذر أخوكِ!

ابتسمت ابتسامة خفيفة واستعادت مرة أخرى تعبيرها المألوف. كانت ابتسامتها مسألة شكلية وقناعًا تخفي بها جهلها عما يجري قوله أو فعله في ظروف محددة.

قال أبلوموف:

أخشى أن يتأخر ولا أستطيع انتظاره. هل تكونين طيبة وتخبريه بأني، نتيجة ظروفي القاهرة، لم أعد أحتاج إلى الشقة ولهذا أطلب منك أن تؤجرها لشخص آخر؟

وأنا من جهتي سأحاول الحصول على مستأجر جديد لها.

استمعت ببلاهة وكانت عيناها تطرفان من وقت لآخر.

من فضلكِ أخبريه فيما يتعلق بالعقد بيننا...

كرّرت:

لكنه غير موجود في البيت الآن. من الأفضل أن تأتي ثانيةً غدًا: إنه يوم السبت، ولن يذهب إلى الدائرة.

اعتذر أبلوموف:

أنا آسف، لأني مشغول جدًا ليس لديّ لحظة فراغ واحدة. كوني طيبة وأخبريه بأن العربون سيكون لهُ وسوف أجد له مستأجرًا...

قالت برتابة:

أخي ليس في البيت. لا أعلم متى يعود.

نظرت إلى الشارع:

عادة ما يرجع مارًّا بالنوافذ ويمكن مشاهدته بينما هو يعبر، لكنه غير موجود هنا!

قال أبلوموف:

آسف. يجب أن أذهب.

سألتهُ ونهضت من الأريكة:

وماذا أقول لأخي حين يأتي؟ متى تنتقل؟

قال:

أخبريه بما طلبتهُ منكِ. نتيجة ظروفي الطارئة...

كررّت قائلة:

من الأفضل أن تأتي غدًا وتخبره بنفسك.

آسف لا أستطيع المجيء غدًا.

حسنٌ، في اليوم الذي يليه إذن، يوم الأحد. عادة نقدّم الفودكا والوجبات الخفيفة بعد القدّاس. وسوف يأتي السيد تارانتييف.

صحيح؟

أجل، سيأتي.

ناشدَها أبلوموف بنفاد صبر:

آسف، لا أستطيع المجيء في يوم الأحد أيضًا.

قالت:

الأسبوع القادم إذن. ومتى ستنتقل؟ لكي أغسل الأرضيات وأنظّف الغرف من الغبار.

قال:

لن أنتقل.

لن تتنقل؟ لكن ماذا سنفعل بأغراضك؟

بادر أبلوموف يقول ببطء وركّز أنظاره مباشرةً على صدرها:

هل تتفضلي بإخبار أخيك بأنه نتيجة لظروف قاهرة...

قالت بشكل رتيب، ونظرت إلى السياج الذي يقسّم الفناء من الشارع:

إنه يتأخر جدًا اليوم فأخشى أن لا أراه. أعلم خطواته: أستطيع أن أميّز أي شخص يمشي على طول الرصيف الخشبي. لا يمشي هنا الكثير من الناس...

قال أبلوموف وانحنى ومشى إلى الباب:

إذن هل ستخبرينه بما قلت؟

قالت سيدة المنزل باهتياج لم يكن مألوفًا لها، كأنها تحاول أن تحتجز أبلوموف بصوتها:

أنا متأكدة من أنه سيكون هنا في غضون نصف ساعة.

أعلن أبلوموف وفتح الباب الأمامي:

أنا آسف، لكني لا أستطيع أن أنتظر أكثر.

حين رآه الكلب على العتبات طفق ينبح وحاول أن يحطّم سلسلته ثانيةً. بدأ سائق العربة، الذي نام مستندًا على مرفقه، يرجع الخيول؛ وتفرَّق الدجاج في كل ناحية فزعًا؛ وأطلّت العديد من الرؤوس عبر النوافذ.

قالت سيدة المنزل بقلق حين جلس أبلوموف في العربة:

سوف أخبر أخي بأنك زرتنا.

نعم وأرجوك أخبريه بأني بسبب ظروف قاهرة لا أستطيع أن أحتفظ بالشقة وسوف أؤجرها إلى شخص آخر أو ليته بحث عنهُ...

قالت وأصغت له شاردة الذهن:

هو يأتي عادةً في مثل هذا الوقت. سوف أخبره بأنك تنوي زيارتنا ثانيةً.

قال أبلوموف:

نعم سوف أزوركم في غضون أيام قليلة.

خرجت العربة من الفناء بصحبة النباح المسعور للكلب، وراحت تتمايل فوق كومات الطين الجافة في الشارع غير المبلّط. ظهر في نهايته رجل متوسط العمر يرتدي معطفا باليًا، حاملًا تحت إبطه طردًا ورقيًا، وفي يده عصا غليظة، ويلبس حذاءً مطاطيًا على الرغم من حرارة النهار وجفافه. مشى بسرعة وهو ينظر من جانب إلى آخر، وخطى خطوات ثقيلة كأنه كان ينوي أن يقتحم الرصيف الخشبي. استدار أبلوموف لينظر له، ورأى بأنه استدار إلى بوابة بيت السيدة بشنيتزين.

قال مستنتجًا:

أعتقد أنّ هذا أخوها قد عاد. لكن فليذهب إلى الجحيم! سيتعين عليّ أن أقضي ساعة في الحديث معه وأنا جائع والجو حار جدًا! إضافة إلى أن أولغا تنتظرني سآتي مرة أخرى.

صاح بالسائق:

هيّا أسرِع.

تذكّر فجأة بينما كان ينظر إلى الأسيجة على كل جانب من الطريق. فأسرّ لنفسه: «وماذا عن الذهاب للبحث عن شقة أخرى؟ يجب أن أعود إلى مورسكايا أو كونييوشينيا سأرجع مرة ثانيةً».

وحثّ السائق:

أسرَع، أسرَع!

❋ ❋ ❋

(3)

بدأ المطر بالهطول في نهاية شهر آب، وارتفع الدخان من مداخن الأكواخ الصيفية التي احتوت على المواقد، ولم يعد الناس فيها يطوفون ومناديلهم ملفوفة حول رؤوسهم؛ وخلت الأكواخ الصيفية أخيرًا من ساكنيها تدريجيًا.

لم يذهب أبلوموف إلى المدينة مرة أخرى، وفي صباح أحد الأيام تم رزم أثاث آل إلينسكي ونقلهُ مارًا بنافذته. على الرغم من أنّ تَرْكَ الشقة، وتناوُلَ الطعام خارج البيت، وعدم الاستلقاء طوال اليوم بدت مآثر بطولية بالنسبة له، إلا أنه واجه الآن مشكلة كيفية قضاء المساء. إذ بدا له أمرًا مستحيلًا أن يبقى وحيدًا في الريف حين يخلو المنتزه والغابات، وحين تغلق نوافذ أولغا.

مشى عبر غرفها الفارغة، وحول المنتزه، ونزل من التلّ، وكان قلبه يعصره الأسى. أمر زاخار وأنيسيا أن يذهبا إلى فايبورغ، إذ قرّر أن يبقى حتى يجد شقة أخرى، وذهب بنفسه إلى المدينة، وتناول الغداء في مطعم، وقضى المساء عند أولغا.

لكن أمسيات الخريف في المدينة لا تشبه النهارات المشرقة والأمسيات في المنتزه والغابات. فلم يكن يرى أولغا في المدينة سوى ثلاث مرات. هناك لم تهرع الخادمة كاتيا لتسلمهُ رسالة، ولا يمكنهُ أن يرسل زاخار لمسافة ثلاثة أميال لكي يوصل رسالة لها. في الواقع توقفت كل قصائد حبّهما الصيفية المزهرة كأنّ موضوعها قد استنفد. أحيانًا كانا يصمتان لمدة نصف ساعة. فتستغرق أولغا في عملها وتحسب مع نفسها عدد مربعات تطريزها بمخيطها، ويستغرق هو في فوضى الأفكار، ويعيش في مستقبل يتقدم على اللحظة الحاضرة. أحيانًا، حين كان ينظر إليها بانتباه يجفل شوقًا ووجدانًا، أو أنها تلمحهُ وتبتسم، بعد أن تلتقط في نظرته لمحة رقيقة. ذهب إلى المدينة وتغدّى لدى أولغا ثلاثة أيام متوالية تحت ذريعة أنّ غرفه غير جاهزة بعد، وأنه سينتقل في غضون أسبوع ويمكن أن لا يستقر في شقته الجديدة قبل ذلك. لكن في اليوم الرابع، شعر بأنه من غير المناسب أن يقوم بزيارتها، فكان يمشي ذهابًا وإيابًا أمام بيت أولغا لبعض الوقت، ويتحسّر ويرجع

بالعربة إلى البيت. في اليوم الخامس تواعد مع أولغا عند أحد الدكاكين للقائها هناك، إذ عادا إلى بيتها سيرًا على الأقدام، بينما تبعتهما العربة. عدّ ذلك أمرًا أخرق: إذ التقيا بمعارف لهما، وتبادلوا التحايا، وتوقف بعضهما للحديث.
قال وتصبّب العرق منه بسبب خوفه وحرجه:
يا إلهي، يا له من أمر شنيع!
نظرت إليه عمّة أولغا أيضًا بعينيها الكبيرتين الضعيفتين، وهي تستنشق أملاح النشادر باهتمام شديد، بسبب الصداع. كم كانت رحلة طويلة! استغرقت عودته من فايبورغ بالعربة في المساء ثلاث ساعات.
أصرّ أبلوموف قائلًا:
فلنخبرْ عمّتكِ، ثم يمكنني أن أبقى معك اليوم بأكمله، دون أن يقول الناس عنا شيئًا.
سألت أولغا:
لكن هل ذهبتَ إلى المحكمة؟
كان أبلوموف متلهفًا جدًا ليقول لها بأنه ذهب إلى هناك ونفذ كل شيء، لكنه عرف بأن أولغا تنظر إليه بتمعّن لتكتشف الكذبة في وجهه. أجاب وتنهّد:
أوه، لو تعلمين كم المهمة صعبة!
سألت بعد ذلك، دون أن ترفع عينيها:
هل تكلمتَ مع أخ مالكة الشقة؟ هل عثرتَ على شقة جديدة؟
قال أبلوموف، وكان مسرورًا بالعثور على عذر مقنع.
لم يكن في البيت صباحًا، وفي المساء أكون هنا.
تنهدت أولغا لكنها لم تقل كلمة.
حاول أبلوموف أن يسترضيها قائلًا:
غدًا سوف أتكلم بالتأكيد مع أخ صاحبة الشقة. غدًا يوم الأحد ولن يذهب إلى الدائرة.
قالت أولغا متأملة:

إذن لن نستطيع إخبار عمتي أو اللقاء كثيرًا حتى تحسم المسألة.
قال بسرعة متوجّسًا:
أجل، أجل.
قرّرت:
من الأفضل أن تتغدى فقط معنا في يوم الأحد ثم في يوم الأربعاء مثلًا، في البيت، وفي بقية الأيام يمكننا أن نلتقي في المسرح. سأخبرك متى نذهب لكي تأتي أنت.
قال وفرِحَ لكونها أخذت على عاتقها مسؤولية ترتيب لقاءاتها القادمة.
نعم، صحيح.
ختمت بالقول:
وإذا كان الجوُّ رائقًا فسوف أذهب للنزهة في الحدائق الصيفية، وتستطيع أن تأتي هناك. ذلك سيذكرنا بالمنتزه.
وكرّرت بإشفاق:
المنتزه!
قبّل يدها بصمت وودعّها حتى يوم الأحد. لاحقته بعينيها المرتسمتين بالحزن، ثم جلست عند آلة البيانو وأصبحت مستغرقة في نغمات الموسيقى. كان قلبها يبكي من أجل شيء ما، ونحبتْ النغمات أيضًا. أرادت أن تغنّي، لكنها لم تستطع.
حين نهض أبلوموف في الصباح التالي، لبسَ المعطف الداخلي الذي أعتاد على ارتدائه في الكوخ الريفي. لقد انفصل عن مبذلهِ منذ مدة طويلة، وأعطى الأوامر بإبعاده في خزانة الملابس. مشى زاخار كالأخرق إلى المائدة التي وضعت عليها القهوة وأقراص الخبز، حاملًا صينية لا تثبت بيديه كالعادة. أطلت أنيسيا برأسها أيضًا كعادتها عبر الباب لترى إن كان زاخار سيحمل الأكواب بسلام إلى المائدة، وكانت تخفي نفسها بصمت حالما يضع زاخار الصينية على المنضدة أو أنها تهرع إليه بسرعة لو أسقطَ شيئًا، كأنها تنقذ الآخرين من السقوط. حين وقع ذلك بدأ زاخار يشتم أولًا الأشياء الساقطة، ثم زوجته كأنه يضربها على صدرها بمرفقه.
سأل أبلوموف:

يا لها من قهوة فاخرة! من صنعها؟
قال زاخار:
مالكة الأراضي بنفسها سيدي. لقد صنعتها في غضون الأيام الخمس الماضية إذ قالت: «أنتم تضعون فيها الكثير من الهندباء ولا تغلونها بصورة كافية دعني أعملها».
كرّر أبلوموف وصبّ لنفسه كوبًا آخر:
رائعة! شكرًا لها.
قال زاخار مشيرًا إلى باب مفتوح جزئيًا من غرفة جانبية:
ها هي بنفسها. أتوقع أنّ تلك هي حجرة المؤن. إنها تعمل هناك، إذ يحتفظون بالسكّر والشاي والقهوة هناك إضافة إلى الهندباء.
لم يستطع أبلوموف أن يرى سوى ظهر مالكة الأراضي، ورأسها من الخلف، وشيئًا من رقبتها البيضاء ومرفقيها العاريين.
سأل أبلوموف:
لماذا تحّرك مرفقيها بسرعة هكذا؟
لا أعلم بالتأكيد يا سيدي. أتوقع أنها تشتغل بالتخريم.
راقبها أبلوموف بينما تحرّك مرفقيها، وتحني ظهرها، ثم يستقيم ثانيةً. حين انحنت للأسفل كان بوسعه أن يرى تنورتها النظيفة وجواربها، وساقيها المدورتين المسبوكتين.
فكّر أبلوموف: «أرملة موظف حكومي، لكن مرفقيها يناسبان كمرفقي كونتيسة، وبغمّازتين أيضًا!».
جاء زاخار في منتصف النهار ليسأل إن كان يود أن يتذوق فطيرتهم: لقد أرسلتها سيدة المنزل له مصحوبة بتحياتها.
إنه يوم الأحد سيدي، وهم يعدّون فطيرة اليوم.
قال بلا مبالاة:
أستطيع أن أتصور نوع الفطيرة. إنها بالجزر والبصل.

قال زاخار:

كلا، سيدي. إنها ليست أسوأ من فطيرتنا في أبلوموفكا بالدجاج والفطر الطازج.

أوه، لا بدّ من أن تكون طيبة: اجلب لي شيئًا منها! من يصنعها؟ تلك المرأة الفلاحة القذرة؟

قال زاخار بازدراء:

ليست هي! إنها لا تعرف كيف تمزج العجينة. السيدة هي دائمًا في المطبخ، هي وأنيسيا صنعتا الفطيرة سيدي.

بعد خمس دقائق اندفعت ذراع عارية، بالكاد يغطيها شالٌ كان قد رآه سابقًا، عبر باب الغرفة الجانبية، تحمل طبقًا يحوي على قطعة ضخمة من فطيرة ساخنة يتصاعد منها البخار.

صاح أبلوموف:

شكرًا جزيلًا.

أخذ الفطيرة وألقى نظرة عبر الباب. ركّز عينيه على الصدر الضخم والكتفين العاريين. سرعان ما انغلق الباب.

سأل الصوت:

ألا تريد بعضًا من الفودكا؟

قال أبلوموف بدماثة:

شكرًا، لا أشرب.

قال الصوت:

نصنعه بأنفسنا في البيت من نقيع أوراق العنب.

قال أبلوموف:

لم أشرب أبدًا نقيع أوراق العنب. من فضلك أعطني جرعة لأجربه.

اقتحمت اليد العارية الباب ثانيةً بكأس الفودكا على طبق. شربهُ أبلوموف وأعجب به جدًا.

قال:

شكرًا جزيلًا.

وحاول أن يتلصص من الباب، لكن الباب ضرب بقوة.

قال أبلوموف معاتبًا:

لماذا لا تدعيني أنظر إليك وأقول لكِ صباح الخير؟

ابتسمت سيدة المنزل وراء الباب وأجابت:

آسفة، لكني مازلت ارتدي ثوبي اليومي: لقد كنتُ في المطبخ الوقت كله كما ترى. سوف أرتدي ملابسي الآن، وسوف يأتي أخي قريبًا من القدّاس.

لاحظ أبلوموف:

أوه، فيما يتعلق بأخيك. أود التحدث معه. قولي له أني أريد أن أراه من فضلك.

حسنٌ، سوف أخبره حين يأتي.

سأل أبلوموف:

من هذا الذي يسعل؟ يا له من سعال جاف!

إنها جدتي. ظلت تسعل طوال سبع سنوات.

وانغلق الباب بقوة.

فكّر أبلوموف: «كم هي بسيطة، وهناك شيء مميز فيها. وهي نظيفة جدًا أيضا!» لم يقابل أخ سيدة المنزل لحد الآن. بين فترة وأخرى، وفي الصباح الباكر، وحين لم يزل في الفراش، كان يلمح رجلًا يحمل طردًا ورقيًا تحت إبطه ويندفع خارج الجانب الآخر من السياج ويختفي في الشارع؛ وفي الساعة الخامسة فإن الرجل نفسه صاحب الطرد الورقي كان يندفع مارًا بالنوافذ ويختفي وراء الباب الأمامي.

لم يُسمع له صوت في البيت. مع ذلك لم يكن ثمة شك، وبالأخص في الصباح، بأن البيت مليء بالناس: كانت هناك صلصلة السكاكين في المطبخ؛ يمكن سماع المرأة الفلاحة وهي تشطف شيئًا في زاوية الفناء؛ كان الحارس يقطّع الخشب أو يجلب

برميل الماء؛ يمكن سماع الأطفال عبر الحائط وهم يتصايحون، ومن هناك جاء صوت سعال العجوز الجاف بشكل متواصل.
كان لدى أبلوموف أربعة من أفضل الغرف في البيت. شغلت سيدة البيت وعائلتها الغرفتين الخلفيتين، وعاش أخوها في الطابق العلوي بالعليّة. كان مكتب أبلوموف وغرفة نومه تطلان على الفناء، وغرفة الاستقبال تواجه الحديقة الصغيرة، أما الصالة فتقابل الحديقة الكبيرة المزروعة بالملفوف والبطاطا. كانت ستائر غرفة الاستقبال مصنوعة من قماش القطن الباهت. كانت كراسٍ بسيطة، من خشب الجوز التقليدي، صفّت على طول الحائط. انتصبت طاولة لعب الورق تحت المرآة؛ وفي عتبات النوافذ كانت مزهريات تحمل نباتات الجيرانيوم والقطيفة الأفريقية، وأربعة أقفاص لطيور السِسْكن[62] والكناري معلّقة في النوافذ.
سار أخو سيدة المنزل على أطراف أصابعه وانحنى مرتين ردًا على تحية أبلوموف. كان زيّ الموظف الحكومي الذي لبسهُ مزررًا حتى القمة، لكي لا يقال إن كان ارتدى قميصا تحته أم لا؛ كانت ربطة عنقه معقودة وأطرافها مثنية. كان رجلًا يبلغ حوالي الأربعين سنة. كانت ذؤابة من الشعر المستقيم على جبهتِهِ وذؤابتان على صدغيه، تهفهفان بلا اكتراث في الريح وتشبهان أذني كلب متوسط الحجم. عيناه الرماديتان لا تنظران مباشرةً إلى الشيء، بل تلمحانه أولًا خلسة ثم تركزان عليه.
كان خجلًا من يديه، وحين يتكلم يحاول أن يضعهما وراء ظهره ويدخل الأخرى في جيب معطفه. حين يسلّم ورقة إلى رئيسه ويوضح بعض النقاط فيها، تبقى إحدى يديه وراء ظهره وتشير الأخرى بحذر إلى سطر أو كلمة بالأصبع الوسطى، ويبقي ظفره للأسفل، وما إن تظهر، حتى يسحبها فورًا، ربما لأنّ أصابعه كانت ثخينة وحمراء وترتجف قليلًا واعتقد، لسبب وجيه، بأنه من غير اللائق إظهارها عدة مرات.

62عصفور كالحسّون حاد المنقار م.

قال وألقى نظرة مزدوجة على أبلوموف:
أعتقد سيدي بأنك أمرت بأن أحضر لمقابلتك.
أجاب أبلوموف بلطف:
نعم. أردتُ إلى أتكلم معك حول الشقة. اجلس من فضلك.
بعد الدعوة الثانية غامر إيفان ماتيفيتش بالجلوس، متكئًا بجسده بأكمله ومقحمًا يديه داخل كمّيه.
قال أبلوموف:
أريد البحث عن شقة أخرى ولهذا أود أن أؤجرها من الباطن.
قال إيفان ماتيفيتش:
من الصعب تأجيرها من الباطن الآن.
وسعل في يديه وأخفاهما بسرعة في كميّه. وأضاف:
ليتك جئت في نهاية الصيف، فهناك الكثير من الناس يبحثون عن تأجيرها.
قاطعهُ أبلوموف:
زرتك لكنك لم تكن موجودًا.
أضاف الموظف الحكومي:
أخبرتني أختي. لكنك لا تقلق حول شقتك: ستكون مرتاحًا جدًا هنا. هل تزعجك الطيور؟
أية طيور؟
الدجاج سيدي.
على الرغم من أنّ أبلوموف سمع باطراد من الصباح الباكر قوقأة الدجاج المفرخة العميق وصأصأة الصيصان عند نافذته إلا لم يعر اهتمامًا لها.
كانت صورة أولغا أمام ذهنه ونادرًا ما لاحظ ما كان يحدث حوله.
قال:
كلا، لا أهتم بذلك. كنت أظن أنك تقصد طيور الكناري: إنها تبدأ التغريد من الصباح الباكر.

أجاب إيفان ماتيفيتش:
سوف ننقلها من هنا.
لاحظ أبلوموف:
لا تهمني أيضًا. لكن الظروف لا تتيح لي أن أبقى هنا.
أجاب إيفان ماتيفيتش:
كما تحب سيدي. لكن إذا لم تحصل على مستأجر آخر، فما الذي سيحصل للعقد بيننا؟ هل ستدفع تعويضًا؟ أكيد ستخسر بسببه.
سأل أبلوموف:
كم سيكون؟
سوف أجلب الحسابات.
جاء بالعقد والمعداد.
قال:
إيجار الشقة ثمانمائة روبل، وأنت دفعت مئة روبل كعربون، فيبقى سبعمائة روبل.
قاطعهُ أبلوموف:
لكن لا يمكن أن تطلب مني إيجار سنة كاملة وأنا لم أسكن هنا سوى أسبوعين.
أجاب إيفان ماتيفيتش بشكل واعٍ ورقيق:
كيف إذن سيدي؟ من الظلم أنّ تتحمل أختي الخسارة. إنها أرملة فقيرة تعيش من إيجار الغرف وتعتمد على بيع الدجاج والبيض لشراء ملابس للأطفال.
قال أبلوموف:
لكن يا إلهي، لا أستطيع أن أدفعه. لكن فكّرْ بالأمر، أنا لم أبقَ هنا إلا أسبوعين. إنه ظلم. لماذا عليّ أن أدفع المبلغ كله؟
قال إيفان ماتيفيتش:
انظر ماذا يقول العقد سيدي. اقرأ من فضلك وأشار إلى سطرين بأصبعه الوسطى. ثم أخفاهما في كمّيه.
قرأ أبلوموف:

أنا أبلوموف الموقع أدناه إذا ما رغبت بمغادرة الشقة قبل انتهاء عقد الإيجار، أتعهد بتسليمها إلى مستأجر آخر بالشروط نفسها، وإذا ما أخللتُ بذلك، فيجب عليّ أن أعوّض السيدة بشنتزين عن طريق دفع إيجار سنة كاملة حتى نهاية شهر حزيران من السنة القادمة.
قال:
لكن كيف يجوز ذلك؟ إنه ظلم.
علّق ماتيفيتش:
ذلك هو القانون سيدي. أنت وقعته بنفسك. ها هو توقيعك.
وضع أصبعهُ ثانيةً تحت التوقيع ثم سرعان ما اختفى.
قال أبلوموف:
كم المتبقي؟
بدأ إيفان ماتيفيتش ينقر على المِعداد بالأصبع نفسه وينحني بسرعة في كل مرة ويخفيه بقبضته:
سبعمائة روبل، ومئة وخمسون روبلًا للإسطبلات والسقيفة.
نقر على خرزات المِعداد مرة أخرى.
اعترض أبلوموف بجرأة:
لكن يا سيدي أنا لا أملك خيولًا فما حاجتي للإسطبل والسقيفة؟
علّق ماتيفيتش وأشار إلى سطر بأصبعه:
مكتوب في العقد سيدي. قال السيد تارانتييف إنك سوف تربّي خيولًا.
قال أبلوموف بغيظ:
السيد تارانتييف كاذب! هات لي العقد!
اعترض إيفان ماتيفيتش بلطف وتناول العقد:
سوف أعطيك نسخة منه سيدي. العقد يعود لأختي.
قرأ ماتيفيتش:

وإضافة إلى ذلك، يجب دفع مائتين وخمسين روبلًا لقاء زراعة الحديقة بنباتات مثل الملفوف واللفت وبقية الخضروات.
أجاب أبلوموف مهدّدًا؟
أي حديقة؟ أي ملفوف؟ ماذا تقول؟ لا أعرف شيئًا عن كل ذلك!
قال السيد تارانتييف:
إنه مدّون في العقد سيدي!، فالسيد تارانتييف قال بأنّك تريد أن تضمنهُ في العقد...
قال أبلوموف ونهض:
هل تريد أن تقرّر دون علمي ما يجب أن تحتويه مائدتي؟ لا أريد ملفوفك ولا لفتك.
نهض إيفان ماتيفيتش من كرسيّه أيضًا.
اعترض:
دون علمك سيدي؟ انظر، ها هو توقيعك!
ارتجف أصبعه الغليظ فوق التوقيع مرة أخرى، واهتزت الورقة بأكملها في يده.
قال أبلوموف نافد الصبر:
كم إجمالي المبلغ؟
هناك تكلفة صبغ الأبواب والسقف، وتبديل النوافذ في المطبخ، ووضع مفاصل جديدة للأبواب مئة وأربعة وخمسون روبلًا وثماني وعشرون كوبيكًا.
سأل أبلوموف بدهشة:
ماذا؟ وهل عليّ أن أدفع عن هذه أيضًا؟ صاحب الملك هو الذي يدفع ذلك. لا أحد ينتقل إلى شقة غير مؤثثة.
قال إيفان ماتييفتش وأشار من بعيد إلى الفقرة المخصصة لذلك:
حسنٌ، يا سيدي، مكتوب في العقد أنّ عليك أن تدفع هذا المبلغ.
وختم قوله بلطف وأخفى كلتا يديه مع العقد وراءه:

سيدي، يكون الإجمالي ألفا وثلاثمائة وأربعة وخمسين روبلًا وثمانية وعشرين كوبيكًا!
قال أبلوموف ومشى في الغرفة:
لكن من أين أحصل عليها؟ لا يوجد لديّ نقود. ماذا أفعل بملفوفكم ولفتكم؟
أضاف إيفان ماتييفتش بهدوء:
كما تحب سيدي! لكن لا تقلق؛ سوف تجد الراحة هنا. أما بالنسبة للمال فإنّ أختي لا تستطيع الانتظار.
آسف لكني لا أستطيع البقاء؛ بسبب ظروفي. هل تسمعني؟
أجاب إيفان ماتييفتش مذعنًا، وانسحب خطوة.
نعم، سيدي، كما تحب.
قال أبلوموف وأومأ له برأسه:
حسنًا، سوف أفكّر وأحاول أن أؤجر الشقة.
ختم إيفان ماتييفتش قوله وانحنى ثلاث مرات وترك الغرفة.
ستجد الأمر صعبًا عكس ما تفكر به سيدي. لكن كما ترغب.
أخذ أبلوموف محفظة نقوده، واندهش تمامًا حين أحصى مبلغه: كان هناك 305 روبلًا فقط.
سأل أبلوموف نفسه مندهشًا ومرعوبًا تقريبًا:
كيف ضيعت مالي؟ في بداية الصيف تسلمت من الريف ألف ومئتي روبل، والآن هناك ثلاثمائة فقط.
بدأ يحصي وحاول أن يتذكر كل مصروفاته واستطاع أن يتذكر 250 روبلًا فقط.
قال:
أين ذهبت النقود؟
زاخار! زاخار!
نعم سيدي؟
سأله:

أين ذهب مالنا؟ أنت ترى، لم يتبقَّ لنا منه شيء.
بدأ زاخار ينقّب في جيبيه، وانتزع نصف روبل وقطعة من فئة العشرة روبلات ووضعها على المائدة.
قال:
أنا آسف جدًا سيدي. نسيت أن أرجعها لقد تخلفت من كلفة انتقالنا.
لماذا تريني هذه النقود الصغيرة؟ أخبرني ماذا صنعنا بالثمانمائة روبل.
كيف لي أن أعلم يا سيدي؟ ومن أين أعلم بما صرفت من نقود، وكم تدفع لأجور السفر بالعربات؟
تذكّر أبلوموف ونظر إلى زاخار:
نعم، العربات تكلف الكثير. ألا تتذكر كم دفعنا إلى سائق العربة في الريف؟
كيف أتذكر ذلك سيدي؟ بالطبع كلا. أخبرتني مرة أن أعطيه ثلاثين روبلًا، ذلك ما أتذكره فحسب.
قال أبلوموف مؤنِّبًا:
ليتك دوَّنتها. ما أسوأ أن تكون أميًّا.
قال زاخار ونظر جانبًا:
لقد قضيت كل حياتي أمّيًا والحمد للهّ لم أكن أسوأ من الآخرين.
فكّر أبلوموف: «كان شتولتس على حق بشأن الحاجة إلى المدارس في الأرياف».
واصل زاخار كلامه:
آل إلينسكي، سيدي، لديهم خادم يقرأ ويكتب ومع ذلك كان يسرق الأطباق الفضية من الخوان.
فكّر أبلوموف بتوجّس: «هل فعلها الآن؟ نعم الخدم الذين يعرفون القراءة والكتابة يفتقدون الأخلاق يقضون كل وقتهم في البيوت العامة مع الأكورديونات، والإسراف في ارتشاف الشاي... كلا، مازال الوقت مبكرًا لفتح المدارس!
سأل:

حسنٌ، ما هي المصروفات التي كانت لدينا؟
كيف لي أن أعلم يا سيدي؟ أعطيتَ للسيد تارانتييف بعض المال حين جاء ليراك في الريف.
صاح أبلوموف ونظر مسرورًا لتذكره ذلك:
صحيح! إذن هناك ثلاثين روبلًا للعربة وخمسة وعشرون لتارانتييف. ماذا بعد؟
نظر بتساؤل وتفكّر إلى زاخار الذي بدوره نظر إليه عابسًا.
سأله أبلوموف:
هل تعتقد بأنّ أنيسيا تتذكر؟
قال زاخار بازدراء:
وهل تتذكر تلك الحمقاء يا سيدي؟ ماذا تعرف المرأة؟
ختم أبلوموف قوله بشكل كئيب:
لا أتذكر. وهل كان لدينا لصوص؟
قال زاخار وترك الغرفة:
لو كان لدينا لصوص لسرقوا كل شيء.
جلس أبلوموف في الكرسي متأملًا وفكّر يائسًا: «من أين لي أن أحصل على المال؟ متى سيرسلون بعض المال من الريف وكم المبلغ؟» ألقى نظرة على الساعة: كانت تشير إلى الثانية وهو الموعد الذي يذهب فيه إلى أولغا. كان هذا اليوم هو الذي يجب أن يتغدّى هناك. شعر بالفرح تدريجيًا، وأمر بإحضار العربة واتجه إلى شارع مورسكافا.

***

(4)

أخبر أولغا بأنه تكلَّم مع أخ صاحبة المنزل وأضاف بسرعة بأنه كان يأمل أن يكون قادرًا على تأجير الشقة في غضون أسبوع. خرجت أولغا مع عمتها لكي تقوم بزيارة قبل الغداء وذهب أبلوموف لينظر إلى الشقق في الجوار. زار بيتين؛ وجد في أحدهما شقة فارغة ذات أربع غرف بمبلغ 4000 روبل، أما الأخرى فكان إيجارها بمبلغ 6000 روبل وهي ذات خمس غرف. كرّر: «فظيع! فظيع!»، وسدّ أذنيه وهرب وسط دهشة الحرّاس. أصابه الفزع من إجمالي المبلغ بعد أن أضاف إلى هذين المبلغين الألف روبل الذي كان عليه أن يدفعه إلى السيدة بشنتزين، وأسرع خطوته عائدًا إلى منزل أولغا. كانت أولغا نشطة جدًا وتكلّمت وغنّت وأثارت المشاعر. أصغى أبلوموف وحده شارد الذهن، مع أنها كانت تتكلم وتغني له وحده، لأنها لم ترغب منه أن يجلس هناك ينظر مكتئبًا، لكن كل شيء يجب أيضًا أن يتكلم ويغنّي.

قالت:

تعالَ إلى المسرح غدًا لدينا مقصورة.

فكّر أبلوموف: «في المساء، وعبر ذلك الطريق المكسو بالطين!» ونظر إلى عينيها، وأجاب على ابتسامتها بابتسامة القبول.

وأضافت:

نحجز مقعدًا للموسم. آل مايفسكي يأتون الأسبوع القادم. وجهت عمتي دعوة لهم إلى مقصورتنا.

ونظرت إلى عينيه لترى إن كان مسرورًا.

فكّر مرعوبًا: «يا إلهي، تبقت لي ثلاثمائة روبل فقط».

أطلب من البارون أن يحجز مقعدًا لك غدًا؛ فهو يعرف الجميع.

ابتسمت مرة أخرى، ونظر إليها فابتسمت أيضا، وطلبت من البارون، وهي ما زالت مبتسمة، أن يحجز مقعدًا له، وبدوره ابتسم البارون أيضا وتعهّد بتنفيذ طلبها.

أضافت أولغا:

ستكون هناك لحجز المقاعد الآن. وحين تنتهي من مهمتك، تأخذ مكانك في مقصورتنا فورًا.

وابتسمت للمرة الأخيرة كابتسامتها حين تكون مسرورة تمامًا. أوه، كم شعر بالسعادة فجأة حين رفعت أولغا وشاحها فبان المشهد المغري، المخفي في الابتسامات كأنه بين الأزهار! نسي كل ما يتعلق بالنقود، لكنه حين رأى في الصباح التالي إيفان ماتفيفيتش وهو يمر مندفعًا تحت نافذته بطرده الورقي تذكر وثيقة التوكيل وطلب من أخ صاحبة المنزل أن يصدقها في المحكمة. قرأها إيفان ماتفيفيتش وأعلن بأنّ فيها نقطة غامضة، وتعهد بجعلها واضحة. تمت كتابة الوثيقة ثانيةً، وتصديقها وإرسالها بالبريد. زفّ أبلوموف الخبر إلى أولغا مبتهجًا، وكان مسرورًا بأنه تركه كل هذه المدة الطويلة. كان سعيدًا بأنه لم يعد محتاجًا إلى البحث عن شقة إلى أن يتسلم جوابًا من الريف، وفي الوقت نفسه سوف يتخذ إجراءً من أجل ماله. فكّر: «يمكن للمرء أن يعيش برَغَد هنا، بعيدًا عن الهموم، النظام الصارم يسود في البيت وإدارته تجري بشكل رائع». بالفعل، كان المكان يدار بشكل جميل. ومع أنّ وجباته يتم تحضيرها بشكل مستقل، إلا أن صاحبة البيت اعتنت بطعامه أيضا. دخل المطبخ في أحد الأيام ووجد سيدة المنزل وأنيسيا تجلسان بشكل ودّي جدًا. إذا كانت هناك مصاهرة بين الأرواح، وإذا ما اعترفت كل منها بالأخرى بكرم بالغ، فلن يكون أوضح مثال لها سوى التعاطف المتبادل بين أغافيا ماتفييفنا وأنيسيا. كان يسود بينهما الاحترام والفهم المشترك من الوهلة الأولى، بالكلمات والحركة. ما إن شمرّت أنيسيا عن ساعديها وتسلّحت بالخرقة والمسعار[63]، حتى رتبت المطبخ الذي لم يتم استعماله لمدة ستة أشهر، وبضربة واحدة كنست الغبار من فوق الرفوف، والجدران، والمناضد، وبسرعة أزالت الرماد من على الموقد، فقدّرت أغافيا ماتفييفنا جهد أنيسيا الوافر والمساعدة

63 عمود إذكاء النار م.

الكبيرة التي قدمتها في البيت. من جهتها لاحظت أنيسيا مرة كيف أن أغافيا ماتفييفنا سيطرت على مطبخها، وكيف أن عينيها الصقريتين دون حاجبين لاحظتا كل حركة خرقاء من أكولينا البطيئة؛ كم كانت تسرع في إصدار أوامرها لاسترجاع شيء وإقحامه أو إضافة الملح، أو تسخين شيء، وكيف تقدّر بشكل صائب في السوق، بنظرة، أو بلمسة من أصبع، عمر دجاجة، وكم مدة بقاء السمكة خارج الماء، وحين يتم تقطيع البقدونس أو الخس تحدّق فيها بإعجاب وبتوجس ينم عن الاحترام، وتقرر أنيسيا بأنها قد فقدت مهنتها الحقيقية وأن الحقل المناسب لنشاطاتها كان مطبخ أبلوموف، إذ كانت انطلاقتها الثابتة وحركاتها القلقة والعصبية المحمومة موجهة فقط نحو التقاط طبق أو كأس أسقطهما زاخار، إذ إن تجربتها ورجاحة عقلها كبتتها غيرة زوجها العنيد وجهله الشديد. فهمت المرأتان كل منهما الأخرى ورسخت العلاقة بينهما بشكل متين.
حين كان أبلوموف يتناول الغداء في الخارج كانت أنيسيا تقضي وقتها في مطبخ سيدة البيت، وبداعي حبها لفن الطبخ، كانت تنطلق كالسهم من زاوية إلى أخرى، وترتب الأواني ثم ترفعها مرة أخرى، وفي الوقت نفسه تفتح الخزانة وتخرج منها ما تحتاج ثم تغلق الباب ثانيةً قبل أن تحين الفرصة لأكولينا لفهم حقيقة ما كان يجري. كانت مكافأة أنيسيا غداء وستة أو أكثر من أكواب القهوة في الصباح والعدد نفسه في المساء، مع حديث صريح وطويل، وأحيانًا همس وأسرار، مع صاحبة المنزل.
حين كان أبلوموف يتناول الغداء في البيت، كانت صاحبة المنزل تساعد أنيسيا، وتشير بإصبع أو كلمة إن كان الوقت قد حان لتحضير اللحم المشوي، أو يجب إضافة النبيذ الأحمر أو بعض الكريمة إلى الصلصة، وما هي الطريقة الصحيحة في غلي السمك... يا إلهي، كم اكتسبت إحداهما من الأخرى أفكارًا مفيدة حول التدبير المنزلي، لا تتعلق بفن الطبخ فحسب بل أيضا بالكتان، والغزِل، والخياطة، وغسل الملابس، وتنظيف شرائط الزينة والقفازات، وإزالة البقع من المواد المختلفة إضافة إلى استعمال كل أنواع الأدوية المصنّعة محليًا والأعشاب كل شيء

في الواقع قدمهُ العقل الراجح والخبرة الطويلة إلى تلك المنطقة الخصوصية من الحياة!
كان أبلوموف ينهض في الساعة التاسعة صباحًا وأحيانًا يلمح من خلال قضبان السياج أخ صاحبة المنزل وهو يذهب إلى العمل متأبطًا رزمة الورق؛ ثم يرتشف القهوة الفاخرة دائمًا، وكانت القشدة كثيفة وأقراص الخبز ناضجة ومقرمشة. ثم يدخّن سيجارًا ويصغي بانتباه إلى قوقأة الدجاجة المفرّخة، وزقزقة الصيصان، وتغريد طيور الكناري والسِسكن. ولم يطلب بنقلها لأنها «تذكرني بالريف» كما قال.
ثم يجلس لإنهاء قراءة الكتب التي بدأها في كوخه الصيفي، وأحيانًا يستلقي بشكل طارئ على الأريكة لقراءة الكتاب. كان الصمت يسود حوله؛ لا يقطعه أحيانًا سوى خطوات جندي أو حشد من الفلاحين يعلّقون الفؤوس بأحزمتهم وهم يسيرون في الشارع. من النادر جدًا أن بائعًا جوّالًا يخترق هذه الضاحية البعيدة، ويتوقف أمام السياج المعرّش وهو يصيح لمدة نصف ساعة:
تفاح، بطيخ استراخاني[64].
لكي لا تتمالك نفسك من الشراء.
أحيانًا كانت ماشا، ابنة صاحبة المنزل، تدخل على أبلوموف برسالة من أمها تخبرها فيه بأنّ هناك مختلف أنواع الفطر للبيع وتسأله إن كان يود طلب برميل له.
أو كان ينادي على ابنها فانيا، ويسأله ماذا تعلمه ويجعله يقرأ ويكتب ليرى مستواه. إذا ما نسى الأطفال أن يغلقوا الباب وراءهم، فإنه كان يلمح رقبة السيدة العارية ومرفقيها وظهرها. كانت دائمًا مشغولة بالكوي والهرس والتلميع؛ ولم تعد تقف معه بشكل متكلف وتضع شالها حين تلاحظه وهو ينظر إليها من خلال الباب المفتوح بل تكتفي بالابتسامة وتستمر بمهامها في الهرس والكوي

64نسبة إلى استراخان وهي مدينة في جنوب روسيا تقع على ضفة نهر الفولغا.

والتلميع على المائدة الكبيرة. أحيانًا كان يمشي إلى الباب حاملًا كتاب وينظر إليها ثم يتكلم معها.
قال لها ذات مرة:
أنتِ دائمًا مشغولة!
ابتسمت وواصلت تشغيل مقبض مطحنة القهوة بعناية، وكان مرفقها يصنع دوائر بشكل سريع جدًا بحيث إن أبلوموف أصيب بالدوار.
تابع:
سوف ينال التعب منكِ.
أجابت وخشخشت طاحونة القهوة:
كلا، أنا متعودة عليها.
وماذا تفعلين حين لا يوجد هناك عمل؟
قالت:
لا يوجد عمل؟ آه، دائمًا ثمة عمل. في الصباح هناك طبخ الغداء، وبعده هناك الخياطة، وفي المساء تحضير العشاء.
هل تتناولون العشاء؟
نعم بالطبع، نتناول العشاء. وفي ليلة عيد الميلاد نذهب إلى صلاة الغروب.
مدحها قائلًا:
ذلك شيء حسن. إلى أيّ كنيسة تذهبون؟
كنيسة الميلاد؛ إنها كنيستنا الرعوية.
هل تقرأين؟
نظرت إليه بتعبير فارغ ولم تقل شيئًا.
سأل:
هل لديك كتب؟
لدى أخي بعضٌ منها، لكني لا أقرأ. نحصل على صحفنا من الحانة، ويقرأ أخي أحيانًا بصوت عال وفانيا بالطبع لديه العديد من الكتب.

لكن ألا ترتاحين أبدًا؟
كلا، أبدًا.
هل تذهبين إلى المسرح؟
أخي يذهب إلى عيد الميلاد.
وأنتِ؟
سألت وألقت نظرة جانبية عليه:
أنا؟ ليس لديّ وقت. من يحضّر العشاء؟
يمكن للطباخة أن تحل محلك.
اعترضت مندهشة:
أكولينا! يا إلهي، لا! إنها لا تعمل دوني. لن يكون العشاء جاهزًا منذ الصباح. لديّ كل المفاتيح.
عمّ الصمت. نظر أبلوموف بإعجاب إلى مرفقيها المكتنزين المدورين.
قال أبلوموف فجأة:
كم ذراعاك جميلتان. يمكن لأحد أن يرسمهما كما هما!
ابتسمت وتورّدت خجلًا قليلًا.
علقّت معتذرة:
الأكمام مزعجة جدًا، فهذه الأيام تُصنع الملابس بطريقة بحيث إن المرء لا يستطيع أن يمنع الأكمام من الوسخ.
صمتت، ولم يتكلم أبلوموف أيضًا.
همست صاحبة المنزل لنفسها: «يجب إنهاء طحن القهوة، ثم يجب أن أفتّت السكّر. ولا أنسى أن أجلب القرفة.» قال أبلوموف:
يجب أن تتزوجي. إنك ربّة بيت ممتازة.
ابتسمت وبدأت تصب القهوة في دورق زجاجي كبير.
وأضاف أبلوموف:
حقًا.

أجابت:

من يتزوجني ولديّ طفلان.

وبدأت تحسب شيئًا في ذهنها وقالت بتمعّن:

دستتان. هل ستكون قادرة على ترتيبها كلها؟

ووضعت الدورق في الخزانة، واندفعت نحو المطبخ. رجع أبلوموف إلى غرفته وبدأ يقرأ.

قال في سرّه: «يا لها من امرأة ناضجة ومعافاة، وكم هي ربة منزل رائعة! حقًا يجب أن تتزوج» واستغرق في التفكير بأولغا.

في يوم لطيف وضع أبلوموف قبعته وقام بنزهة في الجوار؛ وبعد أن غار في الطين في أحد الأماكن وكان له لقاء مزعج مع الكلاب في مكان آخر، رجع إلى البيت.

كانت المنضدة جاهزة وكان الطعام المقدّم طيبًا. أحيانًا كانت سيدة المنزل تمد ذراعها العارية بطبق عبر الباب وتطلب منه تذوق بعضًا من الفطيرة التي أعدتها.

قال أبلوموف بينما يركب العربة في طريقه إلى الأوبرا:

إنه مكان جميل وهادئ هنا، لكنه مع ذلك ممل.

في إحدى الليالي، بعد أن رجع متأخرًا من المسرح، طرق هو والحوذي لمدة ساعة على البوابة؛ فقد الكلب صوته من النباح وحاول قطع السلسلة. أصبح أبلوموف مرتجفًا وغاضبًا، وأقسم أنه سوف يغادر في اليوم التالي. لكن مرّ اليوم التالي ثم يوم غد والأسبوع كله ولم يزل في مكانه.

اشتاق إلى أولغا بشكل كبير في الأيام التي لم يستطع أن يراها، أو يسمع صوتها، أو يقرأ في عينيها نفس العاطفة والحب والسعادة. غير أنه في الأيام التي يستطيع أن يراها، عاش كما فعل في الصيف، مسحورًا بغنائها وحدّق في عينيها؛ وبصحبة الناس الآخرين فإن نظراتها لا تبالي بهم، لكنها عميقة ومهمة وكافية بالنسبة له.

مع اقتراب الشتاء وجدا من الصعوبة بمكان أن يلتقيا على انفراد. كان لدى عائلة إلينسكي زوارًا، وكانت تجمعهما أيام لم ينجح أبلوموف خلالها في قول كلمتين لها. كانا يتبادلان النظرات. وكانت نظراتهما تعبر عن الضجر ونفاد الصبر. كانت

تنظر إلى كل الضيوف بعبوس. شعر أبلوموف مرة أو مرتين بالضجر، وفي أحد الأيام وبعد الغداء كان على وشك أن يلتقط قبعته ويغادر.
سألت أولغا بدهشة وجاءت فجأة وأخذت قبعته:
إلى أين أنت ذاهب؟
أريد أن أذهب إلى البيت.
سألت ورفعت حاجبيها أحدهما أعلى من الآخر:
لماذا؟ ماذا تريد أن تفعل؟
قال وبالكاد كان قادرًا على الاحتفاظ بعينيه مفتوحتين:
أوه، لا أعرف.
سألت، ونظرت إليه بصرامة مرة في إحدى عينيه ثم في العين الأخرى:
وهل تظنني أسمح لك؟ هل تفكر بالذهاب إلى النوم؟
أجاب أبلوموف بسرعة:
يا إلهي، النوم في النهار! أنا ضجر فحسب.
وسمح لها بأخذ قبعته منه.
قالت:
نحن ذاهبون إلى المسرح اليوم.
أضاف بحسرة:
لكن هل سنكون في المقصورة نفسها؟
وأضافت بشكل متجبّر:
وما الضير في ذلك؟ وماذا لو أنّ أحدنا رأى الآخر عن بعد وسوف تأتي في الاستراحة وتنتظرني في النهاية، وتعطيني ذراعك لتأخذني إلى العربة؟ جهز نفسك للذهاب! ما كل هذا الهراء؟
لم يكن بدٌّ من تنفيذ أمرها: ذهب إلى المسرح، تثاءب كأنه على وشك أن يبتلع الخشبة، وهو يحك رأسه، ويظل يصالب ويعيد مصالبة ساقيه. فكّر: «ليت العرض ينتهي وأجلس بجانبها، ولا أن أجرجر نفسي الطريق كله هنا. من غير

المعقول بأننا يجب أن نلتقي بشكل عابر وبالصدفة بعد هذا الصيف وأني يجب أن أؤدي دور الولد الملتاع... الحقيقة، لن أذهب إلى المسرح اليوم لو كنا متزوجين: لقد شاهدت هذه الأوبرا ست مرات سابقًا».

في فترة الاستراحة ذهب إلى مقصورة أولغا، وبالكاد استطاع أن يشق طريقه بين رجُلين مجهولَين ملابسهما أنيقة. بعد خمس دقائق انسلّ وتوقف في الزحام عند المدخل إلى الأكشاك.

بدأ الفصل التالي وأسرع الناس إلى مقاعدهم. كان الرجلان الغندوران في مقصورة أولغا هناك لكنهما لم يلاحظا أبلوموف.

قال أحدهما إلى الآخر:

منْ ذاك الرجل الذي كان هنا في مقصورة أولغا؟

ردّ الآخر مستخفًّا:

أوه، شخص يدعى أبلوموف.

ومن هذا أبلوموف؟

إنه مالك أطيان وصديق لشتولتس.

صاح الآخر بشكل ودّي:

أوه، صحيح إنه صديق لشتولتس؟ ماذا يفعل هنا؟

أجاب الآخر وعادا إلى مقعديهما:

الرب وحده يعلم.

لكن أبلوموف لم يكن مركزًا بشكل كبير على هذا الحديث التافه.

«من كان الرجل؟ شخص يدعى أبلوموف ماذا يعمل هنا؟ الربّ وحده يعلم!»... كل هذه العبارات ظلت تطرق في ذهنه. «شخص ما...! ماذا أعمل هنا؟ آه، إني مغرم بأولغا: أنا هنا... إذن لقد سألوا ماذا أاعمل هنا لقد لاحظوني. يا إلهي، يجب أن أفعل شيئًا.» لم يعد يرى ماذا يحدث على المسرح، وظهور الفرسان والسيدات هناك؛ دوّت الأوركسترا، لكنه لم يسمعها. جال ببصره ليرى الناس الذين كان يعرفهم في المسرح هنا وهناك إنهم في كل مكان، وكلهم يسألون: «من

كان الرجل في مقصورة أولغا؟» وكلهم أجابوا: «أوه، شخص ما يدعى أبلوموف!» فكّر بشكل متوجّس وكئيب: «نعم. أنا مجرّد شخص! الناس يعرفونني لأني صديق شتولتس. لماذا أنا في مقصورة أولغا؟ الرب يعلم! تلكما الغندوران ينظران إليّ ثم إلى مقصورة أولغا!».

نظر إلى المقصورة. كانت تنظر إليه بمنظار ثنائي العين.

فكّر: «يا إلهي، إنها لا تنتزع عيناها مني! ما الذي يسحرها فيّ؟ كنز ثمين! والآن يبدو أنها تشير لي لكي أنظر إلى المسرح أعتقد أنّ تلكما الغندورين ينظران إليّ ويضحكان يا إلهي، يا إلهي!».

وبسبب اضطرابه حكّ رأسه مرة أخرى وصالب ساقيه. لقد دَعتْ الغندورين إلى الشاي بعد المسرح، ووعدت بإنشاد أغنية قصيرة ودعته إلى الحضور أيضًا.

لن أذهب إلى هناك اليوم ثانيةً. يجب أن أحسم هذه المسألة بأقرب فرصة ممكنة ثم... لماذا لم يرسل لي وكيلي جوابًا من الريف؟ لو أرسله لغادرت إلى القرية منذ مدة طويلة بعد أن أعلن خطوبتي لأولغا قبل الذهاب... أوه، إنها ما زالت تنظر إليّ! أوه، ذلك أمر رهيب!

رجع إلى البيت قبل أن ينتهي عرض الأوبرا. وانمحى انطباع تلك الأمسية في الأوبرا من ذهنه، ونظر مرة أخرى إلى أولغا ببالغ السعادة حين كان وحيدًا معها، وأصغى بدموع مكبوتة إلى نشوة غنائها حين كان الآخرون حاضرين، وعند رجوعه إلى البيت استلقى على الأريكة دون علم أولغا لكن ليس من أجل النوم، والاستلقاء ساكنًا كالخشبة، بل ليحلم بها، ويتمتع بالسعادة، ويتأمل بإثارة بالغة بحياته الهادئة في بيته مستقبلًا، إذ ستشرق أولغا وكل شيء قربها سوف يشرق أيضًا. حين يتطلع إلى المستقبل، كان ينظر أحيانًا بشكل تلقائي وأحيانًا مجبرًا من خلال الباب نصف المفتوح إلى مرفقي سيدة المنزل اللذين يتحركان بشكل سريع.

في أحد الأيام ساد الصمت بشكل تام في البيت والطبيعة: لا قعقعة للعربات، لا صرير للأبواب؛ وكانت الساعة تتكتك في بهو المدخل بانتظام، وكانت طيور الكناري تغنّي؛ لكن كل ذلك لم يكسر الصمت، بل أضاف فحسب لمسة الحياة

إليه. استلقى أبلوموف بكسل على الأريكة، وهو يعبث بخفّه، ويسقطهُ على الأرضية، ويرميه في الهواء، ثم يقلبه، ويمسكه بقدمه حتى يسقط. دخل زاخار وتوقف في المدخل.

سأله أبلوموف بنغمة صوته العابرة:

ماذا تريد؟

لم يقل زاخار شيئًا، ونظر إليه نظرة جانبية لكنها مباشرة.

سأل أبلوموف ونظر إليه بدهشة:

طيب؟ هل الفطيرة جاهزة؟

بدوره سأله زاخار:

هل عثرت على شقة جديدة سيدي؟

ليس بعد. لماذا؟

لم أرتب كل شيء حاليًا الآنيات، والملابس، والصناديق ما زالت مكومة في... سيدي. هل أرتبها؟

قال أبلوموف شارد الذهن:

مهلًا. أنا أنتظر رسالة من الريف.

أضاف زاخار:

إذن، أتوقع أن يكون زفافك بعد عيد الميلاد.

سأل أبلوموف ونهض فجأةً:

أيّ زفاف؟

أجاب زاخار بشكل قطعي كأنّ الأمر كله قد حسم منذ وقت طويل:

زفافك، بالطبع! هل تتزوج يا سيّدي؟

سأل أبلوموف مرعوبًا:

أتزوج؟ ممّنْ؟

وحملق في زاخار مندهشًا.

آه، سيدي، من فتاة آل إلينسكي الشابة...

وقبل أن ينطق زاخار الكلمة الأخيرة، اقترب أبلوموف منه.
صاح أبلوموف بصوت كظيم مثير للشفقة:
عمّ تتحدث أيها البائس الشقي؟
واقترب من زاخار أكثر فأكثر مضيفًا:
من وضع هذه الفكرة في رأسك؟
قال زاخار، وانسحب باتجاه الباب:
أنا لست بائسًا وشقيًا يا سيدي. من الذي أخبرني؟ آه، خدَم آل إلينسكي أخبروني في الصيف.
قال له أبلوموف بصوت خافت:
صه! ولا كلمة!
ورفع أصبعه وهزّه مهددًا.
قال زاخار:
وهل اخترعتُ الأمر؟
كرّر أبلوموف:
ولا كلمة!
ونظر بشكل صارم إليه وأشار إلى الباب.
خرج زاخار، وأطلق حسرة كبيرة يمكن سماعها في كل أنحاء البيت.
ترنّح جسم أبلوموف؛ بقي في الموضع نفسه وهو ينظر برعب إلى المكان الذي كان يقف فيه زاخار، ثم أمسك رأسه في يأس وغطس في الكرسي.
فكرّ مرارًا وتكرارًا: «الخدّم يعرفون! إنهم ينشرون الإشاعات عني في المطابخ وقاعاتهم! هذا ما وصل إليه الأمر! كان من الصفاقة أن يسألني متى يحل العرس. وعمتها لم تساورها الشكوك بعد، ولو شكّت بالأمر فربما يكون أمرًا آخر، شيئًا سيئًا... يا إلهي، ماذا ستظنّ؟ وأنا؟ وأولغا؟ أنا البائس الشقي، ماذا فعلت؟»
انقلب على الأريكة ودفن وجهه في الوسادة وأضاف: «العرس! لحظة الحياة الرومانسية للعشاق، تاج السعادة هذا، ناقشها الخدَم والحوذيون، حين لم يقرّر

شيء بعد، حين لم يأتِ جوابٌ لحد الآن من الريف، حين خلت محفظة نقودي من أيّ درهم، حين لم أعثر على شقة جديدة لحد الآن...» بدأ يحلّل اللحظة الرومانسية، التي فقدت فجأة كل سحرها حالما تكلم زاخار عنها. أصبح واعيًا بالجانب المعكوس للوسام، وظلّ يتلفت بشكل مؤلم من جانب إلى آخر، ويستلقي على ظهره، وقفز فجأةً، ودار ثلاث دورات حول الغرفة، ثم استلقى ثانيةً.

فكّر زاخار بشكل خائف وهو في الردهة:

ستكون ثمة مشكلة. أي شيطان جعلني أتكلم؟

ظلّ أبلوموف يسأل نفسه:

كيف عرفوا؟ لم تنطق أولغا بكلمة، ولن أجرؤ على الإفصاح عن أفكاري بصوت عال، وفي ردهة الخدم حسموا كل شيء! تلك هي نتيجة المقابلات وجهًا لوجه، ورومانسية الشروق والغروب، والنظرات المحمومة، والغناء الساحر! أوه، قصائد الحبّ تلك لا تؤدي إلى الخير! يجب على المرء أن يتزوج أولًا، ثم يطفح في جوّ وردي... يا إلهي، يا إلهي، ماذا عليّ فعله؟ أهرع إلى عمتها، وآخذ أولغا بيدها وأقول: «هذه خطيبتي!»، لكن لم يكن كل شيء جاهزًا، لا جواب من الريف، لا شقة جديدة! نعم، في البداية يجب أن أنتزع الفكرة من رأس زاخار، وأقضي على الإشاعات وأُطفئها كما تُطفأ المشاعل، لكي لا تنتشر، لكي لا يوجد ثَمَّ دخان ولا نار! ماذا يعني العرس؟» ابتسم واستذكر رؤيته الرومانسية السابقة للزفاف: الوشاح الطويل، زهر البرتقال، دمدمة الحضور... لكن الألوان لم تعد نفسها: يمكن له أن يرى في الحشد زاخار الخشن والقذر وكل أقنان عائلة إلينسكي، وعددًا من العربات، والعيون الباردة والفضولية للغرباء... ثم ظلّ يتصور كل أنواع الأمور المرهقة والموحشة...

قرّر، مضطربًا من الإثارة والتفكير المؤلم: «يجب أن أزيل هذه الفكرة من رأس زاخار. يجب أن أجعله يصدّق بأنّ الأمر غير معقول تمامًا».

بعد ساعة نادى على زاخار. تظاهر زاخار بعدم سماعه وكان على وشك أن ينسل بهدوء إلى المطبخ. لقد فتح مصراع الباب الأول دون أي يخلق أي ضجة، لكنه

أخطأ وحشر كتفه أمام المصراع الثاني بشكل أخرق بحيث إن كليهما انفتحا بشكل مدوٍّ.
صاح أبلوموف بشكل متغطرس:
زاخار!
أجاب زاخار من الممر:
نعم، سيدي؟
قال أبلوموف:
تعال هنا!
أجاب:
إذا أردت مني شيئًا سيدي، أخبرني ما هو وسوف أجلبه لك.
قال أبلوموف ببطء وتردد:
تعال هنا!
قال زاخار بصوت أجش، ودخل إلى الحجرة:
آه، ليتني متُّ!
سأل ووقف في المدخل:
ماذا تريد سيّدي؟
قال أبلوموف بصوت وقور وغامض:
تعالَ هنا!
وأشار إلى مكان قريب جدًا منه بحيث إن زاخار على وشك أن يجلس على ركبتي سيّده.
اعترض زاخار وبقي واقفًا معاندًا عند الباب:
أين تريد مني أن أقترب؟ لا يوجد مجال هناك، وأستطيع أن أسمعك من هنا.
قال أبلوموف بعناد:
تعال هنا حين آمرك!

خطا زاخار ووقف مثل الصنم، وهو ينظر عبر النافذة، إلى الدجاج المتجول، وأدار فوديه الشبيهين بمكنسة إلى سيّده. أحدث هياجهُ تغيّرًا في أبلوموف في ظرف ساعة. بدا وجهه ضنِكًا وعيناه تطوفان بقلق.
فكّر زاخار ونظر بشكل أشد عبوسًا:
ستتفاقم مشكلتي الآن!
سأل أبلوموف:
كيف يمكن أن تسأل سيّدك مثل هذا السؤال السخيف؟
فكّر زاخار وأطرف عينيه تطلعًا لكلمات مؤثّرة: «غريب الأطوار!» كرّر أبلوموف:
أسألك: كيف يمكن أن تضع مثل هذه الفكرة التافهة في عقلك؟
لم ينطق زاخار بكلمة.
هل تسمع يا زاخار؟ من أعطاك الحق لكي تفكّر بمثل هذه الأمور أو أن تصرّح بها علنًا؟
أجاب زاخار واتخذ خطوة نحو الباب:
أعتقد يا سيدي بأنه من الأفضل أن نستدعي أنيسيا.
أجاب أبلوموف:
أريد أن أتكلم إليك وليس إلى أنيسيا. لماذا اختلقت هذه القصة التافهة؟
قال زاخار:
لم أخترعها سيدي. لقد أخبرني بها الخدَم في بيت آل إلينسكي.
ومن أخبرهم؟
قال زاخار:
لا شك أني لا أعرف، سيدي. كاتيا أخبرت سيميون، وسيميون أخبر نيكيتا، ونيكيتا أخبر فاسيليا، وفاسيليا أخبرت أنيسيا، وأنيسيا أخبرتني.
صاح أبلوموف برعب:
يا إلهي، كلهم! كل الأمر هراء وسخافة وكذب وافتراء هل سمعتْ؟

وضرب بقبضته على المنضدة قائلًا:
لا يمكن أن يكون ذلك.
قاطعهُ زاخار بلا مبالاة:
لماذا يا سيدي؟ إنه نوع عادي من الأمور العرس! لست الأول الذي يتزوج! الكل يتزوجون!
كرّر أبلوموف:
الجميع. لا شكّ إنك تستمتع بمقارنتي مع الناس الآخرين! لا يمكن ذلك! مستحيل! العرس شيء عادي هل سمعت بذلك؟ ماذا يعني العرس؟
نظر زاخار إلى أبلوموف، لكن حين شاهد عيني سيّده الغاضبتين، حوّل نظره فورًا إلى الزاوية على اليمين.
اسمع، سأوضّح لك ماذا يعني. سوف يردّد الناس التافهون كلمات «العرس، العرس» منهم النساء، والأطفال، في قاعات الخدَم، في المتاجر، في الأسواق.
سيكف الرجل عن أن يسمّى إيليا إليتش أو بيوتر بتروفيتش ويدعى «العريس». في اليوم السابق لم ينظر إليه أحد، لكن في اليوم التالي الكل ينظر إليه، كأنه كان شريرًا أو ما أشبه. لن يتركوه وحيدًا في المسرح أو في الشارع. كلهم يهمسون: «ها هو هناك!» وكم من الناس يظهرون له خلال اليوم، وكلٌّ يحاول أن ينظر إليه بأشد ما يكون من الحماقة كما تنظر أنتَ الآن (ابتعد زاخار بسرعة ونظر إلى الفناء) وتقول شيئًا في منتهى التفاهة. تلك هي الطريقة التي يبدأ بها. ومثل روح حلَّت عليها اللعنة، عليك أن تذهب كل صباح إلى خطيبتك أولًا، مرتديًا قفازات بلون أصفر فاتح وملابس جديدة؛ يجب أن لا تظهر عليك علامات الضجر، ولن تأكل أو تشرب كما يجب بل تعيش على الهواء والولائم! وهذا يستمر لمدة ثلاثة أو أربعة أشهر! هل رأيت؟ هل تعتقد بأني أفعل كل ذلك؟
توقف أبلوموف ليرى إن كان وصفه لسلبيات الزواج له تأثير على زاخار.
سأل زاخار ودار نحو الباب:
هل لي أن أذهب يا سيّدي؟

كلا، انتظر! إنك ماهر في نشر الإشاعات الكاذبة، وربما تعرف سبب زيفها.
قال زاخار وتفحص الجدران:
وما حاجتي لأعرف؟
لقد نسيت كم يبذل العريس والعروس من جهود من أجله. إذ لا أستطيع أن اعتمد عليك الآن في الذهاب إلى الخياط والإسكافي ومتجر الأثاث؟ وهل بوسعي أن أذهب إلى كل مكان فورًا؟ سوف تعلم المدينة بأكملها عن الأمر. سيقولون: «هل سمعتْ؟ أبلوموف سيتزوج!»، «كلا! مِمّن؟»، «من هي خطيبته؟ ومتى الزفاف؟» قالها أبلوموف بنغمات صوت مختلفة. «لن يتحدثون عن شيء آخر. آه، سوف أصاب بانهيار عصبي بسبب ذلك، وحضرتك لا تتحدث عن شيء سوى العرس!
نظر إلى زاخار مرة أخرى.
سأل زاخار:
هل أنادي أنيسيا سيدي؟
وما حاجتي إلى أنيسيا؟ إنك أنت، وليس أنيسيا، الذي أعطى هذا الإيعاز البائر.
همس زاخار وندت عنه حسرة رفع إثرها كتفيه:
ماذا فعلت لأستحق مثل هذا العقاب؟
تابع أبلوموف قوله:
وهل فكّرت بمصاريفه؟ من أين لي أن أحصل على المال؟ ألم ترَ المال الذي أملكه؟
سأل متوعدًا:
والشقة؟ يجب أن أدفع ألف روبل هنا، وثلاثة آلاف روبل للشقة الجديدة، والله يعلم كم يجب أن أصرف على ترتيبها! ثم هناك العربة، والطباخ، وتكاليف المعيشة! كيف أتدبر كل ذلك؟
اعترض زاخار:
كيف يتزوج الناس الآخرون الذين يمتلكون ثلاثمائة قن؟

وسرعان ما أسف على ذلك، لأن سيّده بدأ يسيطر عليه العنف الشديد بحيث قفز من كرسيّه:
لماذا تذكر لي «الناس الآخرين» ثانيةً؟ حذارِ.
ورفع إصبعه ثم أضاف:
الناس الآخرون يعيشون في غرفتين أو على الأغلب في ثلاث غرف: غرفة الطعام هي نفسها غرفة الاستقبال، وبعض الناس ينامون هناك، أيضًا، والأطفال في الغرفة المجاورة. وهناك خادمة واحدة تؤدي كل أعمال البيت. السيّدة بنفسها تذهب إلى السوق! هل تعتقد أن أولغا سرجييفنا سوف تذهب إلى السوق؟
لاحظ زاخار:
حسنٌ، سيدي، لكني أستطيع أن أذهب إلى السوق. أليس كذلك؟
سأل أبلوموف:
هل تعلم مقدار الدخل من أبلوموفكا؟ ألم تسمع بما كتبه الوكيل؟ إن دخلنا منها هذا العام «أقل من العام الماضي بألفين تقريبًا»! وهناك الطريق الذي يجب شقُّه، والمدرسة التي يجب فتحها، والبيت الذي يجب بناؤه... فكيف يمكنني أن أفكّر بالزواج؟ وعن أي عرس تتحدث؟
توقف أبلوموف. كان نفسه مرعوبًا من هذا التوقّع الفظيع والمزعج. الورود، زهر البرتقال، الحفلات البراقة، همسات الإعجاب بين الحاضرين كلها تلاشت فجأة. أصبح شاحبًا واستغرق في الأفكار. ثم ثاب إلى رشده تدريجيًا ونظر حوله ورأى زاخار.
سأل عابسًا:
ما الأمر؟
قال زاخار:
آه، سيدي، لقد طلبت مني أن أقف هنا!
قال أبلوموف بإشارة جزعة من اليد:
انصرف!

أسرع زاخار بالسير نحو عتبة الباب.
أوقفهُ أبلوموف فجأة:
كلا، انتظر!
غمغم زاخار وتوقف عند الباب:
مرة انصرف ومرة انتظر!
سأل أبلوموف وهمس بغيظ:
كيف جرأت على نشر تلك الإشاعات السخيفة حولي؟
متى نشرتها سيدي؟ ليس أنا سيدي، لكن خدم آل إلينسكي هم الذين قالوا بأنك عقدت الخطوبة...
همس أبلوموف ولوّح بيده بصورة متوعدة:
صه! ولا كلمة، هل سمعتْ؟ أبدًا!
أجاب زاخار خائفًا:
نعم سيدي.
إذن هل ستنشر هذه القصة التافهة في الخارج؟
أجاب أبلوموف بهدوء:
كلا، سيدي.
ولم يفهم معنى نصف الكلمات بل عرف فقط تلك التي كانت «مثيرة للشفقة».
وأضاف أبلوموف هامسًا:
تذكر إذن إذا ما سمعت أحد يتكلم عن الأمر، أو سألك عنه، قل له أن الأمر بأكمله ليس سوى ترّهات وأن لا شيء من هذا النوع يمكن أن يحصل.
همس زاخار بصوت لا يكاد يسمع:
نعم سيدي.
نظر أبلوموف حوله وحرّك أصبعه لزاخار، الذي أطرف عينيه بحذر ومشى على أطراف أصابعه نحو الباب.
سأله أبلوموف ولحق به:

من أول شخص تكلم به؟

همس زاخار:

كاتيا أخبرت سيميون، وسيميون أخبرت نيكيتا، ونيكيتا أخبرت فاسيليا.

وهمس أبلوموف مهددًا:

وأنت أخبرت الجميع! كيف تنشر الافتراءات حول سيّدك؟ سترى!

سأل زاخار:

لماذا تعذبني يا سيدي بكلماتك المحزنة سيدي؟ سوف استدعي أنيسيا: إنها تعرف كل شيء.

ماذا تعرف؟ هيّا، قلْ!

اندفع زاخار فورًا عبر الباب ودخل المطبخ بسرعة استثنائية.

قال لأنيسيا وأشار بإبهامه إلى الباب:

اتركي المقلاة واذهبي إلى سيّدك!

أعطت أنيسيا المقلاة إلى أكولينا، وفتحت حاشية تنورتها، التي علقتها في خصرها، وضربت يديها على وركيها، ومسحت أنفها بسبابتها، ثم دخلت على السيّد.

تمكنت في ظرف خمس دقائق من تهدئة أبلوموف بإخباره بأنّ لا أحد تحدث شيئًا حول العرس: ولم تهتم بأن تُقسم بالأيقونة التي انتزعتها من الحائط على أنها كانت هذه المرة الأولى التي سمعت بالأمر. لقد سمعتْ شيئًا مختلفًا جدًا: إنّ البارون خطب يد الشابة...

سأل أبلوموف:

البارون!

وقفز على قدميه، ولم يتحول قلبه جامدًا فحسب بل يداه وقدماه أيضًا.

أسرعت أنيسيا بالقول، ناسية أنها خرجت من المقلاة ودخلت إلى النار:

ذلك هراء أيضًا. كان ذلك ما قالته كاتيا إلى سمينون، وسمينون إلى مارفا، ونيكيتا قال بأنه سيكون أمرًا رائعًا لو تقدم سيّدك للزواج من سيدتنا الشابة...

لاحظ أبلوموف:

يا له من أحمق نيكيتا هذا!

أكدت أنيسيا:

حقًا سيدي، إنه أحمق. يبدو نائمًا حين يجري وراء العربة. وفاسيليا لا تصدقه أيضًا.

وواصلت الكلام بسرعة:

أخبرتني في عيد رفع مريم بأن الممرضة نفسها قالت لها بأن الآنسة أولغا لم تكن تفكر بالزواج، ومن غير الممكن بأن سيدنا لن يعثر على زوجة لنفسه إذا كان ينوي الزواج، وأنها التقت بساموييولو في اليوم التالي واعتقدَ بأنها نكتة كبيرة: أيُّ عرس! إنه ليس عرسًا بل جنازة، إذ أصيبت العمّة بالصداع، وبكت الآنسة أولغا ولم تتلفظ بكلمة، ولم يكن ثمة جهاز للعروس؛ كان لدى الآنسة أولغا المئات من الجوارب التي تحتاج إلى ترتيق، وإنه في الأسبوع الأخير قاموا برهن فضّتهم...

فكّر أبلوموف: «رهنوا فضتهم؟ ليس لديهم نقود أيضًا» ورفع عينيه إلى الجدران بهلع وركزهما على أنف أنيسيا، لأنه لا يوجد شيء يوجه أنظاره عليه. بدت وكأنها تنطق بكل ذلك من خلال أنفها وليس فمها.

قال أبلوموف بحركة من أصبعه:

حذارِ من الثرثرة الفارغة!

ضجّ صوتها كأنه صوت تقطيع الخشب:

ثرثرة، سيدي؟ إني لا أفكر بالأمر فما بالك بالثرثرة حوله. إضافة يا سيدي أنه لا يوجد شيء للثرثرة حوله، أليس كذلك؟ إنها المرة الأولى التي أسمع فيها عن هذا الأمر اليوم، وتلك هي الحقيقة، فليعذبني الربّ لو أني كذبت! لم أكن مندهشة حين أخبروني عنه سيدي. كنتُ خائفة، وارتجف جسمي كله! من سمع بمثل هذا الشيء؟ ماذا يعني العرس؟ لا أحد حلمَ به. لم أقل كلمة إلى أي شخص؛ فأنا دائمًا في المطبخ. لم أرَ خدَم آل إلينسكي لمدة شهر، أنا متأكدة من أنني لم أعد أتذكر أسماءهم. ومن هناك لتتكلم معه هنا؟ لم أتكلم مع صاحبة المنزل سوى عن التدبير

المنزلي ولا يمكن الحديث مع الجدة مطلقًا: فهي تسعل وإضافة إلى أنها لا تسمع أيضًا! أكولينا حمقاء والحارس سكّير. بقي الأطفال فقط، وهل تتوقع مني أن أتكلم معهم، سيدي؟ إضافة إلى أنني نسيت كيف تبدو الآنسة أولغا، أنا...

قال أبلوموف:

حسنًا، حسنًا.

وأشار إليها بفارغ الصبر بمغادرة الغرفة.

ختمت أنيسيا بينما هي ذاهبة إلى الغرفة:

هل تتوقع مني أن أتكلم عن شيء غير موجود، سيدي؟ ولو أنّ نيكيتا قال شيئًا من هذا القبيل فإنه من الحماقة الشديدة بحيث لا يمكن أن يعوّل عليه. أنا متأكدة بأنه لم يخطر في بالي فأنا أكدح طوال اليوم ولديّ أمور أخرى يجب التفكير بها.

آه، لا أفكر بمثل هذا الأمر! أحلفُ بهذه الإيقونة المقدسة على الحائط...

بعد مثل هذه الكلمات اختفى الأنف المتكلم وراء الباب، لكنه واصل الكلام دقيقة أخرى خلفه.

همس أبلوموف، وشبك يديه:

إذن هكذا! أنيسيا تقول أيضًا بأنه من الصعوبة بمكان أن يحصل هذا الأمر. أيتها السعادة، أيتها السعادة! كم أنتِ هشّة، ومُريبة! الخمار، إكليل زهر البرتقال، الحبّ، الحبّ! أين المال؟ وما الذي نعيش منه؟ وأنت أيضًا، عليك أن تشتري الحب والسعادة الشرعية الخالصة!

منذ تلك اللحظة اختفى هدوء بال أبلوموف وأحلامه. كان ينام نومًا قلقًا، ويأكل قليلًا، وينظر إلى كل شيء كئيبًا شارد الذهن. لقد أراد أن يخيف زاخار، لكنه أخاف نفسه أكثر حين فهم الجانب العملي من الزواج ورأى أنه لم يكن رومانسيًا فحسب بل أيضًا خطوة عملية ورسمية للواقع المهم والخطير، وسلسلة كاملة من الواجبات الصارمة. تحوَّل حديثه مع زاخار بشكل مختلف عما تصوَّره. تذكّر كيف أنه قصد بصورة هادئة أن يزف الأخبار إلى زاخار، وكيف أنّ زاخار

سوف يطلق صيحة الفرح ويقع على قدمه، وكيف سوف يعطيه خمسة وعشرين روبلًا ويمنح أنيسيا عشرة روبلات...

تذكّر كل شيء السعادة المثيرة، يد أولغا، قبلتها المحمومة وغاص قلبه.

قال صوت داخله: «لقد تلاشى، وذوى!» «ما العمل الآن؟»

* * *

(5)

لم يعرف أبلوموف كيف سيواجه أولغا، وما الذي ستقوله له ويقوله إليها، وقرّر ألّا يذهب ليراها في يوم الأربعاء، ويؤجل اللقاء بها حتى يوم الأحد، حيث يكون هناك العديد من الزائرين ولن تكون ثمة فرصة للتحدث معها على انفراد. لم يرغب أن يخبرها حول القصص الحمقاء للخدم لكي لا يقلقها بأمر لا يمكن معالجته، ولا أن يخبرها بأنه سيكون صعبًا أيضًا، لأنه لا يمكن أن يتظاهر أمامها: كانت متأكدة من أنها ستنتزع منهُ كل شيء أخفاه في أعماق قلبه. وما إن وصل إلى هذا القرار حتى شعر بالهدوء قليلًا وكتب رسالة أخرى إلى جاره الذي يضع ثقته به في العناية بشؤونه، والتي طلب منه أن يرد حالًا ما أمكن، مضيفًا بأنه كان يأمل أن يكون جوابه مقنعا. ثم بدأ يفكّر كيف يمكن أن يقضي ذلك اليوم الطويل صعب الاحتمال، دون أن يمتلئ بحضور أولغا، والصلة الحميمة اللامرئية لروحيهما وغنائها. وكان زاخار يقلقهُ في مثل هذه الفرصة غير السانحة! فقرّر أن يتغدى لدى غيراسيموفيتش لكي يخفف من همّ ذلك اليوم الذي لا يطاق. وفي يوم الأحد سيكون قادرًا على تحضير نفسه وربما حينئذ سوف يتسلّم ردًا على الرسالة من الريف.

أقبل اليوم التالي. استيقظ على نباح الكلب المسعور ومحاولته اليائسة في التخلص من سلسلته. دخل شخص الفناء وكان يسأل عن شخص آخر. نادى الحارس على زاخار: أعطى زاخار لأبلوموف رسالة أرسلت من المدينة.

قال زاخار:

رسالة من السيدة الشابة إلينسكي.

سأل أبلوموف غاضبًا:

كيف عرفت؟ هراء!

قال زاخار مصرًّا:

أنت دائمًا اعتدت على تستلم مثل هذه الرسائل منها في الصيف.

فكّر أبلوموف وفتح الرسالة: «هل هي على ما يرام؟ ماذا يعني ذلك؟» كتبت أولغا:

لا أريد أن أنتظر إلى يوم الأربعاء. أشتاق إليكَ بعد وقت طويل إذ سأراكَ غدًا بالتحديد الساعة الثالثة في الحدائق الصيفية.

كان ذلك كل ما في الرسالة.

أصبح مشوشًا جدًا مرة أخرى؛ وأصابه القلق من فكرة كيفية التحدث مع أولغا وكيف سينظر إليها.

قال:

لا أستطيع أن أذهب للموعد. لا أعرف كيف. أرغب أن أسأل شتولتس...

لكنه شعر بالهدوء حين فكّر بأن أولغا قد تأتي مع عمتها بصحبة ماريا سيميونوفنا، التي كانت مولعة بها ويمكن أن لا تعجبه بشكل كاف. كان لديه أمل بأنّه في حضورها سيكون قادرًا على إخفاء ارتباكه، وحضّر نفسه لكي يكون ثرثارًا ومتوددًا للنساء. فكّر بينما بدأ بالذهاب إلى الحدائق الصيفية بشكل غير متلهّف: «وفي موعد الغداء أيضًا. أي ساعة أختار!». حالما دخل الشارع الطويل، رأى امرأة تضع خمارًا نهضت من مقعدها ومشت باتجاهه. لم يفكّر بأنها كانت أولغا: وحدها!

مستحيل! إنها لن تفعل أمرًا كهذا، إضافة إلى أنها لا تمتلك عذرًا لمغادرة البيت دون مرافق. مع ذلك يبدو أنها طريقتها في المشي: تحركت قدمها بخفة وسرعة بحيث إنها لم تبدُ ماشية بل متزلجة؛ كان رأسها ورقبتها أيضًا مائلين للأمام كأنها بحثت عن شيء على الأرض عند قدميها. سيميّزها رجل آخر عن طريق قبعتها أو ثوبها، لكنه لم يستطع أبدًا أن يخبر أولغا أيّ ثوب أو قبعة كانت يجب أن ترتدي حتى بعد قضاء الصباح بأكمله معها. لم يكن هناك سوى القليل من الناس في الحديقة؛ كان رجل نبيل كهل يمشي بنشاط، ومن الواضح أنه يقوم بنزهته، واثنتين من النساء، من غير السيدات، مع مربية تصحب طفلين ازرقّا من البرد.

سقطت الأوراق ويمكن للمرء أن يراها مباشرة عبر الأغصان العارية؛ نعبت الغربان على الأشجار على نحو بغيض. كان يومًا مشرقًا وصافيًا ودافئًا، إذا ما لفّ المرء نفسه بشكل مناسب. كانت المرأة ذات الخمار تقترب أكثر فأكثر...
قال أبلوموف وتوقَّف متوجسًا وغير قادر على تصديق عينيه:
إنها هي.
سأل وأخذ يدها:
هل أنتِ هنا؟ ما الأمر؟
قالت دون أن تجيب عن سؤاله:
أنا سعيدة جدًا أنكَ أتيتَ. ظننتَ أنك لا تأتي، وبدأتُ أشعرُ بالخوف.
سأل مضطربًا:
كيف جئتِ إلى هنا؟ كيف نجحتِ في الوصول؟
من فضلكَ لا تسألْ! ماذا يعني هذا؟ لماذا كل هذه الأسئلة؟ إنه أمرٌ في غاية الغباء! أريدُ أن أراك وأتيتْ ذلك كل ما في الأمر!
ضغطت يده بدفء ونظرت له بمرح وبهدوء البال، وبشكل صريح وواضح تمتعت باللحظة التي انسلّت من القدر بحيث إنه حسدها لأنه لم يشاركها مزاجها الرائق. مهما كان منزعجًا، لم يتمالك من نسيان نفسه للحظة حين رأى وجهها الذي لم تظهر فيه مسحة من التفكير المركّز الذي يمكن أن يوجد في حركة حاجبيها وفي تجاعيد جبينها؛ ظهرت هذه المرة دون نضوج مدهش يزعجه دائمًا في ملامحها. في تلك اللحظة عبّر وجهها عن ثقة طفولية فيه وفي سعادتهما المستقبلية...
كانت ساحرة جدًا.
واصلت التكرار والابتسام والنظر له:
أوه، أنا في غاية السرور! أنا مسرورة جدًا! لم أتوقع أن أراك اليوم. شعرت بالاكتئاب الشديد أمس لا أعلم السبب، وكتبت إليك. هل أنت مسرور؟
نظرت إلى وجهه.

لماذا أنت عابس اليوم؟ ألا تريد إخباري؟ ألستَ سعيدًا؟ ظننتُ ستجنُّ من الفرحة، تبدو الآن نائمًا. استيقظ سيدي، أولغا معك!

دفعته برفق معاتبة إياه قليلًا.

أصرّت قائلة:

ألست على ما يرام؟ ما الذي حصل لك؟

أسرع في القول ليتأكد تمامًا بأنها لن تساق إلى انتزاع الأسرار العميقة لقلبه منه:

كلا، أنا على ما يرام ومسرور. أنا قلق فقط على مجيئك وحيدة...

قالت بفارغ الصبر:

تلك مشكلتي. وهل تفضل أن آتي مع عمتي؟

نعم، أود ذلك، أولغا.

قاطعته أولغا بصوت جريح وأفلتت يده:

لو كنت أعلم برغبتك لطلبت منها مرافقتي. كنت أعتقد بأنك ستسعد كثيرًا بوجودي على انفراد معك.

أجاب أبلوموف:

لا يمكن أن يكون ذلك! كيف تمكنتِ أن تأتي بمفردك...

قالت أولغا هادئة البال:

دعنا لا نضيع الوقت في مناقشة ذلك. فلنتكلم عن أمر آخر. اسمعْ. أوه، سأخبرك بشيء... أخشى أني نسيته...

قال ونظر حوله بقلق:

كيف جئتِ إلى هنا بمفردك؟

ألا تتعب من تكرار الأمر نفسه مرارًا؟ ماذا كنت أريد أن أقول؟ أوه، لا تهتم. أنا متأكدة بأني سوف أتذكره لاحقًا. أوه، يا له من مكان محبوب هنا! الأوراق كلها سقطت، أوراق الخريف(6) أتذكر فيكتور هوغو؟ انظر إلى شروق الشمس هناك هناك نهر النيفا... هيا، نذهب إلى نهر النيفا ونركب قاربًا...

يا إلهي، عمّ تتحدثين؟ إنّ الجوّ بارد، وأنا لا أرتدي سوى معطف قطني.

أنا ألبس ثوبًا قطنيًا أيضًا. ماذا يهمّ؟ هيّا نذهب.
ركضت وسحبته وراءها. قاوم ودمدم. مع ذلك كان عليه أن يركب القارب ويجذّف في نزهة نهرية.
عاد أبلوموف يسأل بقلق:
كيف جئت هنا بمفردك؟
ضايقته بخبث حين وصلا إلى منتصف النهر قائلة:
هل أخبرك؟ أستطيع الآن: لن تقدر على الهرب من هنا، كما فعلت هناك...
سأل خائفًا:
ماذا ستقولين؟
وبدلًا من أن تجيبه سألته:
هل أنت آتٍ غدًا؟
فكّر أبلوموف: «يا إلهي، تبدو كأنها تقرأ أفكاري بعدم عزمي على المجيء».
قال بصوت عال:
نعم.
في الصباح، النهار كله.
تردّد.
قالت:
لن أخبرك إذن.
أجل، سوف آتي لأبقى النهار كله.
بدأت تقول بجدية:
طيب. أنت ترى بأني طلبت منك المجيء هنا اليوم لأخبرك...
سأل بذعر:
ماذا؟
أن تأتي لزيارتنا غدًا.
قاطعها بفارغ الصبر:

أوه، باللهَّ عليك، كيف جئتِ هنا؟
كرّرت القول شاردة الذهن:
هنا؟ كيف جئتُ هنا؟ آه، لقد جئت فحسب. مهلًا، لكن لماذا تتحدث عن هذا الأمر دائمًا؟
وضعت يدها في الماء وغرفت كمية من الماء ورمتها على وجهه. لولب عينيه وجفل، بينما أخذت تضحك.
واصلت ونظرت حولها:
كم الماء بارد لقد تجمدت يدي! يا إلهي، ما أجمله من مكان! أنا سعيدة جدًا. دعنا نأتي ثانية غدًا، لكن مباشرة من البيت.
سأل بسرعة:
ألم تأتي مباشرة من البيت؟ من أين جئتِ إذن؟
قالت:
من المتجر.
أي متجر؟
أي متجر؟ لقد أخبرتك في الحديقة...
صاح بفارغ الصبر:
لم تخبريني.
لم أخبركَ؟ غريب! لقد نسيت! تركت البيت وذهبت مع الخادم إلى دكان الصائغ...
طيب؟
حسنٌ، ذلك كل ما في الأمر.
سألت فجأة صاحب القارب مؤشرة عن كنيسة في المدى البعيد:
أيّ كنيسة هذه؟
سأل صاحب القارب:
أي واحدة منها؟ تلك التي هناك؟

قال أبلوموف بفارغ الصبر:
السمولني. إذن ذهبتِ إلى الدكان وماذا فعلت هناك؟
كانت ثمة أشياء محببّة هناك رأيتُ سوارًا جميلًا جدًا.
قاطعها أبلوموف:
أنا لا علاقة لي بالأساور. ماذا حدث فيما بعد؟
أضافت شاردة الذهن واستغرقت في النظر فيما حولها:
هذا كل ما في الأمر.
ضايقها أبلوموف بالسؤال:
وأين الخادم؟
ردّت بشكل قاسٍ وتفحصَّت بناية تقع على الضفة المقابلة:
عاد إلى البيت.
وأنتِ؟
سألت وأشارت بمظلتها إلى الضفة المقابلة:
ما أروع المكان هناك! ألا نذهب إليه؟ أنت تعيش هناك، أليس كذلك؟
نعم.
أرِني في أي شارع؟
سأل أبلوموف:
لكن ماذا بشأن الخادم؟
ردّت بنغمة عابرة في صوتها:
أرسلتُه من أجل سواري. رجع للبيت وأتيت إلى هنا.
قال أبلوموف ونظر إليها، وبدا مذعورًا وتوجّس وجهها أيضًا.
لكن كيف تفعلين ذلك؟ تكلَّمي بجدّية يا أولغا وكفّي عن المزاح؟
قالت بهدوء:

«أنا لا أمزح. ذلك ما حدث بالضبط. لقد تعمَّدت ترك سواري في البيت، وطلبَتْ مني عمتي الذهاب إلى دكان الصائغ. لن تصدّق أمرًا مثل ذلك!» أضافت بفخر، كأنها حقًا قد فعلت شيئًا استثنائيًا.

سأل:

ولو عادَ الخادم؟

طلبت منهم أن يخبروه لينتظرني لأني يجب أن أذهب إلى دكان آخر وأتيت هنا...

ولو سألتكِ عمّتكِ إلى أي دكان ذهبتِ؟

سأقول بأني ذهبت إلى الخيّاطة.

وماذا لو سألتْ الخيّاطة؟

قالت ورمت الماء في وجهه ثانيةً:

وماذا لو جرى نهر النيفا في البحر، وماذا لو انقلب قاربنا، وماذا لو انهار شارع مورسكايا وبيتنا، وماذا لو وقعتَ فجأة في غرامي...

قال ومسح وجهه:

لكن الخادم سوف يرجع الآن وينتظر. يا صاحب القارب عُدْ إلى الضفة!

قالت لصاحب القارب:

كلا، كلا.

أصرّ أبلوموف:

هيّا إلى الضفة فالخادم قد عاد.

دعهُ! لا ترجعْ!

لكن أبلوموف أصرّ على رأيه ومشى بسرعة عبر الحدائق الصيفية معها، بينما هي، من جهتها، مشت ببطء واستندت على ذراعه.

قالت:

لماذا تسرع هكذا؟ مهلًا، أريد أن أبقى معك مدة أطول.

مشت ببطء أكثر، وتشبثت بكتفه وتمعنت في وجهه، وتكلم بصوت مبحوح وممل حول الواجب والالتزامات. أصغت شاردة الذهن، بابتسامة فاترة، وخفضت رأسها ونظرت للأسفل وحدّقت في وجهه ثانيةً وفكّرت بشيء آخر.

قال بوقار أخيرًا:

انظري أولغا، رغم الخطر من شعورك بالغيظ مني وتوجيه اللوم لي، يجب أن أخبرك مؤكدًا بأننا ذهبنا بعيدًا جدًا. إنه واجبي أعتقد أنه من الإلزامي أن أخبرك هكذا.

سألت بفارغ الصبر:

أخبرني؟

إننا نرتكب خطأً باللقاء بشكل سرّي.

قالت بشكل جدّي:

قلت ذلك حين كنا في الريف.

نعم، لكن في ذلك الوقت كان الحب قد استخفّني: فكنتُ أدفعك بيد واحدة وأمسكك بالأخرى. كنتِ مفعمة بالثقة وأنا ظهرت وكأني أخدع نفسي. كان شعوري نحوك ما زال جديدًا حينئذ...

والآن لم يعد جديدًا وبدأت تضجر منه.

أوه، كلا، أولغا! إنكِ ظالمة. قلتُ كان جديدًا، وذلك هو السبب أني ليس لديّ الوقت لأثوب إلى رشدي. ضميري يعذبني: أنتِ شابة، لا تعرفين العالم والناس، إضافة إلى أنك بريئة جدًا، وحبّك مقدّس جدًا، إذ لم يخطر ببالك كم من اللوم الشديد نتعرض إليه بسبب فعلنا هذا وبالأخص أنا.

قالت متوقفة:

لكن ماذا نفعل؟

ماذا تعنين؟ إنكِ تخدعين عمتكِ، وتتركين البيت سرًّا وتلتقين رجلًا على انفراد... حاولي أن تعترفي بكل ذلك في يوم الأحد أمام زوّاركِ.

قالت بهدوء:

لماذا يجب عليّ أن أعترف؟ أجرؤ على القول إني سأفعل.
واصل الكلام:
وسوف ترين بأن عمتك سيغمى عليها، والسيدات سيندفعن خارج الغرفة، والرجال ينظرون إليك بوقاحة وخبث.
بدأت تساورها الأفكار.
اعترضت:
لكننا مخطوبان، أليس كذلك؟
قال وشدّ على يديها:
أجل، أجل عزيزتي أولغا، وذلك هو السبب في أننا يجب أن نكون حذرين. أريد أن أقودك في هذا الشارع نفسه بفخر وأمام أنظار العالم، وليس خلسةً؛ أريد من الناس أن يخفضوا أعينهم أمامك باحترام، ولا ينظروا لك بوقاحة وخبث؛ لا أريد لأحد أن يساوره الشكوك حولك، أنت أيتها الفتاة المتفاخرة، بأنك فقدت صوابك، ونسيت كل الحياء والتهذيب الطيب، وجرفتك العاطفة وأهملتِ واجبك...
ردّت بفخر وأبعدت يدها منه:
لم أنسَ الحياء والتهذيب الطيب والواجب.
أعرف، أعرف، يا ملاكي البريء؛ ليس أنا الذي يقول ذلك بل الناس والمجتمع ولن يغفروا لكِ. افهمي ما أريد، باللهَّ عليك. أريدك أن تكوني طاهرة لا عيب فيك أمام أنظار الناس كما أنتِ في الواقع.
مشت مستغرقة في الأفكار.
أرجوكِ افهمي ما أقول لك: ستكونين تعيسة، وسأكون وحدي مسؤولًا عن ذلك. سيقول الناس بأنّي أغريتك، وأني أخفيت الهاوية عنك متعمدًا. إنك طاهرة وأمينة معي، لكن كيف تجعلين الناس يصدّقون؟ من يصدّقك؟
قالت مرتعدة:
ذلك صحيح.

وأضافت بعزم:
أصغِ. دعنا نخبر عمتي بكل شيء ودعها تباركنا غدًا.
شحبَ أبلوموف.
سألت:
ما المشكلة؟
أسرع في القول:
مهلًا يا أولغا! لماذا تسرعين هكذا؟
كانت شفتاه ترتجفان.
سألت وتمعنت فيه ببرود:
لكن ألم تستعجلني أنت قبل أسبوعين؟
قال متحسرًا:
لم أفكر بالتحضيرات في ذلك الوقت، وهناك العديد منها. دعينا ننتظر الرسالة من الريف.
سألت ونظرت إليه بإمعان أكثر:
لماذا ننتظر الرسالة؟ وهل هذا أو ذاك الجواب يجعلك تغيّر رأيك؟
يا لها من فكرة! بالطبع لا! لكن يجب أن آخذه في نظر الاعتبار، لأننا يجب أن نخبر عمتك حين يحل موعد زفافنا. لن نتحدث لها عن الحب، بل عن كل أنواع الشؤون العملية التي لم أتحضر لها حتى الآن.
سوف نتكلم عن ذلك حين تتسلم الرسالة، لكن في الوقت نفسه سوف يعرف الكل بأننا مخطوبان وسنكون قادرين على رؤية أحدنا الآخر يوميًا. أنا ضجرة جدًا.
وأضافت:
تبدو الأيام جارية باستمرار للأبد؛ الكل لاحظ أمرنا، ظلوا يضايقونني ويلمّحون إليك بصورة ماكرة... أوه، لقد تعبت من كل ذلك!
نطق أبلوموف الكلمات بصعوبة:

يلمّحون إليّ؟
نعم، بفضل سونيا.
أرأيتِ؟ أرأيتِ؟ لم تستمعي لي حينئذ وكنتِ غاضبة مني.
ماذا هناك لأراه؟ لم أر أي شيء عدا أنك جبان. أنا لا أخاف من تلميحاتهم.
قال خائفًا وأصابها بعدوى الخوف:
أنا غير جبان. أنا حذر فحسب... حسنٌ، باللهَّ عليك، فلنخرجْ من هنا يا أولغا. انظري، هناك عربة مع أناس نعرفهم. يا إلهي، أكاد أغرق في العَرَق... فلنذهب، فلنذهب.
قالت بهمس وهي تسرع في الكلام:
أجل، فلنذهب بسرعة!
وركضا على طول الشارع إلى نهاية الحدائق دون أن ينطقا بكلمة. ظل أبلوموف يلقي نظرات هلعة حوله، وخفضت رأسها بشدّة وغطت نفسها بخمارها.
قالت حين وصلا إلى الدكان إذ كان الخادم ينتظرها:
إذن نلتقي غدًا!
أجاب:
كلا، أفضّل أن آتي في اليوم الذي يليه أو في يوم الجمعة أو السبت.
لماذا؟
لأنكِ ترين يا أولغا أنا دائمًا أتساءل إن كانت الرسالة ستصل.
طيب، ربما طبعًا. لكن تعال غدًا للغداء، سامع؟
أضافت بسرعة، ودخلت الدكان.
أجل، أجل، حسنٌ.
«يا إلهي، كم وصلت الأمور إلى حدّ بعيد! يا له من ثقل كبير وقع عليّ فجأةً! ما الذي سأفعلهُ الآن؟ سونيا! زاخار! أيّها الغندوران!»

* * *

(6)

لم يلاحظ أبلوموف بأنّ زاخار قدّم له غداءً باردًا، ولم يلاحظ كيف وجد بعد الغداء نفسه في الفراش ونام بسرعة. في اليوم التالي كان منزعجًا من فكرة الذهاب لرؤية أولغا. ذلك مستحيل! تصوّر بحيوية كيف أنهم سوف ينظرون إليه نظرة ذات مغزى. سيلتقي به حاجب الردهة بطريقة ودّية مميزة كعادته، ويندفع سيميون بلا تردد ليجلب كأسا من الماء متى ما طلب منه، وتودعه كاتيا والمربية وهو يخرج بابتسامة ودية. سيقرأ في كل وجوههم ما هو مكتوب «خطيبها، خطيبها!»، مع أنه لم يطلب لحد الآن موافقة عمتها، فهو لم يملك درهمًا واحدًا، ولم يعرف متى يملكه، وكم سيكون دخلهُ هذه السنة من العزبة؛ لم يكن له هناك بيت في الريف يا له من عريس! قرر أن يرى أولغا فقط في أيام الأحد بحضور الشهود، إلى أن يتسلّم أخبارًا سارّة من الريف. وفي الصباح التالي لم يفكّر بالتحضير للذهاب إلى بيت أولغا. لم يحلق وجهه أو يرتدي ملابسه، لكنه كان يقلب بكسل بعض صفحات المجلات الفرنسية التي جلبها من بيت إلينسكي قبل أسبوع؛ لم ينظر باستمرار إلى الساعة، ولم يعبس لأن عقربها لم يتحرك للأمام سريعًا بصورة كافية. فكّر زاخار وأنيسيا بأنه سوف يتناول الغداء في الخارج كالعادة ولم تسألانه ماذا يرغب من طعام في الغداء. وبَّخهما بشدة وأعلن بأنه لن يتغدّى في بيت آل إلينسكي كل أربعاء، واعتبر ذلك «افتراءً»، وأنه أحيانًا كان يتناول الغداء في بيت غيراسيموفيتش، وفي المستقبل سوف يتناول غداءه في بيته عدا أيام الآحاد. انطلقت أنيسيا حالًا إلى السوق لتشتري كبد الدجاج لحساء أبلوموف المفضّل. دخل طفلا سيدة المنزل لكي يلتقيا به: صحّح المسائل الحسابية لفانيا وعثر على خطأين. خطّ بالمسطرة على دفتر ماشا وكتب بحرف كبير، ثم أصغى إلى تغريد طيور الكناري ونظر عبر الباب نصف المفتوح إلى مرفقي السيدة المتحركين بسرعة. حالًا بعد الساعة الواحدة سألته سيدة المنزل من وراء الباب إن كان يود شيئًا ليأكله: كانت تصنع الكيك بالجبن. وضعت أمامه كيكة الجبن وكأس من فودكا العنب. خمد غيظ أبلوموف تقريبًا، ووقع في حالة من السبات

بقيت حتى الغداء. وبعد الغداء، حين استلقى على الأريكة بدأ يتمايل، وقد غلبه النعاس، كان الباب الذي يفضي إلى غرفة سيدة المنزل مفتوحا وظهرت أغافيا ماتفييفنا، بهرمين من الجوارب في كل يد. وضعتهما على كرسيين، وقفز أبلوموف وقدّم لها كرسيًا ثالثًا، لكنها لم تجلس؛ لم تكن تلك عادتها: كانت دائمًا تقف على قدميها، ودائمًا مشغولة ومستعجلة.

قالت:

لقد رتبتُ كل الجوارب اليوم. خمسة وخمسون زوجًا، وكلها تقريبًا تحتاج إلى ترتيق.

قال أبلوموف:

كم أنتِ طيبة!

ومشى إليها وأمسك بمرفقيها بشكل مازح.

ابتسمت. قال:

لماذا تزعجين نفسك؟ هذا الأمر يجعلني حقًا أشعر بالخجل.

أجابت:

العفو. إنه واجبي أن أعتني بهذه الأمور. ليس لديك أحد ليرتبها لك، وأحب أن أقدم لك هذه الخدمة. عشرون زوجًا ليست كثيرة مطلقًا: لن يطول ترتيقها فترة طويلة.

رجاءً. ارميها كلها. لماذا تضيعين وقتك بهذه التفاهات؟ أستطيع أن أشتري جوارب جديدة...

لماذا أرميها؟ يمكن ترتيقها.

وبدأت تحصي سريعًا الجوارب التي يمكن ترتيقها.

قدم لها كرسيًا مرة أخرى:

لكن اجلسي من فضلك. لماذا تظلين واقفة؟

قالت ورفضت الجلوس على الكرسي ثانيةً:

كلا، شكرًا جزيلًا. ليس لديّ وقت. إنه يوم الغسيل، ويجب أن أجهّز الملابس.

قال وركّز نظرته على رقبتها وصدرها:
أنتِ أعجوبة حقيقية، وليست ربة بيت!
ابتسمت.
سألت:
إذن ماذا سأفعل؟ هل أرتق الجوارب أم لا؟ سوف أطلب صوفًا، إذ تجلبهُ العجائز لنا من الريف. شراؤه هنا لا فائدة منه فمادته رديئة.
قال أبلوموف:
أجل، افعلي بأي طريقة ممكنة، بما أنك في غاية الطيبة. أنا خجلان حقًا من إزعاجك كثيرًا.
أوه، لا تهتمْ. وهل لديّ شيء آخر؟ سوف أجدّد قدم الجوارب هذه، وتلك سوف أعطيها إلى جدتي. أخت زوجي سوف تأتي لتمكث عندنا غدًا، ليس لدينا شيء نعمله في المساء، وسوف نرتقها. ابنتي ماشا تعلّمت الحياكة، لكن غرزها غير صحيح، فالصنارة كبيرة جدًا بالنسبة ليديها الصغيرتين.
سأل أبلوموف: هل تعلَّمت ماشا الحياكة حقًا؟
أجل حقًا.
قال أبلوموف:
لا أعرف كيف أشكرك.
ونظر إليها بالمتعة نفسها التي نظر بها إلى كيك الجبن الساخن الذي صنعته ذلك الصباح.
أنا في غاية الامتنان لكِ وسوف أبقى مدينًا لك، وبالأخص إلى ماشا. سوف أشتري لها ثيابًا حريرية وأكسوها بها مثل دمية صغيرة.
لا تفكر بذلك، لا شكر على واجب. وما حاجتها إلى فساتين الحرير؟ لم يبق لها ما يكفي من ثياب القطن فقد مزقتها بسرعة، فهي تخرب أغراضها وبالأخص أحذيتها: لا نستطيع أن نشتريها بسرعة من السوق.
أخذت الجوارب وكانت على وشك أن تغادر الغرفة.

قال:

لماذا أنتِ في عجلة من أمرك. اجلسي. فأنا لست مشغولًا.

في وقت آخر، في العطلة؛ وأرجوك تعال واشرب القهوة معنا. أنا آسفة، لكن لديّ غسيل ويجب أن أذهب وأرى إن كانت أكولينا بدأت.

قال أبلوموف ونظر إلى مرفقيها وظهرها:

طيب، لا أريد أن أؤخرك.

واصلت:

كذلك أخرجتُ مبذلك من صندوق الملابس. يمكن غسله وترتيقه: ما ألطف قماشه! فهو يصلح للعديد من السنين!

لا حاجة لي به. لم أعد ألبسه، لن يفيدني.

حسن. لا تهتم. دعهم يغسلونه: ربما ترتديه يوم ما حين تتزوج!

ختمت قولها وابتسمت وأغلقت الباب وراءها.

غادرهُ النعاس فجأة. تلع أذنيه وفتح عينيه باتساع.

قال وجلس على الكرسي الذي قدمهُ لسيدة المنزل:

إنها تعرف أيضًا الجميع يعرفون! أوه، زاخار، زاخار!

انطلق طوفان الكلمات «المثيرة للشفقة» على زاخار من جديد، وتحرّك أنف أنيسيا ثانيةً بينما كانت تؤكد له بأنها المرة الأولى التي سمعت بها سيدة المنزل تتكلم عن العرس، وأنها لم تنطق بكلمة قط حوله عند حديثها مع السيدة، ولم تكن تسأل عن أي عرس، وفي الواقع، كان الأمر بأكمله مستحيلًا. وارتأت بأن الأمر كله قد اخترعهُ عدوٌّ للإنسانية، وبالنسبة لها، كانت مستعدة لدفن نفسها في الأرض بسببه، وكانت السيدة جاهزة أيضا لانتزاع الأيقونة المقدسة من الحائط والقسَم عليها بأنها لم تسمع بفتاة آل إلينسكي الشابة وكانت تفكّر بفتاة أخرى... واصلت أنيسيا كلامها مرارًا بحيث أشار إليها بالصمت والخروج من الغرفة. في اليوم التالي طلب زاخار أن يسمح له في الذهاب ورؤية بعض الأصدقاء في شارع

غوروخوفايا، لكن أبلوموف رفض طلبه بشدة بحيث أسعده خروجه من الغرفة.
وأضاف أبلوموف بشكل صارم:
لا يعرف الناس شيئًا عنه، لا بدّ أنك ذاهب لنشر القصة الزائفة هناك. امكث في البيت!
مرّ يوم الأربعاء. تسلّم أبلوموف يوم الخميس رسالة أخرى من أولغا، تسأل فيها عمّا حصل وعن سبب عن عدم مجيئه. كتبت بأنها بكت المساء كله وبالكاد استطاعت أن تنام الليل كله.
هتف أبلوموف:
إنها تبكي، إنها لا تستطيع أن تنام ملاكي! يا إلهي لماذا هي تكنّ الحبُّ لي؟ لماذا أنا أحبّها؟ لماذا التقينا؟ إنه كله خطأ أندريه: ورَّطني في الحبّ. وأيّ نوع من الحياة؟ قلق وهمّ دائمًا! متى سأحصل على الراحة والسعادة والهدوء؟
تنهّد بقوة واستلقى، لكنه نهض وخرج إلى الشارع عازمًا على محاولة اكتشاف الطريقة الصحيحة لعيش الحياة الممتلئة التي تستمر بهدوء يومًا بعد آخر، وقطرة بعد أخرى، في تأمّل صامت للطبيعة، وبالكاد يمكن للأحداث الجارية أن تشغل الحياة العائلية. لم يرغب في التفكير بها مثل نهر واسع يندفع بصخب بالأمواج الفائرة كما فكّر بها شتولتس.
قال أبلوموف:
إنها مرض وحمى، واندفاع بسرعة مع سدود منهارة وطوفان.
كتب إلى أولغا بأنه أصابه برد خفيف في الحدائق الصيفية، وكان عليه أن يشرب ماء الأعشاب المغلي ويبقى داخل البيت عدّة أيّام، وأنه الآن قد شفي ويأمل في رؤيتها يوم الأحد. ردّت عليه بإطراء لكونه اعتنى بنفسه، ونصحتهُ أن يبقى يوم الأحد أيضًا إذا تطلب الأمر، مضيفة بأنها لم تهتم بالضجر لمدة أسبوع على شرط أن يعتني بنفسه. جلب نيكيتا الرسالة، وهو نيكيتا نفسه المسؤول الأول عن نشر إشاعة العرس حسب ما قالتهُ أنيسيا. جلب بعض الكتب من أولغا، التي أرادت

من أبلوموف أن يقرأها ويخبرها حين يلتقيان إن كانت تستحق القراءة. سألت عن حاله، وبعد كتابة الجواب أعطاه أبلوموف إلى نيكيتا ورآه وهو يغادر، تبعهُ بعينيه إلى البوابة ليتأكد من أنه لن ينحرف إلى المطبخ ويعيد القصة «الكاذبة» هناك أو أن يراه زاخار ويصحبه وهو يخرج إلى الشارع. كان سعيدًا باقتراح أولغا بأنه يجب أن يعتني بنفسه ولا يأتي يوم الأحد، وكتب ليقول بأنه من أجل تماثله للشفاء تمامًا فمن الضروري له أن يبقى داخل البيت أيامًا قليلة أخرى. في يوم الأحد قام بزيارة إلى سيدة المنزل، وارتشف القهوة وأكل فطيرة ساخنة وأرسل زاخار عبر النهر من أجل جلب المثلجات والحلويات للأطفال عند الغداء.

رجع زاخار عبر النهر بصعوبة: لقد أزيلت الجسور وكان النهر على وشك التجمّد. لم يستطع أبلوموف أن يذهب إلى بيت أولغا في يوم الأربعاء أيضًا. بالطبع يمكنهُ أن يندفع فورًا عبر النهر، ويبقى بضعة أيام في بيت إيفان فيراسيموفيتش ويزور أولغا يوميًا وحتى يتناول الغداء عندها. لديه عذر شرعي: جذبه نهر النيفا بينما كان على الجانب الآخر ولم يستطع أن يعبره. كان دافع أبلوموف أن يفعل هذا، وكان قد أنزل رجليه من فراشه، لكن بعد فترة من التأمل عاد فاستلقى من جديد، وأطلق حسرة وبان الهمّ في ملامحه. «كلا، فلتخمد الإشاعة ولينسني الناس قليلًا ويلقوني هناك مرة أخرى يوميًا بعد الإعلان الرسمي لخطوبتنا. الانتظار يبعث على الضجر» أضاف متنهدًا، ثم تناول كتب أولغا. «لكن ليس باليد حيلة». قرأ حوالي خمس وعشرين صفحة. جاءت ماشا لتسأل إن كان يود أن يأتي ويراقب النهر وهو يتجمد: الكل ذاهبون. ذهب وعاد من أجل أن يرتشف الشاي. هكذا مرّت الأيام. كان أبلوموف ضجرًا؛ قرأ وذهب للنزهة وحين كان في البيت نظر عبر باب سيدة المنزل لكي يتبادل بضع كلمات معها ليقضي الوقت. حتى أنه طحن لها ثلاثة باونات من القهوة في أحد الأيام، وكان في منتهى الحماس بحيث إن جبينه فاض بالعرق. حاول أن يعطيها كتابًا لتقرأه. كانت تقرأ القليل لنفسها، وتحرّك شفتيها ببطء، وترجع الكتاب،

معلنة بأنها سوف تستعيره منهُ في عيد الميلاد وتجعل فانيا يقرأ لها بصوت عال، لكي تسمعهُ الجدة أيضًا، لكنها مشغولة جدًا في الوقت الحاضر.

في الوقت نفسه، أُنشئ جسرٌ خشبيّ عبر نهر النيفا، وفي أحد الأيام نبح الكلب بيأس وقفز وهو بسلسلته معلنا عن زيارة نيكيتا الثانية، حاملًا كتابًا ورسالة تستفسر عن صحة أبلوموف. كان أبلوموف يخاف عبور النهر على الجسر الخشبي، فاختفى عن نيكيتا، وكتب لأولغا بأنه لديه بعض الانتفاخ في حنجرته، وأنه لم يتأكد بعد من وجوب خروجه وأن ذلك «حرمهُ من رؤية أولغا الغالية بضعة أيام أخرى».

أعطى أوامره لزاخار أن لا يتكلم مع نيكيتا وتبعَ مرة أخرى خادم أولغا إلى البوابة بنظراته، وهدّد أنيسيا بأصبعه حين أبرزت أنفها خارج المطبخ وأرادت أن تسأل نيكيتا شيئًا ما.

❊ ❊ ❊

(7)

مرّ أسبوع. بعد أن نهض أبلوموف في الصباح تحقق أولًا إن كانت الجسور قد تمّت إعادتها.

أخبروه: «كلا، لحد الآن» وقضى اليوم بهدوء وهو يستمع إلى تكتكة الساعة وقعقعة مطحنة القهوة وغناء طيور الكناري. لم تعد الصيصان تزقزق؛ لقد كبرت منذ وقت طويل وأصبحت دجاجات في متوسط العمر واختفت في القنّ. لم يكن لديه الوقت الكافي ليقرأ الكتب التي أرسلتها له أولغا. بعد أن قرأ ما يقارب المئة وخمسين صفحة من أحد الكتب حتى وضعه جانبًا مقلوبًا، وبقي هكذا لعدة أيام. وبدلًا من ذلك أمضى أغلب الوقت مع طفلي سيدة المنزل. كان فانيا ولدًا ذكيًا جدًا، حفظ عن ظهر قلب عواصم بلدان أوروبا خلال ثلاثة دروس. ووعده أبلوموف بشراء كرة أرضية صغيرة له حالما يعبر إلى الجانب الآخر من النهر. أما البنت ماشا فقد أعدّت له ثلاثة مناديل ومع أنها رديئة حقًا، لكنها تصنعها بيديها الصغيرتين بطريقة مضحكة وتهرع إليه لتريه كل قطعة صغيرة أنجزتها من عملها.

كان يتحدث باستمرار مع سيدة المنزل في كل مرة يلمح مرفقيها من خلال الباب نصف المفتوح. استطاع من خلال حركات مرفقيها أن يعرف ماذا تفعل، إن كانت تنخل أو تطحن أو تكوي. حاول أيضا أن يتكلم إلى الجدّة، لكنها لا يمكنها أن تنهي أي محادثة: فهي تتوقف في منتصفه من خلال كلمة، وتستند على حائط بقبضتها، وتنحني مرتين، وتبدأ بالسعال، كأنها أرادت أن تمارس عملًا شاقًا، ثم تطلق أنينًا وهكذا تنتهي المحادثة. الوحيد الذي لم يرهُ كان أخ سيدة المنزل. فكان يلمحه وهو يندفع مارًا بالنافذة برزمته الكبيرة، لكن لم يسمع أي شيء عنه في البيت. حتى حين دخل أبلوموف بالمصادفة إلى الغرفة إذ كان الجميع يتناولون الغداء، فقد بحثوا كلهم عن مكان شاغر، لكن أخ السيدة سرعان ما مسح شفتيه بأصابعه واختفى في العلّية.

في أحد الأيام، وحالما استيقظ أبلوموف دون هم في العالم بدأ يرتشف قهوته، أعلن زاخار فجأة بأن الجسور قد أعيدت. فخفق قلب أبلوموف بشدة.
أسرّ لنفسه: «غدًا يوم الأحد. عليّ الذهاب إلى بيت أولغا، وأتحمل بشجاعة كل النظرات الفضولية طوال اليوم التي يلقيها عليّ الغرباء، ثم أخبرها بنيتي الكلام مع عمتها».
ولم يزل في مكانه إذ وجد أنّ من المستحيل التحرّك شبرًا واحدًا للأمام. تصوّر بحيوية كيفية إعلان خطوبتهما، وكيف ستصل السيدات والسادة اليوم التالي والذي بعده، وكيف أنه سيصبح فجأة هدفًا للأنظار الفضولية، وكيف ترفع الأنخاب في صحته أثناء الغداء، وبالأخص حين يجري الاحتفال بخطوبته إلى أولغا. فمن المتوقع أن يشتري لها هدية باعتباره خطيبها.
قال محدثًا نفسه وشعر بالرعب، ثم طفق يضحك بشدة: «هدية!». هدية! ولديه فقط 200 روبل في جيبه! حتى لو وصلت نقوده، فلن تصل قبل عيد الميلاد، وربما بعده، أي بعد بيع الذرة، فكم كمية الذرة كانت هناك وكم ستجلب من نقود كل ذلك سوف يتم توضيحه في الرسالة، ولم تكن ثمة رسالة. باللهّ ماذا يعمل؟
وداعا للأسبوعين اللذين أمضاهما في راحة! ووسط هذا القلق رأى وجه أولغا الجميل، وحاجبيها الخفيفين المعبّرين، وعينيها الذكيتين الشهلاوين، ورأسها الجميل، وجديلة شعرها، التي كانت من الطول بحيث أبرزت تناسب جسمها المهيب، من رأسها حتى كتفيها وخصرها. لكن ما إن بدأ يرتعش محتفيًا بالحب حتى سحقه التفكير والتساؤلات: ما الذي يجب عليه عمله، وكيف يتعامل مع مسألة الزواج، ومن أين يحصل على المال، وأين يعيشان فيما بعد؟
فكّر: «سوف أنتظر قليلًا؛ ربما تصل الرسالة غدًا أو بعد غد»، وبدأ يحسب متى يمكن للرسالة أن تصل إلى الريف، وكم سيستغرق جيرانه ليكتبوا الرد وكم ستكون المدة لكي تصل إليه. قرّر: «لا بدّ من أنها ستستغرق ثلاثة أو أربعة أيام

أخرى في الأغلب سوف أذهب إلى أولغا فيما بعد، وبالأخص أنها لا تتوقع إلا بصعوبة متى يتم نصب الجسور».

سألت أولغا خادمتها حالما استيقظت ذلك الصباح:

كاتيا هل تم نصب الجسور؟

وكان هذا السؤال يتكرّر يوميًا. لم يكن أبلوموف مرتابًا به.

لا أعرف يا آنسة. لم أرَ الحوذي أو الحارس اليوم، ونيكيتا لا يعرف.

قالت أولغا منزعجة وفحصت السلسلة حول عنقها بينما تستلقي في الفراش:

إنكِ لا تستطيعين الإجابة على كل أسئلتي!

سأبحث فورًا يا آنسة. لا أجرؤ على الخروج وفكرتُ بأنك سوف تستيقظين، وإلا لكنت قد ذهبت منذ أمد طويل.

واختفت كاتيا من الغرفة. فتحت أولغا دُرج منضدتها بجانب السرير وانتزعت رسالة أبلوموف الأخيرة.

فكّرت بقلق:

إنه مريض، حبيبي المسكين. إنه وحيد هناك وضجر... يا إلهي كم يطول من الوقت...

ولم تكمل الجملة إذ إن كاتيا جرت في الغرفة وقد تورَّدت خجلًا.

صاحت بفرح:

لقد نصبوا الجسور الليلة الماضية!

أمسكت أولغا، التي قفزت من السرير، بذراعيها، وألقت حولها مبذلها، وساعدتها في لبس خفّها الصغير. فتحت أولغا صندوقًا، والتقطت شيئًا منهُ ووضعته في يد كاتيا. فما لبثت كاتيا أن قبّلت يدها. كل هذا قفزها من السرير، وسقوط قطعة النقود في يد كاتيا، وتقبيل كاتيا ليدها حصل في دقيقة واحدة.

فكّرت أولغا:

«أوه، غدًا يوم الأحد: يا للحظ! سيأتي!» لبست بسرعة وتناولت فطورها وتسوقت مع عمتها.

رجتها:
دعينا نذهب إلى القدّاس في كنيسة سمولني غدًا يا عمتي.
لولبت عمتها عينيها، وفكّرت بالأمر ثم قالت:
حسنٌ جدًا، لكنها بعيدة جدًا يا عزيزتي! لماذا تريدين الذهاب هناك في الشتاء؟
أرادت أولغا أن تذهب هناك لأنّ أبلوموف أشار إلى الكنيسة من النهر، وودت لو تصلّي هناك له من أجل أن يبلّ من مرضه، ويزيد من حبه لها، وأن يكون سعيدًا معها وأن ينتهي هذا الشك والتردد في القرار بأسرع ما يمكن. مسكينة أولغا!
أقبل يوم الأحد. خططت أولغا لأن يكون الغداء حسب رغبة أبلوموف. لبست ثوبًا أبيض، وأخفت تحت القماش المطرّز السوار الذي أعطاه إليها، وصففت شعرها بالأسلوب الذي يرغبه؛ ورتبت البيانو لكي يصدر نغماته قبل يوم، وفي الصباح حاولت أن تغني «الربّة النقية». كان صوتها يتردد رنانًا منذ عودتها من الريف. ثم انتظرت.
قال البارون الذي وجدها تنتظر أبلوموف بأنها كانت تبدو ثانية جميلة كما كانت في الصيف، لكنها كانت أنحف قليلًا.
قال:
لقد أثر عليك بشكل ملحوظ فقدان جو الريف والمزاج العكِر قليلًا للحياة. ماذا تحتاجين إليه عزيزتي أولغا، هو الريف وجو الحقول.
قبّل يديها بضع مرات، وترك شاربه المصبوغ بقعة صغيرة على أصابعها.
أجابت بحزن لا ردًا عليه بل تكلمت في الفضاء لشخص آخر:
أجل، الريف.
أضاف:
على ذكر الريف. دعواك القضائية سوف تنتهي وفي نيسان تكونين قادرة على العودة إلى عزبتك. إنها ليست كبيرة لكن موقعها عجيب! سوف تكونين مسرورة. يا له من بيت! يا لها من حديقة! ثمة جناح من مبنى في التل سوف

تحبينه! منظر النهر لا تتذكرينه، صحيح؟ لقد كنتِ صغيرة حين ترك أبوك العزبة وأخذك بعيدًا.
قالت واستغرقت في الأفكار:
أوه، كم أنا سعيدة!
فكّرت: «الآن حسمت المسألة. سنذهب هناك، لكن لن يكتشف ذلك حتى...»
سألت بسرعة:
الشهر القادم إذن أيّها البارون؟ هل أنت متأكد؟
قال وذهب إلى عمتها:
أنا متأكد جدًا من ذلك بقدر تأكدي من أنك في الواقع جميلة وبالأخص اليوم.
لم تتحّرك أولغا من مكانها، وحلمت بالسعادة القريبة جدًا، لكنها قرّرت ألَّا تخبر أبلوموف بأخبارها وخططها للمستقبل. نوت أن تراقب حتى النهاية التغيّر الذي كوّنه الحب في روح أبلوموف الرتيبة، لترى كيف أن الثقل الكبير سيرفع عنهُ، وكيف أنه لن يكون قادرًا أخيرًا على مقاومة التطلع إلى السعادة، وكيف أنه سوف يتسلم ردًا إيجابيًا من الريف، ويشع بالفرح، ويندفع إليها ويضعه عند قدميها، وكيف أن كليهما سوف يهرعان إلى عمتها... ثم ستخبره فجأة بأنها أيضًا تمتلك عزبةً، وحديقة، وجناح من مبنى، بمنظر يطل على النهر وبيتًا جاهزًا للعيش فيه، وبأنهما يجب أن يذهبا هناك أولًا ثم إلى أبلوموفكا. فكّرت: «كلا. لا أريد ردًا إيجابيًا، لأنه سوف يتباهى ولن يسرّهُ أني أمتلك عزبة خاصة وبيتًا وحديقة. كلا، أفضل بأن يأتي وهو يبدو منزعجًا بسبب رسالة مزعجة مع أخبار بأن عزبته حالها سيء وبأنه يجب عليه أن يذهب هناك بنفسه. سيندفع مباشرة بلا تردد إلى أبلوموفكا، ويجري بسرعة كل الترتيبات الضرورية، وينسى أن يرى العديد من الأمور الكبيرة، ويكون غير قادر على إنجاز العديد من الأمور الأخرى، ويفعل كل شيء بأي طريقة، ويتراجع، وفجأة يكتشف بأن من غير الضروري له أن يذهب مطلقًا لأنّ لديها بيتًا وحديقة وجناحًا من مبنى بمنظر يطل على النهر، ومكانًا يستطيعان العيش فيه دون أن ينزعجا بشأن أبلوموفكا... كلا، كلا، لن

تذهب لتخبره؛ سوف تصمد حتى النهاية. دعه يذهب إلى عزبته، دعه يحثّ نفسه، دعه يقبل على الحياة من أجلها وحدها، باسم سعادتها المستقبلية. أوه كلا! لماذا يجب أن ترسله إلى عزبته؟ لماذا يجب أن يفترقا؟ كلا حين يلبس من أجل الرحلة ويأتي شاحبًا ومكروبًا ليقول وداعًا لها، سوف تخبرهُ فجأة بأنّ لا حاجة هناك له ليذهبا حتى الصيف، إذ إنهما سوف يذهبان معًا ثم...

هكذا حلمت، وهرعت إلى البارون واقترحت عليه بمهارة أن لا يكشف الأخبار لأي شخص مطلقًا. وكان تعني لأي شخص أبلوموف فقط.

وافقها قائلًا:

حسنٌ جدًا، ولماذا أكشفها؟ عدا ربما للسيد أبلوموف.

تمالكت نفسها وقالت بلا اكتراث:

كلا، أرجوكَ، لا تخبرهُ أيضًا.

أضاف البارون بتودّد:

أوه، حسنًا؛ أنتِ تعرفين أن إرادتكِ هي قانون يهمني.

لم تكن بلا مكر. لو أرادت أن تنظر إلى أبلوموف بحضور الناس الآخرين، كانت تنظر أولًا إلى اثنين أو ثلاثة من الناس ثم تنظر إليه بعد ذلك. كم فكّرت كثيرًا بأبلوموف. كم مرة بدأ خدَّاها يلتهبان! كم مرة لمست هذا أو ذاك المفتاح من آلة البيانو لترى إن كانت نغماته عالية أو أن الموسيقى تحولت من مكان إلى آخر! ولم يأتِ! ماذا يعني ذلك؟ الساعة الثالثة. الساعة الرابعة لم يكن هناك! في الساعة الرابعة والنصف بدأت تذوي بوضوح جمالها تلاشى، وعنفوانها ذبل، وجلست على المائدة وقد بدت شاحبة. لم يلاحظ أحد أي شيء، فقد كانوا منهمكين في تناول الأطباق التي جهزت له، ويتحدثون بسرور وبلا اكتراث. بعد الغداء، وفي المساء لم يأتِ بعد. حتى الساعة العاشرة راحت تتردد ما بين الأمل والخوف؛ في الساعة العاشرة ذهبت إلى غرفتها. أولًا صبّت عليه كل القسوة التي تجمعت في قلبها؛ ولم تبق كلمة أو سخرية أو مفردة حاقدة إلا وقذفتها اتهامًا على رأسه. ثم شعرت فجأة كأنّ جسدها كان ساخنًا ثم تحول باردًا كالثلج. برقت فكرة في

ذهنها: «إنه مريض وحيدًا لا يستطيع أن يكتب أيضًا». ملكها هذا الاعتقاد وظلت يقظة طوال الليل. وقعت في نعاس محموم عدة ساعات، وأصابتها نوبة هذيان في الليل، لكنها استيقظت في الصباح هادئة وعازمة على الرغم من أنها شاحبة.

في يوم الاثنين نظرت سيدة المنزل عبر مكتبة أبلوموف وقالت:

فتاة تسأل عنك.

أجاب أبلوموف:

عني؟ مستحيل! أين هي؟

إنها هنا. جاءت إلى بابنا بالخطأ. هل أسمح لها بالدخول؟

لم يتخذ أبلوموف قراره إلا بصعوبة حين ظهرت كاتيا أمامه. خرجت سيدة المنزل.

صاح أبلوموف مندهشًا:

كاتيا! أهذه أنت؟ ما الأمر؟

قالت كاتيا هامسة:

أولغا في الخارج. أرسلتني لأسأل عنك...

أصبح أبلوموف شاحبًا.

همس برعب:

الآنسة أولغا! لا أصدّق، يا كاتيا. هل تمزحين؟ أرجوكِ، لا تعذبيني!

إنه أمر صحيح سيدي. إنها تنتظر في عربة مؤجرة قرب دكان الشاي. تريد أن تأتي هنا. أرسلتني لأخبرك أن ترسل زاخار بعيدًا. ستكون هنا في غضون نصف ساعة.

قال أبلوموف:

أفضل أن أذهب وأراها بنفسي. لا يمكن أن تأتي هنا. أليس كذلك؟

ليس لديك وقت يا سيدي. ربما تأتي في أي لحظة. تعتقد بأنك لست على ما يرام. وداعًا يجب أن أسرع. سيدتي تنتظرني إنها وحيدة...

وذهبت.
لبس أبلوموف جزمته وصدرته وربطة عنقه بسرعة كبيرة واستدعى زاخار.
قال أبلوموف بهياج محموم:
زاخار، في اليوم الماضي طلبت مني السماح أن تذهب وترى أصدقاءك في شارع غاروخافايا، أليس كذلك؟ حسن تستطيع أن تذهب الآن!
ردّ زاخار بشكل مؤكد:
لن أذهب سيدي.
أصرّ أبلوموف:
بل ستذهب!
قال زاخار بعناد:
وهل أستطيع أن أزور الناس في العطل؟ لن أذهب!
اذهب وتمتع بوقتك. لا تكن عنيدًا حين يقدم لك سيدك خدمة ويجعلك تخرج اذهب والتقِ بأصدقائك!
لا أهتم بأصدقائي سيدي!
لكن ألا تريد أن تراهم؟
كلا سيدي. إنهم جميعهم أوغاد، ففي كل مرة أراهم. لا أريد أن أراهم مرة أخرى!
ظلّ أبلوموف يكرّر بإصرار، اندفع إلى وجهه:
اذهب، اذهب باللّٰه عليك!
ردّ زاخار بلا اكتراث:
كلا سيدي. سوف أبقى اليوم كله في البيت، لكن في يوم الأحد سأكون سعيدًا بالخروج.
أسرع أبلوموف مهتاجًا:
اذهب الآن حالًا. يجب أن...
لكن لماذا يجب أن أذهب بتلك الطريقة من أجل لا شيء؟

حسن، اذهب لمجرد النزهة عدة ساعات. انظر إلى وجهك المكتسي بالنعاس تحتاج إلى بعض الهواء النقي!
قال زاخار ونظر بكسل خارج النافذة:
لا عيب في وجهي سيدي. إنّ وجهي لا يختلف عن وجوه الآخرين.
فكّر أبلوموف ومسح جبينه: «يا إلهي، أكيد ستكون هنا في أي لحظة».
من فضلك اذهب للنزهة يا زاخار، أرجوك. هاك، خذ عشرين كوبيكًا واذهب واشرب مع أحد أصدقائك.
أفضل الجلوس على العتبات الأمامية سيدي. لا أستطيع الذهاب للنزهة في الثلج. أستطيع الجلوس عند البوابة بالطبع. لا أمانع من فعل ذلك.
قال أبلوموف بسرعة:
كلا، يجب أن تذهب أبعد من البوابة. اذهب إلى شارع آخر إلى اليسار هناك، نحو الحديقة عبر النهر.
فكّر زاخار: «ما الأمر؟ يجبرني أن أذهب للنزهة! شيء لم يحدث من قبل أبدًا!»
أفضل الانتظار حتى الأحد سيدي!
قال أبلوموف وكزّ أسنانه وتقدم نحو زاخار:
هل تذهب أم لا؟
اختفى زاخار ونادى على أنيسيا.
قال لها:
اذهبي إلى السوق واشتري شيئًا للغداء.
وبدأت تتكلم من أنفها محتجة:
لكن سيدي، كل شيء تم شراؤه للغداء، وسوف يكون جاهزًا فورًا.
صاح أبلوموف بشدة وأصيبت أنيسيا بالفزع:
اصمتي وأصغي!
قال محاولًا أن يفكر بشيء لكي يرسلها من أجل شرائه:
حسنًا، اشتري الهليون.

لكن سيدي هذا ليس موسم الهليون لن تجده هناك...

صاح:

اخرجي! اركضي بأسرع ما يمكن.

وركضت وصاح وراءها:

ولكن لا تنظري حولك، وحين تعودين امشي ببطء ما أمكن ولا تظهري أنفك هنا لمدة ساعتين.

قال زاخار لأنيسيا وركض لها عبر البوابة:

ذلك أمر مضحك دون أدنى شك. لقد أرسلني للنزهة وأعطاني عشرين كوبيكًا. أين يعتقد بأني سأذهب للنزهة؟

علّقت أنيسيا بسخرية حادة:

إنه سيدك وله الحق أن يأمرك بما يريد. من الأفضل أن تذهب إلى آرتمي، حوذي الكونت، وتدعوه إلى تناول الشاي: هو دائمًا يدعوك، سوف أذهب إلى السوق.

قال زاخار إلى الحوذي:

يا لها من فكرة ظريفة، آرتمي! أخبرني السيد أن أذهب للنزهة وأعطاني نقودًا للشرب...

علّق آرتمي بسخرية:

هل أنت متأكد من أنه لم يقصد أن يسكر هو بنفسه؟ أعطاك شيئًا لكي لا تحسده. هيّا!

غمز إلى زاخار وأومأ برأسه إلى شارع معيّن.

كرّر زاخار وتحرّك نحو الشارع نفسه:

هيّا...

أزّ بصوته وكشّر وأسرّ لنفسه: «يا إلهي، من العجب أن يرسلني للنزهة!» ذهبا، لكن أنيسيا هرعت لأول تقاطع طرق، وربضت في حفرة وراء سياج، وانتظرت ما يحدث.

أصغى أبلوموف بانتباه وانتظر. أمسك شخص بالحلقة الحديدية للبوابة وفي الوقت نفسه نبح كلب بيأس وقفز من سلسلته.
دمدم أبلوموف وكزّ أسنانه:
كلب ملعون!
التقط سدارته واندفع باتجاه البوابة الأمامية، وفتحها، وجلب أولغا إلى العتبات الأمامية بذراعيه. كانت وحدها. وظلت كاتيا تنتظرها في العربة ليس بعيدًا عن البوابة.
سألت بسرعة دون أن تخلع معطفها أو قبعتها وتطلعت إليه من فوق إلى أسفل حين دخل مكتبته:
هل أنت على ما يرام؟ هل كنت طريح الفراش؟ ماذا حدث لك؟
قال ومسّ حنجرته وسعل قليلًا:
أنا أحسن الآن، حنجرتي تعافت تقريبًا.
سألت، وألقت نظرة ثاقبة عليه بحيث إنه لم يتلفظ بكلمة.
قال برعب:
كيف تفعلين أمرًا مثل هذا يا أولغا؟ هل تعرفين ماذا تفعلين؟
قاطعته نافدة الصبر:
سنناقش ذلك فيما بعد! أسألك: ما معنى ابتعادك عني؟
لم يحرْ جوابًا.
سألت:
هل لديك بثرة في حدقة عينك؟
لم يُجب.
قالت وعقدت حاجبيها:
لم تكن مريضًا، ولم يكن ثمة ألم في حنجرتك.
أجاب أبلوموف بصوت يشبه صوت تلميذ مدرسة:
كلا، لم أكن مريضًا.

صاحت ونظرت له بدهشة:

لقد خدعتني! لماذا؟

حاول أن يبرّر نفسه:

أستطيع أن أوضح كل شيء يا أولغا. أجبرني سبب مهم على البقاء بعيدًا عنكِ لمدة أسبوعين كنتُ خائفًا من...

سألت وجلست وخلعت قبعتها ومعطفها:

مِمّن؟

أخذ المعطف والقبعة منها ووضعهما على الأريكة.

الأقاويل والإشاعات...

قالت ونظرت إليه نظرة ثاقبة:

لكن ألم تخف من كوني أمضيت عدة ليال لم أنم فيها، متصورة كل أنواع الأمور وكنت على وشك أن أقع مريضة؟

قال وأشار إلى رأسه وقلبه:

لا تعرفين ما الذي يحدث هنا يا أولغا؟ أنا قلق حد الموت؛ ألا تعرفين ماذا يحدث لي؟

قالت ببرود:

ماذا حدث؟

كم انتشرت الإشاعات عنك وعني! لم أرغب بأن يصيبك القلق، وكنت خائفًا أن أظهر في بيتك.

أخبرها بكل شيء سمعهُ من زاخار وأنيسيا، وتذكر المحادثة بين الغندورين في الأوبرا، وأنهى حديثه معها بالقول بأنه لم يكن قادرًا على النوم منذ ذلك الحين، وأنه في كل نظرة يرى سؤالًا أو تعنيفًا أو تلميحًا ماكرًا إلى لقاءاتهما.

قالت:

لكننا قررنا أن نخبر عمتي هذا الأسبوع. حينئذ ستتوقف كل هذه الإشاعات.

نعم، لكني لم أرغب أن نتكلم مع عمتك هذا الأسبوع، إلى أن أتسلّم الرسالة. أعرف بأنها لن تسألني عن حبّي لكِ، بل عن عزبتي، وأنها سترغب بمعرفة كل التفاصيل، ولا أستطيع أن أوضح كل شيء لها إلى أن أتسلم جوابًا من وكيلي.

تنهدت أولغا.

قالت متفكرة:

لولا معرفتي بك لما عرفت بماذا أفكر. أنت خائف من قلقي بسبب إشاعة الحوذي، لكنك لم تخف من أن تسبب لي كل هذا القلق! أنا في الحقيقة لا أستطيع أن أفهمك!

كما ترين، فكرت بأنَّ أقاويلهم سوف تزعجك. كاتيا، مارفا، سيميون، وذلك الأحمق نيكيتا، اللهّ وحده يعلم ماذا يقولون...

قالت بثبات:

لقد عرفت منذ أمدٍ طويل ماذا يقولون.

من أخبرك؟

أخبرتني به كاتيا ومربيتي منذ وقت طويل. سألتا عنك وقدمتا لي التهنئة.

سألَ برعب:

قدمتا لكِ التهنئة؟ هل فعلتا ذلك حقًا؟ وماذا قلتِ؟

أوه، لا شيء. شكرتهما فقط. أعطيت للمربية منديلًا ووعدت بأن تذهب سيرًا على قدمها إلى معبد القديس سيرجيوس لتصلّي من أجلي. تعهدتُ بترتيب زواج كاتيا من طباخ المعجنات: هي مغرمة أيضًا...

نظر إليها بعينين خائفتين مندهشتين.

أضافت:

كنت تزورنا يوميًا، فمن الطبيعي أن الخدم سيثيرون الأقاويل عنا. هم دائمًا يثرثرون. وينطبق الأمر على سونيا: لماذا يخيفك الأمر كثيرًا؟

قال بصوت ممطوط:

إذن من هذا المكان جاءت الإشاعات!

وهل لا أساس لها؟ أليست صحيحة؟
كرّر أبلوموف بنغمة صوت ترددت لا على شكل رفض ولا سؤال:
إنها صحيحة.
وأضاف بعد توقف:
نعم. أنتِ على حق تمامًا. لكن كما ترين، لا أريدهم أن يعرفوا عن لقاءاتنا؛ ذلك هو السبب في أني خائف.
إنك خائف... إنكَ ترتجف مثل صبي... لا أستطيع أن أفهمك! هل تسرقني؟
شعر بالإرباك؛ نظرت إليه باهتمام.
قالت:
اسمعْ. هناك نوع من الكذبة هنا في مكان ما، ثمة شيء خطأ. تعال وأخبرني كل ما في بالك. تستطيع أن تبتعد عني عدة أيام وحتى أسبوع كنوع من الاحتراز، لكن يجب أن تعلمني، وتكتب إليّ. تعلم بأني لم أعد طفلة ولا يمكن إزعاجي بسهولة ببعض الهراء. ماذا يعني كل ذلك؟
راح يتأمل قليلًا ثم قبّل يدها وأطلق حسرة.
هذا ما أفكّر به يا أولغا. لقد كان خيالي كل هذا الوقت فزعًا من اعتبارك لكل هذه المخاوف، والقلق عذّب عقلي، وكان قلبي متألمًا من الآمال التي بدت على حافة التحقيق في لحظة وعلى وشك أن تتفرق في لحظة أخرى، مع توقعات بأنّ جسدي كله تزعزع وأصبح خدرًا فهو يحتاج إلى الراحة ولو لبعض الوقت...
لكن لماذا لا أصبح أنا خدرة؟ لماذا أسعى إلى الراحة معك فقط؟
قال أبلوموف وانزلق إلى الأرضية وقبل يديها.
أنت شابة وقوية، تحبينني بإخلاص وهدوء، بينما أنا لا تعرفين كم أحبك!
كلا، لا أعتقد أني أعرف حقًا. إنك من الغرابة بحيث لا أعرف كيف تفكّر. عقلي يخونني وأفقد الأمل سنتوقف قريبًا عن فهم أحدنا الآخر: لو حدث ذلك فسيسوء الأمر بالنسبة لنا.
وصمتا كلاهما.

سألت ونظرت حول الغرفة لأول مرة:

ماذا كنت تفعل طوال هذه المدة؟ إنه مكان ليس لائقًا هنا فالسقوف واطئة جدًا! والنوافذ صغيرة، وورق الجدران قديم... هل غرفك الأخرى بنفس الحال؟

اندفع ليريها شقته لكي لا يجيب عن أسئلتها حول ماذا يفعل طوال هذه المدة.

حين جلست من جديد على الأريكة، جلس ثانية على السجادة عند قدميها.

أعادت السؤال:

حسنٌ، ماذا فعلت خلال تلكما الأسبوعين؟

كنتُ أقرأ وأكتب وأفكّر فيك.

هل قرأت كتبي؟ كيف تبدو؟ أعتقد أنه يجب أن تعيدها إليّ.

التقطت كتابًا من المنضدة ونظرت إلى الصفحة المفتوحة: كانت مغطاة بالغبار.

قالت: إنك لم تقرأهُ.

أجاب: كلا.

نظرت إلى الوسادات المجعدة والمطرزة، وإلى فوضى الغرفة، والنوافذ المكتسية بالغبار، وطاولة الكتابة، وعديد الأوراق المقلوبة والمغطاة بالغبار، ومسّت القلم في المحبرة الجافة، ثم نظرت إليه بدهشة.

كرّرت:

ماذا كنت تفعل؟ ألم تكن تقرأ أو تكتب؟

بدأ يتلعثم:

لا أملك الوقت الكافي. حين أستيقظ في الصباح يرتبون الغرف ويزعجونني، ثم يتبع ذلك الثرثرة حول الغداء، ويأتي طفلا سيدة المنزل ويطلبان مني أن أصحح لهما العمليات الحسابية، ثم يحل موعد الغداء. وبعده متى يتبقى وقت للقراءة؟

قالت بنغمة إيجابية في صوتها:

أنت نمت بعد الغداء.

بعد فترة من التردّد أجاب برقة:

أجل.

لكن لماذا؟
لكي لا أحسّ بالوقت: أنتِ لست معي يا أولغا، والحياة بدونك مملة ولا يمكن تحملها.
توقف قليلًا، ورمقته بنظرات صارمة.
بدأت تقول بشكل جدّي:
إيليا، هل تذكر اليوم الذي أخبرتني فيه في الحديقة بأنك شعرت بالحياة ثانية، وأكدت لي بأني كنت هدف حياتك وغايتها، وأخذتني باليد وقلت بأنها ملكك هل تتذكر كيف منحتكَ موافقتي؟
كيف يمكن أن أنساه؟ ألم يغيّر حياتي كلها؟ ألا ترين كم أنا سعيد؟
قالت ببرود:
لا، لا أرى. لقد خدعتني. سمحت لنفسك أن تنهار مرة أخرى...
أخدعك؟ ألا تخجلين من قول ذلك؟ أقسم بأني سوف ألقي بنفسي في الهاوية في هذه اللحظة بالذات...
قاطعته قائلة:
نعم، فعلًا، لو كانت الهاوية هنا تحت قدميك في هذه اللحظة. لكن إذا ما أرجِئتْ ثلاثة أيام سوف تغيّر رأيك وتصاب بالفزع، وبالأخص إذا بدأ زاخار أو أنيسيا بالكلام حول الأمر. هذا ليس حُبًّا.
بدأ يقول بانفعال:
هل تشكّين بحبّي؟ هل تظنين بأني أؤخر الأمور خوفًا على نفسي، لا عليك؟ ألم أحرس اسمك الطيب؟ ألم أراقبك مثل الأم لكي لا تصيبك الإشاعات بأي ضرر؟
ختم كلامه والدموع تملأ عينيه:
أوه أولغا! هاتِ براهين على ذلك! أخبرك مرة أخرى إذا كنتِ أكثر سعادة مع رجل آخر، فأنا أتخلى عن حقوقي له دون أن أتذمّر. إذا ما توجب على أحد أن يضحّي بحياته من أجلك، فأنا سأكون سعيدًا بأن أموت!

لكن ذلك ليس ضروريًا، لا أحد يطلب منك! لماذا أحتاج حياتك؟ فقط افعل ما هو ضروري. إنها حيلة قديمة من الناس غير النزيهين لتقديم التضحيات غير الضرورية التي لا يمكن القيام بها إلا لكي يتم تفادي التضحيات الضرورية. إنك لست بارعًا... أعرف ذلك، لكن...

واصل كلامه:

أنتِ لا تعرفين كم كلفتني هذه العواطف والهموم! لم تكن لديّ فكرة أخرى منذ أن التقيت بك. والآن أيضًا أكرّر بأنك هدفي الوحيد، أنتِ الوحيدة. سوف أموت، سوف أصبح مجنونًا إن لم تكوني بجانبي! أنا أتنفس وأنظر وأفكّر وأشعر فقط معك. لماذا تندهشين أني نمتُ وتحطمت في الأيام التي لم أركِ فيها؟ لا شيء يجعلني مسرورًا، أنا مريض من كل شيء، أنا مجرد آلة: أتجول وأقوم بكل أنواع الأمور دون أن ألاحظ ماذا أفعل. أنتِ محرّك هذه الآلة ووقودها.

قال ذلك وجثا على ركبتيه وعدّل نفسه.

ومضت عيناه كما اعتادت على ذلك في الحديقة أثناء الصيف. وأشرق فيهما مرة أخرى الفخر والقوة.

أنا مستعد أن أذهب حيثما تطلبين مني، لأنفذ رغبتك. حين تنظرين إليّ، حين تتكلمين أو تغنين، أشعر بأني حي.

استمعت أولغا إلى هذه النفثات العاطفية بوقار مراعية لمشاعره.

قالت:

اسمع إليا. أؤمن بحبّك وبقوتي عليك. آه، هل تخيفني بقرارك؟ لماذا تجعلني أشك فيك؟ تقول إني هدف حياتك وتسير نحوه ببطء وتوجّس. ما زالت المسافة بعيدة، لأنك يجب تسمو عليّ. أنتظر منك ذلك! لقد راقبتُ الناس السعداء في الحب.

وأضافت بحسرة:

كل شيء يفعلونه مليء بالنشاط، وراحتهم لا تشبه راحتك: هم لا يحنون رؤوسهم، وعيونهم دائما مفتوحة، وبالكاد يبدون نائمين دائما، إنهم ممتلئون بالنشاط! أما أنت كلا، أخشى أن لا أكون أنا ولا حبّي هما هدفا حياتك.
هزّت رأسها بارتياب.
قال وقبّل يديها مرة أخرى بحماس بينما هو يجثم عند قدميها:
إنكِ حبيبتي!
وكرّر قوله كأنه في حالة هذيان:
أنتِ وحدكِ! يا إلهي، يا لها من سعادة! وتتصورين أنه من المستحيل أن أحتال عليك، وأن أنام بعد هذه اليقظة إن لم أكن بطلًا!
ثم واصل كلامه ناظرًا حوله بعينين ملهمتين:
سوف ترين أنتِ وأندريه إلى أي مدى يمكن للحب أن يسمو بالإنسان! انظري إليّ. ألم أعد إلى الحياة، ألم أكن حيًا هذه اللحظة؟ فلنرحل عن هذا المكان! فلنذهب!
فلنذهب! لا يمكن أن أبقى هنا لحظة أخرى: أشعر بالاختناق والغثيان!
قال ونظر حوله باشمئزاز واضح:
دعيني استمتع اليوم بهذا الشعور... أوه، ليت النار التي تحرقني الآن يستمر لظاها غدًا ودائمًا! لكن حين تبتعدين تنطفئ وأغرق أنا! أنا الآن حي، لقد عدتُ من الموت. أعتقد أني... أولغا، أولغا! أنت أجمل شيء في العالم، أنتِ المرأة الأولى بين النساء، أنتِ... أنتِ.
ضغط وجههُ على يدها ووقع في الصمت. لم يكن بوسعه تلفظ كلمة. ضغط بيده على قلبه لكي يهدئ من انفعاله، وركّز عينيه المحمومتين والدامعتين على أولغا، وظلّ ساكنًا.
بقيت أولغا تفكّر، لكن بحسرة، وليس كما تعودت أن تفكّر في الحديقة وغرقت في التفكير العميق: «إنه رقيق، رقيق، رقيق!».
قالت بصورة رقيقة حين استيقظت من حلم يقظتها:

حان وقت الذهاب!
فجأة ثاب إلى نفسه.
قال:
يا إلهي، هل أنتِ هنا؟ عندي؟
اختفت نظرته الملهمة، وتحولت إلى نظرة متوجّسة. لم يتلفَّظ لسانه بأحاديث أكثر حماسًا. أمسك بقبعتها ومعطفها بسرعة، وحاول، وهو في حالة اضطراب، أن يضع المعطف بدلًا من القبعة على رأسها، فضحكت.
هدَّأتهُ قائلة:
لا تقلق عليّ. خرجت عمتي وستغيب اليوم كله. المربية في البيت وحدها تعرف بأني خارج المنزل، وكاتيا بالطبع. أرجوك، رافقني.
مدت ذراعها مودعة، وبهدوء، ودون أي اضطراب، وبإحساس فخور ببراءتها، عبرت الفناء يرافقها نباح الكلب المستميت وهو يحاول فك سلسلته، وركبت العربة، ومضت. تطلعت الرؤوس من نوافذ منزل السيدة، وتلصّص رأس أنيسيا من الحفرة وراء السياج حول الزاوية. حين انعطفت العربة في شارع آخر، رجعت أنيسيا وقالت بأنها تجولت في السوق كله ولم تعثر على نبات الهليون.
راح أبلوموف يخطو في الغرف وقتا طويلًا، وهو مستغرق في الأفكار، ليسمع بأن العربة التي حملت سعادته وكل شيء عزيز عليه في الحياة، قد توقفت عن القعقعة على الثلج، فاختفى اضطرابه العصبي واستقام ظهره، ورجع وجهه مشرقًا موحيًا، ودمعت عيناه بالسعادة والوجدان.
انتشر شعور من الدفء والنضارة والنشاط في جسمه. وشعر ثانيةً، كالعديد من المرَّات السابقة، بأنه يرحل بعيدًا إلى كل مكان فورًا: يتجول مع شتولتس بصحبة أولغا؛ يذهب إلى الريف والحقول والغابات، ويعتزل في مكتبته وينهمك في العمل؛ ويرحل إلى ميناء ريبنسك لينشئ الطريق الجديد؛ ويقرأ الكتاب الجديد الذي نشر توًا والذي يتحدث عنه الجميع، ويذهب إلى الأوبرا اليوم نعم، كان عليها أن تراه اليوم، سوف يذهب ليراها ثم يذهبان إلى الأوبرا. كم سيكون يومًا

رائقًا! ما أسهل أن يستنشق المرء الهواء الذي تعيش فيه أولغا، وما أجمل شعاع تألقها العذري، ومزاجها الرائق، وذكاءها اليافع والبارع العميق! شعر كأنه لم يكن يمشي، بل يطير، كأن الريح تدفعهُ حول الغرفة.
قالت أولغا:
للأمام، للأمام! أعلى فأعلى إلى الحدّ الذي تضيع عندها قوة البهاء والرقة حقها وحيث تبدأ منه مملكة الإنسان!
كم ترى الحياة واضحة! ما أسهل ما عثرت على طريقها في ذلك الكتاب المبهم وخمنت بشكل غريزي طريقه فيه أيضًا! يجب أن تمتزج حياتاهما مثل نهرين: كان يجب أن يكون مرشدها وقائدها! رأت قواه وقدراته، وعرفت ما يمكنه أن يعمل، وظلت تنتظره مطيعة لتؤكد سيطرته عليها. يا لأولغا المدهشة! رزينة وشجاعة وبسيطة لكنها امرأة ثابتة العزم وطبيعية كالحياة نفسها!
قال ونظر حوله:
كم مقرف هذا المكان حقًا! وهذا الملاك هبط داخل مستنقع وقدَّسهُ بحضوره!
نظر بشغف إلى الكرسي الذي كانت تجلس عليه، وأشرقت عيناه فجأةً، إذ رأى على الأرضية، جنب الكرسي، قفازًا صغيرًا.
ظلّ يئن بلهفة وضغط القفاز على شفتيه:
وعد! يدها: إنها بشرى! أوه.
أطلت سيدة المنزل برأسها عبر الباب لتسأله إن كان يود أن يلقي نظرة على الأقمشة الكتانية، التي جلبتها للبيع فربما يرغب بشراء بعض منها. لكنه اعتذر بشكل جاف، دون أن يفكر بإلقاء نظرة على مرفقيها، وقال إنه يأسف لأنه مشغول جدًا. ثم استغرق في ذكريات الصيف، معيدًا كل التفاصيل ومتذكرًا كل شجرة ودغل ومقعد وكل كلمة نطقت، ووجد أنها الآن أكثر سحرًا من الوقت الذي كان يتمتع فيها. بدا كأنه يفقد السيطرة على نفسه. غنّى وتكلم بلطف إلى أنيسيا، ومزح معها كونها بلا أطفال ووعدها أن يكون الكفيل لأول طفل لها.

لعب بصخب مع ماشا بحيث إن سيدة المنزل نظرت وأبعدت ماشا لكي لا تقاطع عمل ساكنهم.

أمضى بقية يومه منغمرًا في أحلام أشد جنونًا: كانت أولغا مرحة وغنّت، ثم كان هناك المزيد من الغناء في الأوبرا، وارتشف الشاي معهم، وتبادل الحديث عند مائدة الشاي بينه وبين عمتها والبارون، وكانت أولغا مخلصة وودية جدًا بحيث شعر أبلوموف تمامًا بأنه جزء من هذه العائلة. لم يعد يحتاج للعيش حياة عزلة: لديه بيت وحياته رسخت على أسس قوية الآن كان يشعر بالدفء والنور ويا لها من حياة جميلة!

نام قليلًا تلك الليلة: كان يقرأ الكتب التي أرسلتها أولغا إليه، فانتهى من قراءة مجلد ونصف.

فكّر وخفق قلبه بقوة: «أكيد أن الرسالة ستأتي غدًا من الريف أخيرًا!»

❋ ❋ ❋

(8)

عثر زاخار في اليوم التالي، حين كان يرتب الغرفة، على قفاز صغير على منضدة الكتابة. تفحصه لفترة من الوقت وكشّر ثم أعطاه إلى أبلوموف.

قال: «أعتقد، سيدي، أن الآنسة الشابة إلينسكي قد تركتهُ».

توّعد أبلوموف، وانتزع القفاز من يده:

يا لك من شيطان! هراء! لم تكن هنا الآنسة إلينسكي! إنه لإحدى الخياطات التي جاءت من الدكان ببعض القمصان لي. كيف تجرؤ على اختلاق مثل هذه القصص؟

أي نوع من الشيطان أنا يا سيدي؟ وهل حقًا أني أختلق القصص؟ يجب أن تسمع ما يقولونه في منزل السيدة؟

سأل أبلوموف:

ماذا يقولون؟

آه، سيدي، يقولون بأنّ الآنسة إلينسكي كانت هنا مع خادمتها.

قال أبلوموف برعب:

يا إلهي! كيف يعرفون بأنها كانت الآنسة إلينسكي؟ لا بدّ أنك أو أنيسيا أخبروهم.

في هذه اللحظة أطلت أنيسيا برأسها عبر الباب.

قالت:

ألا تخجل من التحدث بهذا الهراء يا زاخار؟ لا تستمع إليه سيدي. لا أحد قال شيئًا ولم يعرف أي شيء، أقسم...

صاح عليها زاخار بصوت يئز، رافعًا مرفقه كأنه على وشك أن يضربها على صدرها:

حسنًا، حسنًا. لا تحشري نفسك في مكان غير مرغوبة فيه!

اختفت أنيسيا. حرّك أبلوموف قبضتيه على زاخار، ثم فتح الباب بسرعة واتجه إلى القسم الذي تقيم فيه السيدة في البيت. كانت أغافيا ماتفييفنا تجلس على الأرضية

وهي تفرز بعض الملابس البالية وتضعها في صندوق قديم؛ وكل ما حولها يستلقي في أكوام من السجاد والصوف القطني والملابس القديمة والأزرار وقطع من الفرو.

قال أبلوموف بلطف، لكن بصوت مضطرب:

أقول إن خدمي يتكلمون بكل أنواع الهراء. لا تصدقيهم بالله عليك.

قالت سيدة المنزل:

لم أسمع بأي شيء. ماذا يقولون؟

واصل أبلوموف كلامه:

حول زيارة الأمس. يقولون بأن الآنسة الشابة جاءت لتراني...

قالت سيدة المنزل:

وهل من شأنهم ماذا يكون زوار المستأجرين عندنا؟

لكن من فضلك، لا تصدقيهم: الأمر بأكمله قصة مختلقة! لم تكن هناك زيارة من الآنسة الشابة. إنها الخياطة التي هيأت لي قميصًا وجاءت لتأخذ القياس.

سألت السيدة بسرعة:

أين تخيّط قمصانك؟ من يخيّطها لك.

دمدم أبلوموف:

في المتجر الفرنسي.

أرني إيّاها حين يجلبونها. أعرف فتاتين ماهرتين في الخياطة. فهما يخيطان أفضل من أي امرأة فرنسية. رأيت عملهما بنفسي: جلبنهُ لي لأراه. إنهما يخيطان للكونت متلينسكي. لا أحد خيّط بصورة أفضل منهما. قمصانك التي ترتديها لا يمكن أن تقارن بتلك التي يخيطانها.

شكرًا، سوف أتذكر ذلك. بالله عليك لا تعتقدي أن الآنسة الشابة زارتني.

ليس من شأني مَنْ يأتي لزيارة المستأجرين، حتى لو كانت آنسة شابة...

نفى أبلوموف بشدة:

كلا، كلا، آه، الآنسة الشابة التي يتكلم عنها زاخار طويلة جدًا وتتكلم بصوت واطئ، وهذه الخياطة لها صوت عال وواضح ألم تسمعيها؟ لها صوت محبّب. لا تعتقدي...

قالت سيدة المنزل بينما كان على وشك الرحيل:

ليس من شأننا. لا تنس من فضلك أن تخبرني حين تريد خياطة بعض القمصان: الفتاتان اللتان أعرفهما تخيطان ببراعة إحداهما تدعى ليزافيتا نيكولايفنا والأخرى ماريا نيكولايفنا.

حسنًا، لن أنسى. لكن من فضلك لا تظنّي...

خرج ثم لبس ومضى بالعربة إلى بيت أولغا. وعند عودته إلى البيت مساءً وجد رسالة من جاره في الريف على منضدته فأسرع في قراءتها على ضوء المصباح، فغاص قلبه.

كتب جاره: «سأكون ممتنا لك عظيم الامتنان لو أنك نقلت مسؤولياتي القانونية إلى شخص آخر للاهتمام بشؤونك، لأنّ لديّ الكثير من المهام، وبصراحة لا أستطيع أن أتولى العناية بعزبتك كما يجب. من الأفضل بالنسبة إليك أن تأتي بنفسك هنا، وأن تسكن في عزبتك. إنها عزبة جيدة لكنها مهملة جدًا. أولًا يجب أن تقرر بعناية أي من فلاحيك يجب أن يدفع ضريبة سنوية ومن يعمل في أرضك ثلاثة أيام في الأسبوع. من المستحيل عمل ذلك دون حضورك: لقد خرج الفلاحون عن سيطرتك، ولم يهتموا للوكيل الجديد، أما الوكيل القديم فهو محتال ويجب أن يُراقب جيدًا. من المستحيل حساب دخلك منها. في الوقت الحاضر وبسبب الوضع المضطرب بالكاد تتسلم أكثر من ثلاثة آلاف روبل، حتى في حالة وجودك. المقصود دخلك من الحبوب لأن ليس ثَمَّ أملٌ من الحصول على أي شيء من الفلاحين الذين يجب أن يدفعوا ضرائب سنوية: يجب الأخذ بيدهم وتصنيف متأخراتهم سيتطلب الأمر ثلاثة أشهر. كان الحصاد جيدًا وأسعار الحبوب عالية ويجب أن تحصل على المال في آذار أو نيسان، إذا ما أشرفت بنفسك على المبيعات. لكن في هذه اللحظة لا يوجد درهم واحد. أما بالنسبة للطريق الرابط بين

فرخليوفو والجسر فلم أتسلم جوابا منك بحيث قرّرت أن أنشئ الجسر مع أدونتسوف وبلوفودا من عزبتي إلى نكلي، وأخشى أن يبتعد بمسافة كبيرة عن أبلوموفكا. في الختام، أطلب منك مرة أخرى أن تأتي هنا حالًا: ففي غضون ثلاثة أشهر ستكتشف بالضبط الوارد للسنة القادمة. بالمناسبة، الآن موعد الانتخابات: ألا ترغب أن تُرشَّح بمنصب قاضٍ في المقاطعة؟ بيتك في حالة سيئة ويحتاج إلى ترميم».

وقد أضيف هذان السطران في نهاية الرسالة: «أمرتُ الخادمة اليومية والحوذي العجوز وخادمتين أخريين أن يغادروه إلى الكوخ: فقد أصبحت الإقامة فيه في غاية الخطورة».

وأرفق بالرسالة حسابًا بعدد مكاييل الحبوب التي تمّ حصدها ودرسها وخزنها والمعروضة للبيع وتفاصيل أخرى مشابهة.

«لا درهم، ثلاثة أشهر، يجب أن أذهب بنفسي، وأنظم شؤون الفلاحين، وأخمّن الواردات، وأُرشَّحَ للانتخابات» احتشدت كل هذه الأفكار حول أبلوموف مثل العديد من الأشباح. شعر كأنه دخل غابة في الليل ورأى لصًا أو جثة أو وحشًا في كل شجرة.

ظلّ يكرر: «لكن الأمر بأكمله مُخزٍ: لن أستسلم!» وحاول أن يعتاد على الأشباح من خلال عينين نصف مفتوحتين، لكن شعر بقشعريرة في قلبه وضعف في الذراعين والساقين.

ماذا كان يرجو أبلوموف؟ لقد فكّر بأن الرسالة سوف تتضمن بالتأكيد مقدار دخله القادم، والذي سيكون كثيرًا، ولنقُل ستة آلاف أو سبعة آلاف؛ وبأن البيت يمكن ترميمه لكي يتم السكن فيه في أسوأ الأحوال، إلى أن يجري بناء البيت الجديد، وأخيرًا فإنّ جاره سوف يرسل إليه ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف، باختصار، يأمل أن يجد في الرسالة الضحكة نفسها، والمزاج الرائق، والحبّ كما في رسائل أولغا. لم يعد يمشي فرحًا في غرفته، أو يمزح مع أنيسيا، أو تغمره آمال السعادة

كان يجب تأجيلها لمدة ثلاثة أشهر كلا! سيعمل بغضون ثلاثة أشهر في ترتيب شؤونه ومعرفة احتياجات عزبته. أما بالنسبة إلى الزفاف...

قال متوجّسًا:

لا فائدة من التفكير بالزفاف قبل سنة. نعم، نعم، بعد سنة لأقبلها!

كان عليه أن يكتب مخططاته ويحسم الأمر مع المعماري، ثمّ ثمّ تحسّر.

برقت فكرة أن يستدين المال في ذهنه!، لكنه رفضها. «مستحيل! وماذا لو أني لم أدفعها في الوقت المحدّد؟ إذا ما ساءت الأمور، فإن الدائنين سوف يستدعونني للقضاء، وسوف يتلوث اسم أبلوموف النقي...»، لا سمح اللهّ! حينئذ، وداعًا لهدوء البال، والتفاخر كلا، كلا! الناس الذين يستدينون تراهم يندفعون ويعملون ويكون نومهم قلقًا، كأنّهم أصابهم مسٌّ من الشيطان. نعم، الدَّين كان شيطانًا لا يمكن طرده إلا بالنقود! بالطبع كان هناك رجال أذكياء عاشوا حياتهم كلها على حساب الناس الآخرين؛ كانوا يغتصبون من هذا وذاك ولا يهتمون مطلقًا! كيف بوسعهم أن يناموا بهدوء، وكيف يتناولون الطعام، ذلك أمر لا يمكن أن يفهمه.

الدَين! عواقبه إما جهد مستمر كالعبد أو فضيحة مخزية. هل يرهن العزبة؟ لكن ألم يكن ذلك هو نفس النوع من الدَين الذي لا يمكن التراجع عنه والتغافل عنه؟ سيكون عليه أن يدفع كل سنة، ولن يكون هناك ما يكفي ليعيش عليه. أن يؤجل السعادة إلى سنة أخرى! أطلق أبلوموف أنينا مؤلما وغطس في فراشه، لكنه سرعان ما استجمع نفسه ونهض. وماذا قالت أولغا؟ ألم تلجأ إليه كرجل؟ ألم تثق بقوته؟ كانت تنتظرهُ ليتقدم حتى يصل إلى القمة التي منها يمد لها يده ويقودها خلفه، ويرشدها الطريق! أجل، أجل! لكن ما الشيء الذي يبدأ منه؟ فكّر به مليًّا، ثمّ صفع جبينه فجأةً وذهب ليرى سيدة المنزل.

سألها:

هل أخوك في البيت؟

نعم، لكنه مضى إلى الفراش.

من فضلكِ، أخبريه أن يأتي ليراني غدًا.

قال أبلوموف:

لا بدّ من أن أراه.

❊ ❊ ❊

(٩)

دخل أخ سيدة المنزل إلى غرفة أبلوموف بالطريقة نفسها سابقًا، وجلس على الكرسي، وأخفى بحذر يديه في كمّيه، وانتظر ما سيقوله أبلوموف.

قال أبلوموف:

لقد تسلمتُ رسالة غير سارَّة جدًا من الريف جوابًا على عقد إدارة الملكية الذي أرسلته هل تتذكره؟ هل تتفضل بقراءته؟

أخذ إيفان ماتيفييتش الرسالة الآتية من الريف وبدأت عيناه تتعقبان الأسطر بسرعة، بينما ارتجفت يداه قليلًا. وبعد أن قرأها، وضع الرسالة على المنضدة ويداه وراء ظهره.

سأل أبلوموف:

ماذا تقترح الإجراء الذي سأقوم به الآن؟

قال إيفان ماتيفيتش:

ينصحك جيرانك لتذهب هناك. حسنٌ، يا سيدي، إنَّ ألف ميل ليست بالمسافة الطويلة لمثل هذه الرحلة. في الأسبوع القادم سوف يجري تسوية كل الطرق من أجل التزلج، فأفضّل أن تذهب الآن.

أكره السفر تمامًا... لم أكن معتادًا عليه وأجده صعبًا وبالأخص خلال فصل الشتاء. أفضل أن لا أذهب. إضافة إلى أنه من المضجر أن تبقى في الريف لوحدك.

سأل إيفان ماتيفتيتش:

هل لديك العديد من الفلاحين الذين يدفعون ضريبة؟

حسنٌ، لا أعرف بالضبط. أنت ترى، مرّت مدة طويلة ولم أذهب إلى عزبتي.

يجب أن تعرف سيدي. وهل تستطيع أن تدبّر أمورك بشكل جيد بدون ذلك؟ فهذا الأمر مهمّ لكي تعرف مقدار دخلك.

كرّر أبلوموف:

نعم يجب عليّ ذلك وجاري أيضًا كتب هكذا، لكن لسوء الحظ حلّ الشتاء...

وما مقدار الوارد الذي تجلبه الضريبة؟

الضريبة؟ أعتقد لديّ ورقة هنا في مكان ما، كتبها لي شتولتس، لكني أخشى أن لا أجدها. لا بدّ من أنّ زاخار قد وضعها في مكان ما... سوف أطلعك عليها في وقت آخر... أعتقد أنها ثلاثون روبلًا للفلاح الواحد.

سأل إيفان ماتيفتش:

أي نوع من الفلاحين عندك؟ كيف يعيشون؟ كم عدد الذين يعملون معك؟

قال أبلوموف: «انظر هنا» ومشى إليه وأخذه بثقة من طية سترته. كرّر ببطء: «انظر هنا» وهمس تقريبًا: «لا أعرف أي شيء حول الفلاحين الذين كانوا يعملون لديّ؛ لا أعرف ما هو العمل الزراعي أو إن كان الفلاح غنيًا أم فقيرًا؛ لا أعرف ربع مساحة الجاودار أو الشوفان، أو مردودها في الأشهر المختلفة، أو كيف ومتى يجري حصد الحبوب وبيعها؛ لا أعرف إن كنت فقيرًا أو غنيًا، أو إن كان لديّ ما يكفي لآكله خلال السنة أو سأقوم بالتسول... لا أعرف أي شيء!

وختم كلامه باكتئاب وأطلق طية سترة إيفان ماتفيفتش:

لهذا السبب سأكون سعيدًا لو أنك تكلمت معي ونصحتني وكأني طفل...

قال إيفان ماتفيفتش بابتسامة مذعنة:

لكن بالطبع سيدي، يجب أن تعرف، وعكسه لن تكون قادرًا على فهم كل شيء.

ونهض ووضع يدًا وراء ظهره وأخرى داخل معطفه.

قال بشكل مهذّب:

مالك الأراضي يجب أن يعرف عزبته وكيف يديرها.

لكني لا أعرف. علِّمْني لو استطعت.

واصل كلامه:

أخشى أني لا أمتلك الخبرة في مثل هذه المسائل سيدي. سوف أستشير أولئك الذين لديهم خبرة. وهنا سيدي...

وأشار بأصبعه الوسطى، وظفره للأسفل، إلى صفحة الرسالة:

يخبرونك في الرسالة أن تُرشَّح للانتخابات. الفكرة سديدة كما تعرف! ستعيش هناك، وتخدم كقاضٍ في محكمة المقاطعة، وفي الوقت نفسه تتعلم كل شيء حول الزراعة.

قال أبلوموف مؤكدًا بصوت خافت:

لا أعرف ما هي محكمة المقاطعة، وماذا يفترض العمل فيها، وكيف يدار المكتب هناك.

ومشى ووقف مباشرة أمام أنف ماتفيفتش.

ستتعوّد عليها يا سيدي. ألم تكن موظفًا حكوميًا هنا؟ حسنٌ، العمل نفسه في كل مكان، على الرغم من أن الأساليب تختلف قليلًا. في كل مكان ثمة تعليمات ومذكّرات وسجلات... كن موظفًا جيدًا وستكون بقية الأمور سهلة. كل ما عليك فعله أن توقّع اسمك. إذا ما عرفت كيف تنجز الأمور في دائرة حكومية...

أعلن أبلوموف برتابة:

لا أعرف كيف تجري الأمور في دائرة حكومية.

ألقى إيفان ماتفيفتش نظرة غامضة على أبلوموف وسكت.

علّق بالابتسامة المتذللة نفسها:

أتوقع سيدي بأنك لم تفعل شيئًا سوى قراءة الكتب.

أجاب أبلوموف بقسوة وتوقّف فترة قصيرة:

الكتب!

ليس لديه الشجاعة الكافية ليعرّي نفسه أمام موظف حكومي من الدرجة الدنيا، إضافة إلى أنه ليست هناك حاجة لعمل ذلك.

فكرّ بصعوبة: «ليس لديّ أدنى فكرة عن الكتب أيضًا» لكنه لم يجبر نفسه على نطق الكلمات بل تحسّر بحزن فحسب.

أضاف إيفان ماتفيفتش بشكل متواضع كأنه يحزر جواب أبلوموف عن الكتب:

لكن ألم تمارس عملًا سيدي؟ من المستحيل أن...

من الممكن سيدي، وأنا دليل حي عليه. منْ أنا؟ وماذا أكون؟ اذهب واسأل زاخار، سوف يخبرك بأني «رجل نبيل». نعم، أنا رجل نبيل، ولا أستطيع أن أمارس عملًا! أرجوك افعله من أجلي، إذا كنت تعرف كيف، وساعدني لو استطعت. واطلب ما تريد لقاء أتعابك. تلك هي فائدة المعرفة!

بدأ يخطو في الغرفة، بينما ظلّ إيفان ماتفيفتش واقفًا حيثما كان، واستدار بجسده قليلًا نحو أبلوموف. كانا كلاهما يلفّهما الصمت بعض الوقت.

سأل أبلوموف ووقف أمامه مرة أخرى:

أين درستْ؟

دخلت مدرسة ثانوية، لكن أبي جعلني أغادرها من الصف الخامس وعثر لي على عمل في دائرة حكومية. أخشى أن تعليمي كان قليلًا. قراءة وكتابة وقواعد ورياضيات لم أتجاوز ذلك. تعودت على عملي تقريبًا، ونجحت في التغلب على المشقات. لكن حالك يختلف سيدي. أنت رجل مثقف حقًا.

أكدّ أبلوموف متحسرًا:

أجل، أفترض ذلك. صحيح أني درست الرياضيات والاقتصاد السياسي والقانون، لكني لم أمتلك براعة العمل رغم ذلك. كما ترى، مع أني تعلمت الرياضيات لكني لا أستطيع أن أحسب دخلي. رجعت إلى الريف وبذلت ما بوسعي لاكتشف كيف جرت الأمور هناك، أعني، في بيتنا، في عزبتنا وفي الجوار. حسنٌ، ما تعلمته لم يكن حسب القوانين مطلقا. أتيت هنا، مفكرًا بالحصول على مهنة بمساعدة الاقتصاد السياسي. وقد قيل لي بأن تعليمي سوف يفيدني لاحقا، ربما في شيخوختي، لكن يجب أولًا أن أحصل على رتبة عالية في التوظيف الحكومي ولكي أحصل على ذلك أحتاج إلى شيء واحد هو نسخ الوثائق. لكني لم أكيّف نفسي مع هذا النوع من العمل وأصبحت مجرد رجل نبيل، بينما كيّفت نفسك عليه. ذلك هو السبب في رغبتي بأن تخبرني عن حلّ لمشكلتي.

قال إيفان ماتفيفتش أخيرًا:

أستطيع أن أجد حلًا سيدي.

توقف أبلوموف أمامه منتظرًا أن يسمع منه ما يقول.
أضاف إيفان ماتفيفتش:
بإمكانك أن تسند الأمر إلى خبير وتنقل عقد إدارة الملكية إليه.
سأل أبلوموف:
لكن من أين نحصل على مثل هذا الرجل؟
هناك زميل لي هو أساي فوميتش زاتيورتي، يتلعثم في الكلام قليلًا، لكنه خبير وأشبه برجل أعمال. كان مدير عزبة كبيرة لمدة ثلاث سنوات، لكن المالك طرده بسبب تلعثمه. لذلك حصل على عمل في دائرتي.
لكن هل يعتمد عليه؟
لا تقلقْ، إنه نزيه جدًا! فهو يصرف من ماله الخاص ليدخل السرور في قلب الإنسان الذي يثق به. ظلّ في دائرتنا لمدة اثنتي عشرة سنة.
كيف يمكن أن يذهب إلى الريف إذا كان يعمل في دائرتكم؟
ذلك لا يهم. يمكن أن يأخذ إجازة لمدة أربعة أشهر. إذا ما عزمت فسوف أجلبه هنا. وهل يذهب إلى هناك مقابل لاشيء؟
وافقه أبلوموف:
طبعًا لا.
سوف تدفع تكاليف سفره ومعيشته وحين ينتهي من العمل ترتب له مبلغًا معينًا. لا تقلق سوف يذهب!
قال أبلوموف وقدّم يده:
شكرًا جزيلًا. لقد رفعت ثقلًا كبيرًا من عقلي. ما اسمه؟
ردّ إيفان ماتفيفتش بسرعة:
أساي فوميتش زاتيورتي ومسح يده على طرفه كمّه الآخر، وأخذ بيد أبلوموف للحظة، وأخفاها فورًا في كمّه ثانيةً.
سوف أتكلم معه غدًا سيدي، وأجلبه معي.
قال أبلوموف:

أجل، تعالا إلى الغداء وسوف نتحدث عن الأمر. شكرًا جزيلًا.

ورافق إيفان ماتفيفتش إلى الباب.

❋ ❋ ❋

(10)

في مساء اليوم نفسه، كان إيفان ماتفيفتش وتارانتييف يجلسان في إحدى غرف الطابق العلوي لبيت من طابقين، يطلُّ من إحدى جهاته على الشارع حيث يسكن أبلوموف، ومن الجهة الأخرى يواجه رصيف الميناء. إنه يسمى «حانة» كانت تقف دائمًا أمامها ثلاث مركبات فارغة تنتظر عند الباب الأمامي، بينما يقف سائقوها على الأرضية الترابية يرتشفون الشاي من أطباقهم. كان الطابق العلوي محجوزًا للرجال النبلاء من فايبورغ.

أكواب الشاي وقنينة من مشروب الروم انتصبت على منضدة أمام إيفان ماتفيفتش وتارانتييف.

قال إيفان ماتفيفتش:

مشروب جامايكي أصلي. خذ لك رشفة يا صاحبي.

وصب لهُ كأسًا بيد مرتجفة.

أجاب تارانتييف بسرعة:

يجب أن تعترف به. أنت مدين لي بهذه الدعوة. لن تحصل على هكذا مستأجر إذا ما انتظرت حتى يتعفن البيت.

قاطعهُ إيفان ماتفيفتش:

صحيح تمامًا. وإذا ما نجحت مهمتنا وذهب زاتيورتي إلى الريف سوف تحصل على عمولتك.

قال تارانتييف:

أخشى يا صديقي، أنك بخيل جدًا. على المرء أن يعقد صفقة معك. خمسون روبلًا لمثل هذا الساكن!

علّق إيفان ماتفيفتش:

أخشى أنه يغادر إنه يهدد بذلك.

لا تتكلم بمثل هذا الهراء رجل ذو خبرة مثلك أيضًا! أين سيذهب؟ لن يغادر حتى ولو بالقوة الآن.

والزفاف؟ سمعتُ أنه سيتزوّج.
وانخرط تارانتييف في الضحك.
أجاب:
يتزوّج! هل تراهن على أنه لن يتزوج؟ إنه لا يقدر على الذهاب إلى الفراش دون مساعدة زاخار، وأنت تقول إنه سيتزوج! حتى الآن قدمتُ له يد العون؛ ولولاي يا صاحبي لهلك من الجوع أو أودع السجن.
إذا ما ناداه مفتش الشرطة أو سأله مالك أراض شيئًا ما فإنه لا يعرف ماذا يفعل كان عليّ أن أفعل كل شيء له! إنه لا يفهم شيئًا!
أنت على حق. أخبرني إنه لم يعرف ماذا يفعلون في محكمة المقاطعة أو في الدائرة الحكومية. ليس لديه فكرة عن الفلاحين الذين يعملون لديه. يا له من أحمق!
لقد انفجرتُ من الضحك تقريبًا.
قال تارانتييف متباهيًا:
والعقد الذي أبرمناه! إنك أستاذ ماهر في نسخ الوثائق يا صديقي، أوافقك على ذلك! إنك تذكرني بأبي. لم أكن سيئًا فيها أيضًا، لكني أخشى أن أفقد البراعة...
نعم، لقد فقدت البراعة! فما إن أجلس على المنضدة حتى تبتل عيناي بالدموع. إنه لم ينزعج من قراءتها، فقط وقّعها! الحظائر، الإسطبلات، الحدائق وكل شيء!
نعم يا صديقي، ما دام هناك حمقى في روسيا يوقّعون الأوراق دون عناء قراءتها، فناس مثلنا يمكنهم أن يفوزوا بالعيش. لكن لكون هذه الحياة شاقة فإن الأمور أصبحت أشد سوءًا! في الأيام الغابرة كانت مختلفة. كم مجموع النقود التي حصلت عليها بعد خمسٍ وعشرين سنة من الخدمة في الوظيفة؟ يكفي أن أعيش في فايبورغ لا في مكان آخر فيها وفرة الأكل، ولا يمكن أن أتشكى! لكني خائف، شقة في ليتيني، سجّاد، زوجة ثرية، وأطفال ينتمون إلى أفضل البيوت ذلك حلم الماضي! فقد أخبروني إني لا أملك الوجه المناسب، وأصابعي حمراء ويقولون لماذا أشرب؟ وكيف لا أمنع نفسي من الشرب؟ حياتي أسوأ من حياة خادم، آه، الخادم اليوم لا يلبس مثل جزمتي، ويغيّر قميصه كل يوم، المشكلة أني لم أحصل على

التعليم الصحيح الناس الأصغر تقدموني بأميال: متباهون، يقرؤون، ويتكلمون الفرنسية...
أضاف تارانتييف:
وليس لديهم فكرة عن الشؤون العملية.
أنت مخطئ في ذلك يا صديقي: لديهم لكنها مختلفة الآن. الكل يريد أن تكون الأمور بسيطة ما أمكن والكل يبذل ما بوسعه كي يزلّنا. ليست هذه هي الطريقة الصحيحة في الكتابة، ذلك أمر غير ضروري تمامًا، وضياع للوقت تستطيع أن تنجزها بسرعة دائمًا يضعون العراقيل لنا.
قال تارانتييف:
لكن العقد قد تم توقيعه: هل كانوا يعرقلوننا هناك؟
بالطبع ذلك شيء مقدس لنا. فلنشرب يا صاحبي. سوف يرسل زاتيورتي إلى أبلوموفكا، وسوف يمتصه هذا الأخير: دع ورثته يحصلون على كلّ ما تخلف...
علّق تارانتييف:
دعهم، مع أنه لا يوجد له ورثة حقيقيون: فهم أقارب من الدرجة الثالثة، وبعض الأقارب الأبعدين.
قال إيفان ماتفيفتش:
أنا خائف من عرسه!
لا تخفْ. تذكر كلماتي.
أجاب إيفان ماتفيفتش بمرح:
كلا؟
أضاف هامسًا:
إنه ينظر بِوَلَهٍ إلى أختي.
قال تارانتييف بدهشة:
حقًا؟
لا تبح بهذا السر لأي مخلوق! إني أعرف عمّ أتكلم.

قال تارانتييف ولم يستطع أن يشفى من دهشته إلا بصعوبة:

حسن صديقي، لم يخطر ذلك ببالي أبدا! وما رأيها؟

قال وضرب بقبضته على المنضدة:

ما رأيها؟ ألا تعرفها؟ وهل أستطيع التنبؤ باهتماماتها؟ إنها بقرة، بقرة لعينة. سواء ضربتها أو عانقتها فهي تواصل التكشير مثل فرس تعلف من كيس الشوفان. امرأة في مكانها سوف أوه، حسنٌ! لكني سوف أراقبهما، وعدًا مني هل تدرك ما أعنيه؟

❋ ❋ ❋

(11)

فكّر أبلوموف بينما يرتقي السلّم إلى شقة آل إلينسكي: «أربعة أشهر! أربعة أشهر أخرى من الكبت، واللقاءات السرّية، والوجوه المرتابة، والابتسامات! يا إلهي، متى ينتهي ذلك؟ وأنا متأكد من أن أولغا ستحثني على الإسراع: اليوم، غدًا. أنها مستعجلة وعنيدة جدًا! من الصعب إقناعها...» وصل أبلوموف إلى غرفة أولغا دون أن يصادف أي شخص. كانت أولغا تجلس في غرفتها الصغيرة، المجاورة لغرفة نومها، مستغرقة في قراءة كتاب. ظهر أمامها فجأة بحيث جفلت، ثم مدّت يدها بلطف وابتسمت، لكن عينيها ظلتا تقرأان الكتاب؛ بدت شاردة الذهن.

سأل:

هل أنتِ وحيدة؟

أضافت وابتسمت:

نعم. عمتي ذهبت إلى تساريكوي سيلو. أرادت مني أن أذهب معها. سنكون بوحدنا في الغداء. ماريا سيميونوفنا ستأتي فقط؛ فلولاها لا أقدر على استقبالك. لا تستطيع أن تتكلم مع عمتي اليوم. يا له من ضجر شديد! لكن غدًا...

سألت مداعبة:

وماذا لو أني ذهبت إلى تساريكوي سيلو اليوم؟

لم يحر جوابًا.

سألت:

هل أنت قلق؟

قال بحزن:

جاءتني رسالة من الريف.

أين هي؟ هل جلبتها معك؟

أعطاها الرسالة.

قالت وألقت نظرة عليها:

لا أستطيع أن أقرأ خطّها.

أخذ الرسالة منها وبدأ يقرأ بصوت مسموع. فاستغرقت في التفكير.
قالت بعد توقف:
الآن ما العمل؟
أجاب أبلوموف:
استشرتُ أخ سيدة المنزل الذي أسكن فيه ونصحني بوكيل اسمه أساي فوميتش زاتيورتي: سوف أعطيه التعليمات الضرورية ليحسم كل شيء.
اعترضت أولغا مندهشة:
شخص غريب تمامًا! يجمع الضرائب، وينظر في شؤون الفلاحين ويرى مبيعات الحبوب...
أخبرني أن زاتيورتي في منتهى النزاهة، لقد عمل معه في الدائرة لمدة اثنتي عشرة سنة... لكن عيبه الوحيد هو تلعثمهُ...
وأخ صاحبة المنزل؟ هل تعرفهُ؟
كلا، لكنه يبدو عملياُ جدًا أشبه برجل أعمال. إضافة إلى أنني أعيش في منزله سيشعر بالخجل لو أنه خدعني!
لم تقل أولغا شيئًا وجلست وعيناها مركزتان على الأرض.
قال أبلوموف:
أنت ترين بأنني يجب أن أذهب بنفسي هناك مع أنني لا أرغب بذلك، لأني كرهت السفر وبالأخص في الشتاء في الحقيقة إني لم أسافر سابقًا.
مازالت تنظر للأسفل وتضرب الأرض بطرف حذائها.
تابع أبلوموف:
حتى لو ذهبت لن أحصل على أية نتيجة لأني لن أحصل على ما أريد. سوف يخدعنني الفلاحون، وسوف يقول الوكيل ما يسرّه وسأصدقهُ، وسوف يمنح الكثير من المال كما يود.
وأضاف بحزن:
أوه، ليت أندريه هنا: لكان حسم كل شيء!

ابتسمت أولغا لكن بشفتيها فحسب وليس من قلبها الذي أحسّ بالمرارة. بدأت تنظر عبر النافذة، وضيقت عينها قليلًا وراقبت كل عربة مارّة.
واصل كلامه:
يبدو أنّ زاتيورتي كان يدير عزبة كبيرة سابقًا، وقد صرفهُ مالكها لا سبب سوى تلعثمه. سوف أعطيه عقد إدارة عزبتي والمخططات: سوف يرتّب بيع المواد لأجل بناء البيت، ويجمع الضرائب من الفلاحين، ويبيع الحبوب، ويجلب المال، ثمّ...
واصل كلامه وقبّل يديها:
آه، عزيزتي أولغا، أنا في غاية السرور لأني لم أفارقك! لا أتحمل فراقك. البقاء في الريف دونك، آه، سيكون أمرًا موحشًا! لكن يجب أن نكون الآن حذرين جدًا.
نظرت إليه بعينين مفتوحتين باتساع وانتظرت.
بدأ يتكلم ببطء وكان متلعثمًا تقريبًا:
نعم. يجب أن لا يرى أحدنا الآخر كثيرًا. أمس بدؤوا ثانيةً يتكلمون عنا في بيت سيدة المنزل وأنا لا أريد ذلك. حالما يتم حسم كل شيء ويكمل وكيلي البناء ويأتي بالنقود أعني، كل شيء سينتهي في غضون سنة، ولن نفترق بعد ذلك، وسوف نخبر عمتك، و... و... و...
تطلّع إلى أولغا: كانت فاقدة الوعي. رأسها منحن جانبًا وأسنانها برزت من بين شفتيها اللتين أصبحتا زرقاوين. لم يلاحظ، بينما كان منغمرًا في أحلامه عن سعادة المستقبل، بأنه حين كان ينطق الكلمات: «حالما يحسم كل شيء ويتدبر وكيلي...» كانت أولغا قد تحولت شاحبة ولم تسمع نهاية الجملة.
قال وقرع الجرس:
أولغا! يا إلهي، لقد أغمي عليها.
قال لكاتيا حين هرعت إلى الغرفة:
سيدتك أغمي عليها. اجلبي الماء بسرعة! وأملاح النشادر!

همست بعد أن جلبت ملح النشادر من منضدة العمّة وصبّت على أولغا كأسًا من الماء.
عادت أولغا إلى وعيها ونهضت بمساعدة من كاتيا وأبلوموف ومشت متمايلة إلى غرفة نومها.
قالت بوهن:
ستمر بسلام. أعصابي مرهقة. نمت نومًا مزعجًا الليلة الماضية. سأخرج لأتعافى الآن وأعود.
ظلّ أبلوموف لوحده ووضع أذنه على الباب، محاولًا أن ينظر عبر فتحة الباب، لكنه لم يسمع أو يرى شيئًا. بعد نصف ساعة مشى عبر الممر إلى غرفة الخادمة وسأل كاتيا كيف حال سيدتها.
قالت كاتيا:
إنها على ما يرام. استلقت وأمرتني بالخروج. عدتُ إليها لاحقًا ووجدتها تجلس على الكرسي.
عاد أبلوموف إلى غرفة الجلوس، ونظر عبر فتحة باب غرفة النوم مرة أخرى، لكنه لم يسمع شيئًا. دقّ على الباب بأصبعه فلم يكن ثمة جواب. جلس وتأمّل. فكرّ كثيرًا في ذلك لمدة ساعة ونصف، كانت ثمة العديد من التغييرات في أفكاره، واتخذ عدة قرارات. وأخيرًا عزم على الذهاب إلى الريف مع وكيله، لكن يجب عليه أولًا أن يحصل على موافقة عمّة أولغا على إعلان خطبتهما، ويسأل إيفان غيراسيموفيتش لكي يعثر على شقة ويستدين بعض المال أيضًا لكي يغطي تكاليف الزفاف.
هذا القرض يمكن دفعه من وارد بيع الحبوب. إذن لماذا هو مكتئب جدًا؟ يا إلهي، كم تتغيّر الأمور خلال لحظة! في الريف سوف يقوم هو ووكيله بكل الترتيبات لجمع الضرائب، ويمكن أيضًا أن يكتب إلى شتولتس الذي سوف يعطيه مالًا دينًا ثم يأتي ويجعل من كل شيء في أبلوموفكا منظمًا، ويشق الطرق ويبني الجسور ويفتح مدرسة... وسيكون هناك مع أولغا! يا إلهي، تلك هي السعادة! كيف لم

يفكّر بها من قبل؟ شعر فجأةً بالسرور والمرح؛ وبدأ يخطو في الغرفة ويقرقع بأصابعه ويهتف من الفرحة. واقترب من باب أولغا ونادى عليها بصوت بهيج:
صاح ووضع شفتيه على فتحة مفتاح الباب:
أولغا، أولغا! لديّ شيء أخبرك به! أنا متأكد أنكِ تعرفين ما هو!
حتى أنه قرّر أن لا يغادرها ذلك اليوم، حتى بعد أن تعود عمتها. «سوف نخبرها اليوم وسوف أذهب إلى البيت كوني خطيب أولغا».
فُتحَ الباب بهدوء وظهرت أولغا: نظر إليها وغاص قلبه فجأةً. اختفت فرحته: بدت أولغا كبيرة السن. كانت شاحبة، لكن عينيها تلمعان؛ كانت تختفي في شفتيها المضمومتين كليًا حياة داخلية مكثفة، وفي كل ملامح وجهها حياة مقيدة قسرًا بهدوئها وسكونها المفروضين عليها. قرأ في عينيها قرارًا، لكن ما نوع القرار الذي لا يمكنه الإفصاح عنه الآن، على الرغم من أنّ قلبهُ دقّ بشدة كما لم يدق من قبل. مثل هذه اللحظات لم يجربها في حياته سابقًا.
قال:
اسمعي يا أولغا. من فضلك لا تنظري إليّ هكذا أنتِ تخيفينني!
وواصل كلامه وخفض صوتهُ تدريجيًا، متوقفًا ومحاولًا أن يفهم معنى التعبير الجديد لعينيه، وشفتيه وحاجبيه البليغين:
لقد غيّرت رأيي، عليّ أن أرتب الأمور كلها بطريقة مختلفة تمامًا.
وأنهى كلامه بصوت لا يكاد يُسمع:
قررتُ أن أذهب إلى الريف بنفسي مع وكيلي، لكي أستطيع...
كانت صامتة، تنظر إليه باهتمام، مثل طيف. خمّن بشكل غامض الحكم الذي ينتظرهُ، والتقط قبعته لكنه تردّد عن السؤال: كان خائفًا من القرار المهلك الذي قد لا يكون ثمة استئناف ضده. وأخيرًا تغلّب على نفسه.
سألها بصوت متغير:
هل فهمتكِ على نحوٍ قويم؟

أحنت رأسها ببطء ورقّة دليلا على الموافقة. على الرغم من أنها خمّنت أفكاره مسبقًا، إلا أنها أصبح شاحبة وظلّت واقفة أمامه. كانت واهنة قليلًا، لكنها بدت هادئة وساكنة مثل تمثال من الحجر. إنه الهدوء غير العادي الذي يسيطر على المرء تمامًا حين يمنحه هدفٌ مركّز أو شعورٌ بالألم قوة ما، لكن للحظة واحدة فقط.
كانت مثل رجل جريح يضع يده على جراحه لكي يستطيع أن يقول كل ما عنده قبل أن يموت.
سأل:
هل تكرهينني؟
قالت بوهن:
لماذا؟
بسبب كل شيء فعلته لك.
ماذا فعلت؟
أحببتكِ: تلك إهانة!
ابتسمت ابتسمت مشفقة عليه.
قال منكسًا رأسه:
بسبب ارتكابك خطأ. ربما سوف تغفرين لي إذا ما ذكّرتك بأني حذرتك كيف ستخجلين وتندمين على ذلك...
قالت وتوقفت فترة لتلتقط أنفاسها:
أنا غير نادمة. أحسُّ بأني في منتهى البؤس.
أجاب أبلوموف:
أشعر بالسوء. لكني أستحق ذلك. لماذا أجعلكِ تتعذبين؟
قالت:
بسبب كبريائي. لقد تمت معاقبتي، بعد أن اعتمدتُ نهائيًا على قواي الخاصة ذلك الخطأ الذي ارتكبتهُ، لا الذي كنت تخشاه. لم أحلم بالصبا والجمال؛ فكّرتُ

بأني سوف أعود بك إلى الحياة، وإنك قد تعيش من أجلي بينما أنت متَّ منذ أمدٍ طويل.

ختمت حديثها وتنهدت وبالكاد كانت قادرة على الكلام:

لم أتوقع إني على خطأ، لكني بقيت انتظر يحدونني الأمل وهذا ما آلت إليه الأمور الآن!

صمتت ثم جلست.

ثم استمّرت بالتحدث بصوتٍ واهن:

لا أستطيع أن أقف: ساقاي ترتجفان. سينطق الحجر مما فعلته. الآن لن أفعل أي شيء، ولن أذهب إلى أي مكان، حتى إلى الحدائق الصيفية: لا فائدة أنتَ ميّت!

وأضافت بعد فترة توقف:

هل توافقني على ذلك يا إيليا؟ حتى أنك لم توجه لي اللوم بسبب هجري لك بسبب الكبرياء أو النزوة، أليس كذلك؟

هزّ رأسه نافيًا.

هل أنت مقتنع بأن لا شيء بقي لنا لا أمل مطلقًا؟

قال:

نعم. ذلك صحيح.

وأضاف مترددًا:

ربما في غضون سنة...

لم تكن لديه الرغبة لكي يوجّه الضربة القاصمة إلى سعادته.

سألت:

هل تعتقد حقًا بأنك في غضون سنة سوف ترتّب شؤون حياتك؟ فكّر!

تنهّد واستغرق في التأمّل وعاش صراعًا مع نفسه قرأته في وجهه.

قالت:

استمعْ. لقد نظرت إلى صورة أمي الشخصية وأعتقد أني حصلت على النصيحة والقوة من عينيها. ليتك تظهر الآن مثل رجل جدير بالاحترام... تذكّر، يا إيليا،

إننا لسنا أطفالًا ولا نمزح: إنها مسألة تتعلق بحياتنا كلها! اسأل ضميرك وقل لي سوف أصدّقك، فأنا أعرفك: هل أنت قادر على الاحتفاظ بها طيلة حياتك؟ هل تكون بالنسبة لي كما أريدك أن تكون؟ أنت تعرفني، ولذا تفهم ما أريد قوله. إذا ما قلت بصراحة وتأنٍّ: «نعم» فإن أتراجع عن قراري: هاك يدي، دعنا نذهب أينما تشاء إلى الخارج، إلى الريف، حتى إلى فايبورغ!

لم يقل شيئًا.

لو تعلمين كم أحبّك...

قاطعته بطريقة جافة تقريبًا:

ما أريدهُ ليس توكيدات في الحب بل جواب مختصر.

توسّل إليها كسير القلب:

لا تعذبيني يا أولغا!

حسنٌ يا إيليا، هل أنا على حق أم لا؟

قال بشكل غريزي وحاسم:

نعم. إنكِ على حق.

قررت:

في هذه الحالة، من الأفضل أن نفترق قبل أن يكتشفونا هنا ويروا كم أنا مستاءة.

لكنه ظلّ في مكانه.

سألت:

حتى لو تزوجنا فماذا يحصل بعد ذلك؟

لم يحر جوابًا.

«هل ستغط أعمق فأعمق في النوم يوميًا؟ وأنا؟ ألا ترى أي نوع من النساء أنا؟ لن أكبر أو أتعب من الحياة. ويتطلب العيش معك يوميًا، انتظار عيد الميلاد، ثم الصوم الكبير والذهاب للزيارة والرقص وعدم التفكير بأي شيء. سنذهب إلى الفراش ونشكر اللهّ على اليوم الذي مضى سريعًا، وسنستيقظ في الصباح متمنين أن يكون اليوم مثل الأمس. أهذا هو مستقبلنا؟ هل هذه حياة؟ سوف أذبل

وأموت... من أجل ماذا يا إيليا؟ هل ستكون سعيدًا؟» ألقى نظرة أليمة على السقف وأراد أن يتحرك، ليهرب، لكن ساقيه خانتاه. أراد أن يقول شيئًا كان حلقه جافًا، ولسانه لم يتحرك، وانقطع صوته. مدّ يدهُ إليها.

بدأ بصوت خافت:

إذن...

لكنه انعقد لسانه وأنهى جملته كأنما من خلال عينيه:

وداعًا!

أرادت أيضا أن تقول شيئًا، لكنها لم تستطع؛ مدّت يدها، لكن اليد هبطت قبل أن تلمسه. أرادت أن تقول أيضا «وداعا» لكن صوتها خانها في وسط الكلمة وضعَفَ بنغمة متصنّعة. تشنّج وجهها، وضعت يدها ورأسها على كتفه وانخرطت في النحيب. كانت المرأة الذكية قد رحلت وحلت محلها تمامًا امرأة عاجزة أمام المحنة.

وداعًا، وداعًا وهربت الكلمات من بين دموعها.

كان صامتًا، يصغي برعب لها وهي تبكي ولم يجرؤ على مقاطعتها. لم يشعر بأي أسف تجاهها أو تجاه نفسه؛ كان محطمًا بنفسه؛ غاصت في الكرسي، ضغطت منديلها على وجهها، واستندت على المنضدة ثم بكت بكاءً مريرًا. جرت دموعها لا بتيار حار لا يقاوم أطلقه الألم المفاجئ المؤقت، كما حصل في الحديقة أثناء الصيف، بل جرى ببرود ولا مبالاة، مثل مطر الخريف الذي يسقي المروج بلا رحمة.

قال أخيرًا:

أولغا، لماذا تعذبين نفسك؟ أنت تحبينني، ولن تكوني قادرة على تحمل الفراق! اقبلي بي كما أنا، أحبّي كل ما هو جيّد في خصالي.

هزّت رأسها رافضة دون أن ترفعه.

بذلت جهدًا لكي تتكلم:

كلا، كلا، لا تخف مني ومن مصيبتي. أنا أعرف نفسي: سوف أسرّي عنها بالبكاء ثم أكفّ عنه. والآن، لا تقاطع دموعي ابتعدْ... كلا، انتظر أرجوك! الربّ يعاقبني!
آه، ألم هنا، ألم فظيع هنا قرب قلبي...
وعادت تنتحب من جديد.
قال:
وماذا لو لم يتوقف الألم، وتفاقمت صحتك؟ فإنّ مثل هذه الدموع مميتة. أولغا، حبيبتي، لا تبكي انسي كل شيء...
قالت بصعوبة:
كلا، دعني أبكي! أنا لا أبكي على المستقبل، بل على الماضي. «الذي ذبل وتلاشى»... ليست أنا التي تبكي بل ذكرياتي! هل تذكر الصيف والحديقة؟ أنا حزينة لما حدث بيننا في الشارع المشجّر حول غصن الليلك... لقد نبتَ في قلبي: إنه يؤلمني بحيث لا أستطيع اقتلاعه!
هزّت رأسها بيأس وانتحبت، ثم ردّدت:
كم يؤلمني كم يؤلمني ذلك!
صاح فجأة برعب:
ماذا لو هلكتِ. فكّري يا أولغا.
قاطعتهُ ورفعت رأسها محاولة أن تنظر إليه من خلال دموعها:
كلا، لقد أدركتُ مؤخرًا فقط بأني أحببتُ فيكَ ما أرغب به وما دلّني عليه شتولتس، وما اخترعناه كلانا. أحببتُ أبلوموف الذي كان! إنك رقيق ونزيه إنك وديع مثل حمامة؛ تخفي رأسك تحت جناحك ولا تريد أكثر من ذلك؛ أنت مستعد أن تمضي حياتك كلها وأنت تهدل تحت السطح... حسنٌ، أنا أختلف عن ذلك؛ ذلك لا يكفيني. أريد شيئًا آخر، لكن ما هو؟ لا أعلم! لا تستطيع أن تخبرني وتعلمني ما أريد، أعطني إياه كله لكي... أما بالنسبة للرقة فتستطيع أن تعثر عليها في أي مكان!

ارتخت ساقا أبلوموف؛ جلس في الكرسي ومسح يديه وجبينه بمنديله. كان كلامها قاسيًا، فشعر بألم شديد: يحرقهُ من الداخل أما من الخارج فيبدو مثل هواء جليدي. ابتسم بحزن وألم وخجل في الرد، مثل متسّول يوجه اللوم إليه بسبب عريه. جلس هناك بابتسامة يائسة، ضعيفًا بسبب الهياج والاستياء؛ نطقت عيناه بوضوح وقد خبا الضوء فيهما:

نعم أنا فقير، مسكين، دنيء اضربيني، اضربيني!

أدركت أولغا فجأةً كم كانت كلماتها خشنة؛ اندفعت نحوه بقوة.

قالت برقّة واختلج صوتها بالدموع:

اغفر لي يا صديقي! لا أعرف ماذا أقول. أنا مجنون! انسَ كل شيء. دعنا نعود كما كنا من قبل. دع كل شيء يبقى كما كان...

قال:

كلا.

ونهض فجأة رافضًا عرضها المتهور بإيماءة حازمة.

وأضاف واهن العزيمة:

لا يمكن أن تبقى الأمور كما كانت! لا تكوني ساخطة لأنكِ قلتِ الحقيقة: إنا أستحقُّ ذلك.

قالت:

أنا حالمة كثيرة الرؤى! أني شخصية مريعة.

بكت قائلة:

لماذا النساء الأخريات، وبالأخص سونيا، سعيدات؟

قالت وعزمت على أن تبرم منديلها المبلّل مرة أخرى:

لا أستطيع تحمّل الأمر. فالماضي عزيز عليّ.

بدأت تدفن وجهها في منديلها، محاولة أن تحبس دموعها.

سألتْ فجأة ورفعت رأسها:

لماذا تحطّمَ كل شيء؟ من صبَّ اللعنة عليك يا إيليا؟ ماذا فعلتَ؟ إنك طيب، وذكي، ورقيق وجدير بالاحترام و على وشك أن تتحطم! ما الذي حطمّك؟ لا اسم لذلك الشرّ...

قال بهمس لا يكاد يسمع:

بل هناك اسم له!

نظرت إليه بتساؤل وعيناها تفيضان بالدمع.

همس:

الأبلوموفية!

ثم أخذ يدها وأراد أن يقبّلها لكنه لم يستطع؛ ضغطها بشدة على شفتيه فحسب، وجرت دموع ساخنة على أصابعها.

استدار دون أن يرفع رأسه أو يريها وجهه ثم سار خارج الغرفة.

***

اللهّ وحده يعلم أين هام على وجهه وماذا فعل طوال اليوم، لكنه رجع إلى البيت متأخرًا في الليل. كانت سيدة المنزل أول ما سمعتهُ وهو يطرق البوابة فأيقظت أنيسيا وزاخار وأخبرتهما بأن سيدهما قد عاد.

لاحظ زاخار بصعوبة كيف أن زاخار نزع عنه ملابسه وخلع جزمته ووضع مبذله على كتفيه!

سأل ونظر فحسب إلى المبذل:

ما هذا؟

قال زاخار:

لقد جلبتهُ سيدة المنزل اليوم سيدي. لقد غسلت ورتقت مبذلك.

بقي أبلوموف جالسًا في كرسيّه. كل شيء حوله غارق في النوم والظلام. جلس مستندًا على يده دون أن يلاحظ الظلام أو أن يسمع دقات الساعة. كانت تغمر عقله فوضى من الأفكار الغامضة البشعة؛ وهي تندفع مثل السحب في السماء، دون هدف أو ارتباط دون أن يمسك بأي منها.

كان قلبه ميتًا: توقفت الحياة هناك لفترة من الزمن. أما العودة إلى الحياة والجريان المنتظم للقوى النشطة المتجمعة التي كبحها، فقد حدثت بشكل بطيء.

كان الضغط شديدًا جدًا، ولم يكن أبلوموف يشعر بجسده، ولا بالإرهاق أو بأية حاجة أخرى. كان يمكن أن يستلقي مثل الحجر طوال النهار والليل، أو يمشي أو يركب العربة أو يتحرك مثل الآلة. يصبح الإنسان مستسلمًا لقدره ببطء وألم، إذ تستعيد حالة جسمه تدريجيًا كل وظائفها العادية، أو أن تسحقه الكارثة فلا يستطيع أن ينهض بعدها وكل ذلك يعتمد على شدة الكارثة وعلى الإنسان نفسه.

لم يتذكر أبلوموف أين كان يجلس أو إن كان يجلس مطلقا: راقبَ طلوع النهار آليا ودون أن يكون واعيا به؛ لم يستطع أن يقول إن كان سمع سعال العجوز الجاف أو تقطيع الحارس للخشب في الفناء أو الضجة والصخب في البيت؛ رأى ومع ذلك لم يظهر أنه يلاحظ سيدة المنزل وأكولينا وهما ذاهبتان إلى السوق وأخ السيدة وهو

ينطلق كالسهم عبر السياج حاملًا رزمته الورقية. لم تستطع الديكة ولا نباح الكلاب ولا صرير البوابة أن تخرجه من ذهوله. قرقعت الأكواب وهسهس السماور.

وأخيرًا، بعد الساعة التاسعة، فتح زاخار الباب بالصينية، وركل الباب كالعادة لكي يغلقه، وكالعادة أخطأهُ مبقيًا الصينية سليمة، مع ذلك... لقد أصبح خبيرًا بذلك من الممارسة الطويلة إضافة إلى أنه عرف بأن أنيسيا كانت تراقبه من وراء الباب وإنه لو أسقط شيئًا لهرعت فورًا والتقطتهُ فيشعر بالخجل. انضغطت لحيته داخل الصينية التي كان يحتضنها بقوة، وصل إلى السرير بسلام وكان على وشك أن يضع الأكواب على المنضدة ويوقظ سيده، حين لاحظ بأن السرير كان فارغًا وأن سيده لم يكن فيه! جفل وسقط كوبٌ على الأرضية، تبعهُ وعاء السكّر.

حاول أن يمسكهما في الهواء، إلا أن الصينية تمايلت، وسقطت بقية الأشياء أيضًا. نجح في إبقاء ملعقة واحدة على الصينية.

قال مراقبًا أنيسيا وهي تلتقط قطع السكّر وقطع الكوب المكسور والخبز:

لمَ كل ذلك؟ أين السيّد؟

كان السيّد يجلس على الكرسي، وهو يبدو عليلًا جدا. نظر زاخار إليه فاغر الفم. سأل:

لماذا جلست على الكرسي طوال الليل سيدي بدلًا من أن تذهب إلى الفراش؟

دار أبلوموف ببطء رأسه ونظر بشرود إلى زاخار، وعلى القهوة المراقة، والسكر المنتثر على السجادة.

قال ومشى إلى النافذة:

ولماذا كسرت الكوب؟

كانت ندف الثلج تسقط بشدة، وقد اكتست الأرض بقطع الجليد الكبيرة بكثافة.

ظلّ يكرّر بلاوعي:

ثلج! ثلج! ثلج!

وراح ينظر إلى الثلج الذي كسا بطبقة كثيفة سكك الحديد وسياج الأشجار المضفورة وبستان الخضروات.

همس بيأس:

لقد غطى كل شيء!

واستلقى على الفراش وغاص في نوم ثقيل قلق.

كانت الساعة تجاوزت منتصف النهار حين أيقظهُ صرير باب سيدة المنزل: ذراع عارية امتدت عبر الباب تحمل طبقا فيه قطعة من فطيرة ساخنة يتصاعد منها الدخان.

قالت بصوت رقيق:

اليوم هو الأحد ونحن نعمل فطيرة. هلا تناولت منها؟

لكنه لم يُجب: كان يعاني من حمى شديدة.

❊ ❊ ❊

الجزء الرابع

(1)

مرّ عام على مرض أبلوموف، مرت خلاله العديد من التحولات في مختلف أرجاء العالم: فهنا عصيان مسلّح قد نشب، وهناك قُضي على عصيان آخر؛ هنا برز نجم عالمي مشهور، وهناك أفل نجمٌ آخر؛ هنا حلّ العالم لغزًا جديدًا للحياة، وهناك تحوَّلَت بيوتٌ وأجيالٌ كاملة إلى رماد. وبينما تفرقت الحياة السابقة، فإن الحياة الجديدة بدأت تظهر، مثل الخضرة اليافعة...

على الرغم من أنّ الأيام والليالي في بيت الأرملة بشينتزين في فايبورغ مضت بهدوء دون أي تغييرات عنيفة مفاجئة في وجودها الرتيب، وعلى الرغم من أنّ الفصول الأربعة تجري بتتابع وانتظام دائمًا، فإنّ الحياة لم تزل قائمة، لكنها تحملت التغيير بصورة مطّردة؛ لكن التغيير كان بطيئًا وتدريجيًا كما هو الحال في تغييرات كوكبنا الجيولوجية: في مكان ما تفتت جبلٌ ببطء، وفي مكان آخر كان البحر يغسل الطمي أو ينسحب من السواحل ليكوّن الأرض الجديدة.

شفي أبلوموف من المرض. ذهب وكيله زاتيورتي إلى الريف وأرسل مبلغًا كاملًا من المال تسلمها من مبيعات الحبوب بعد أن حسم منها أجرته وتكاليف سفراته ومعيشته. أما بالنسبة للضرائب فقد كتب زاتيورتي أنه من المستحيل جمع المال لأنّ الفلاحين كانوا إما مفلسين أو هربوا إلى أماكن مختلفة مجهولة وقام بتحقيقات شاملة عن مواقع تواجدهم. لم تكن هناك سرعة حتى الآن في حسم ما يتعلق بالطريق والجسور، لأن الفلاحين كانوا يفضلون المشي المرهق فوق التل وعبر الوادي إلى القرية الكبيرة حيث يقام السوق، على أن يعملوا في إنشاء الطريق الجديد أو بناء الجسور.

باختصار، فإنّ المعلومات والنقود التي تسلّمها كانت مرضية له، ولم يرَ أبلوموف حاجة للذهاب بنفسه إلى الريف، واطمئن إلى ذلك الحساب حتى السنة القادمة.

اتخذ الوكيل خطوات بشأن بناء البيت: فقد خمّن بمساعدة مهندس البلدية المعماري كمية المواد المطلوبة، كما ترك أمرًا إلى وكيل العزبة ليبدأ بنقل الخشب

مبكرًا في الربيع ويبني سقيفة للقرميد، وهكذا كل ما بقي لأبلوموف أن يعمله هو أن يصل في الربيع، وعلى بركة اللهَّ، يبدأ في البناء. في ذلك الوقت يجب جمع الضرائب ورهن العزبة سيكون هناك مالٌ كافٍ لتغطية التكاليف.

كان أبلوموف بعد مرضه مكتئبا لمدة طويلة؛ جلس يطيل التفكير لعدة ساعات وأحيانًا لم يجب على أسئلة زاخار، ولم يلاحظ إسقاطه الأكواب على الأرضية، وفشله في إزالة الغبار المتكوم على المنضدة، كما لم يلاحظ دخول سيدة المنزل عليه بالفطيرة في أيام الأعياد، فتجده غارقًا بالدموع. ثمّ تحل اللامبالاة والصمت تدريجيًا محل المحنة الشديدة.

نظر أبلوموف لعدة ساعات إلى الثلج المتساقط الذي يكوّن ركامًا جليديًا في الفناء والشارع، ويغطي كومات الأخشاب، وقن الدجاج ووجار الكلاب، والحديقة الصغيرة وبستان الخضروات. راقب أعمدة السياج التي تحولت إلى أهرامات من الثلج ومات كل شيء حولها وتلحَّف بالكفن.

أصغى لعدة ساعات إلى قعقعة طاحونة القهوة، ونباح الكلب وقفزاته للإفلات من سلسلته، وإلى زاخار وهو يصبغ الجزم، وتكتكة الساعة المنتظمة. دخلت سيدة المنزل إلى غرفته كعادتها لتسأل إن كان يودُّ أن يشتري شيئًا أو إن كان يرغب بشيء يأكله؛ دخل طفلا السيدة مسرعين؛ تكلم معها بطمأنينة ووِدّ، ورتب دروس الطفلين، وأصغى إلى قراءتهما وابتسم بكسل وعلى مضض لثرثرتهما الطفولية.

لكن الجبل تفتت تدريجيًا والبحر انسحب من الساحل أو تخطّاه، وكان أبلوموف يستعيد حياته العادية شيئًا فشيئًا. مرّ الصيف والخريف والشتاء بشكل رتيب وكسول، لكن أبلوموف كان ينتظر الربيع ثانيةً وحلم بالرحيل إلى الريف. في شهر آذار كان يتم صنع كيك شهيّ على شكل قبّرات. وفي شهر نيسان تمت إزالة النوافذ المزدوجة من غرفه، وقيل له بأن الجليد المتجمد في نهر النيفا تكسّر وأن الربيع قد حلّ. مشى في الحديقة، ثم زُرعت الخضراوات في الحديقة المخصصة لها؛ جاء موسم الأعياد وذهب: أسبوع العنصرة، خميس الصعود، والأول من أيار

كل هذه الأيام موسومة بأخشاب البتولا والأكاليل التقليدية؛ شربوا الشاي في الأيكة؛ في بداية الصيف بدؤوا يتكلمون في البيت حول عيدين كبيرين قادمين: عيد القديس يوحنا وهو عيد الشفيع لأخ سيدة المنزل، وعيد القديس إلياس، وهو عيد الشفيع لأبلوموف. كان هذان العيدان تاريخين باقيين في الأذهان. حين كان يصدف أن تشتري سيدة المنزل أو ترى في السوق قطعة ممتازة من لحم العجل، وحين تعد فطائرها الشهية فهي تقول: آه، ليتني أجد مثل هذا اللحم أو أصنع مثل هذه الفطيرة في عيد القديس يوحنا أو عيد القديس إلياس! تكلموا عن جمعة القديس إلياس والحضور السنوي لمصانع البارود والمهرجان المنعقد في مقبرة سمولنسك في كولبينو. قوقأة الدجاج المفرخة وصوصأة جيل جديد من الصيصان تسمع من تحت النوافذ مرة أخرى؛ فطائر الدجاج بالفطر الطازج والخيار المملح قدمت في الغداء مرة أخرى؛ سرعان ما ظهرت الفراولة والتوت على المائدة. قالت سيدة المنزل لأبلوموف:

كبد الطائر غير مناسب الآن. أمس طلبوا سبعين كوبيكا لقسمين صغيرين منها، لكن هناك سمك السلمون الطازج يمكن أن نحصل على السمك البارد مع حساء الخضروات كل يوم، إذا ما رغبت. كانت الوجبات في بيت السيدة بشنيتزين فاخرة لا لأنّ أغافيا ماتفييفنا كانت ربة بيت نموذجية أو بسبب كفاءتها فحسب، بل أيضًا بسبب أخيها، إيفان ماتفيفيتش موخوياروف، الذي كان ذوَّاقًا كبيرًا في شؤون الأكل والطعام. كان مهملًا لملابسه، إذ يرتدي بذلة لعدة سنوات وكان ينزعج جدًا حين يشتري بذلة جديدة؛ ولم يكن يعلِّقها بعناية، بل يرميها متكومة في زاوية الغرفة. كان يغيّر ملابسه الداخلية، مثل العامل، في أيام السبت فقط، أما بالنسبة للطعام فإنه كان يبذخ بماله عليه ولا يأبه بأية مصاريف. وكان يعتمد في ذلك إلى حدٍّ ما على مبدأ تبنّاه أثناء خدمته في الدوائر الحكومية: «لا أحد يعلم بما في بطني ولن يختلقوا الحكايات عنه؛ لكن سلسلة ثقيلة لساعة الجيب، وسترة فراك جديدة، وجزمة من الجلد الخالص كل ذلك سوف يثير الأقاويل التافهة». ذلك هو السبب في أنّ عائلة بشنيتزين كان لديها لحم عجل من الصنف

الأول، وسمك الحفش الأصفر، وطيهوج البندق الأبيض. أحيانًا كان يذهب إلى السوق أو إلى المتاجر بنفسه، ويتشمم الهواء، مثل كلب الصيد، ويجلب إلى البيت تحت معطفه أفضل ديك مسمّن للأكل، ولا يبخل بصرف أربعة روبلات من أجل شراء ديك رومي. كان يشتري نبيذه من بائع الجملة ويحتفظ به في الخزانة المقفلة؛ لم يرَ أحدٌ أي شيء سوى دورق الفودكا منقّعة بأوراق العنب الأسود على المنضدة؛ كان يشرب النبيذ في العليّة الخاصة به. حين يعود من صيد السمك مع تارانتييف كان ثمة قنينة من نبيذ الماديرا الفاخر يختبئ تحت معطفه وحين يشرب الشاي في «الحانة» كان يجلب مشروب الروم.

كان ترسّب الطمي التدريجي وارتفاع منسوب قاع البحر وتفتت الجبل قد أثّر على الجميع، بما فيهم أنيسيا تلقائيًا: العاطفة المتبادلة بين أنيسيا وسيدة المنزل تحولت إلى شراكة دائمة وكيان واحد. ولما رأى أبلوموف بأن السيدة تهتم بشؤونه كثيرًا اقترح عليها مرّة على سبيل المزاح أن تتحمل المسؤولية كاملة عن شؤون الإعاشة في بيته وتنقذه من كل المشاكل. أشرق وجهها بالفرح؛ ابتسمت بمرح تمامًا. كمْ توسّع حقل نشاطها: أسرتين بدلًا من أسرة واحدة، أو أسرة واحدة، ويا لها من أسرة كبيرة! إضافة إلى أنها اكتسبت أنيسيا! تكلمت سيدة المنزل مع أخيها حول المسألة، وفي اليوم التالي تمّ تحويل كل شيء في مطبخ أبلوموف إلى مطبخ السيدة بشنتزين؛ وضعت الفضيات والآنيات الفخارية داخل خوانها، وكانت أكولينا قد تم تجريدها من مهنة الطباخة إلى الاعتناء بالطيور الداجنة وبستان الخضروات.

كل شيء كان يجري إنجازه على نطاق واسع: شراء السكّر والشاي والمؤونة، مخلّل الخيار، وحفظ التفاح والكرز، وصنع المربيات كل شيء الآن اتخذ درجات واسعة. بدت أغافيا ماتفييفنا أطول قامة ونشرت أنيسيا جناحيها مثل صقر وكل شيء أصبح يسير بأقصى سرعة نحو الأمام.

تناول أبلوموف الغداء مع العائلة في الساعة الثالثة ظهرًا، ولم يكن أخ سيدة المنزل حاضرًا، إذ تغدّى وحده فيما بعد، في المطبخ على الأغلب، لأنه جاء متأخرًا جدًا من الدائرة. كانت السيدة تجلب القهوة والشاي بنفسها إلى أبلوموف بدلًا من

زاخار. فقد كان الأخير ينظف الغرفة من الغبار إذا أراد ذلك، وإذا لم يرد فإن أنيسيا كانت تطير كالزوبعة، تارة بمئزرها وتارة أخرى بذراعها العارية، وتقريبًا بأنفها، تنفض وتكنس كل شيء بمثل لمح البصر، وتنتزع الأشياء مباشرة، وتعيد إليها النشاط وتختفي؛ وكانت سيدة المنزل بنفسها، حين يخرج أبلوموف، إلى الحديقة، تنظر داخل غرفته، وتجد الفوضى فيها، وتهزّ رأسها، وتدمدم بشيء هامسة، ثم تضرب الوسائد، وتتفحص أغطيتها، ثم تهمس مرة ثانية بأنها تحتاج إلى تبديل، تنتزعها، وتنظف النوافذ، وتنظر ما وراء الأريكة ثم تخرج.
كان الترسب التدريجي للطَّمي في قاع البحر، وتآكل الجبل، والانفجارات البركانية أحيانًا احتلت مكانًا في حياة أغافيا ماتفييفنا، لكن لا أحد عداها كان مدركًا بها.
كانت لافتة للنظر نتيجة عواقبها المتعددة والمفاجئة والمستمرة.
لماذا تغيرت بعض الوقت؟ كنت فيما مضى إذا لاحظت أن الشواء مبالغٌ به والسمكَ مغليٌّ لمدة أطول، ولم يتم وضع الخضراوات في الحساء، فإنها توبّخ أكولينا بشدة، لكن بهدوء دون أن تغضب، ثم تنسى الأمر فيما بعد؛ لكن الآن حين يحدث أمر من هذا النوع فإنها تقفز من المائدة وتندفع إلى المطبخ، وتوجه اللوم القاسي إلى أكولينا، وتقطّب جبينها لأنيسيا، وفي اليوم التالي تتأكد بنفسها تمامًا بأن الخضار قد وضعت في الحساء والسمك قد تمّ غليه لمدة طويلة. سيقال بأنها تفعل ذلك لأنها كانت تخجل من الظهور أمام الغرباء كونها تفتقد الكفاءة في التدبير المنزلي الذي تركّز نشاطها عليه وتُبرز كبرياءها فيه. حسنٌ جدًا. لماذا كانت سابقًا لا تستطيع أن تبقي عينيها مفتوحتين إلا بصعوبة في الساعة الثامنة مساءً، بعد أن تضع الطفلين في الفراش وترى بأن النار مطفأة في موقد المطبخ، والمداخن مغلقة، وكل شيء مرتب في مكانه، اعتادت أن تذهب إلى الفراش في الساعة التاسعة، فلا يستطيع أي مدفع إيقاظها إلا في الساعة السادسة صباحًا؟ لكن الآن، لو ذهب أبلوموف إلى المسرح أو بقي مدة أطول لدى إيفان غيراسيموفيتش وتأخر في المجيء للبيت، فإنها لا تستطيع النوم، وتتقلب من جانب إلى آخر،

وترسم علامة الصليب، وتتنهّد وتغلق عينيها لكنها لم تستطع النوم رغم كل شيء! وفي اللحظة التي كانت تسمع فيها صوت خطوات في الشارع، فإنها ترفع رأسها وأحيانًا تقفز من فراشها وتفتح نافذة التهوية الصغيرة وتراقب هل كان هو؟ وإذا ما كان هناك طَرق على البوابة فإنها كانت ترفع تنورتها وتندفع إلى المطبخ، وتوقظ زاخار أو أنيسيا وترسلهما ليفتحا البوابة. سيقال بأنّ ذلك كان يظهر فحسب بأنها كانت ربة بيت ذات ضمير حي لم ترغب بوجود الفوضى في بيتها أو أن تجعل المستأجر ينتظر في الشارع أثناء الليل إلى أن يسمعه الحارس السكران ويفتح لها البوابة، وأخيرًا وليس آخرًا، يفسر الأمر كونها خائفة من أن الطَّرق المستمر على البوابة سوف يوقظ طفليها. حسنٌ جدًا، لكن لماذا حين وقع أبلوموف مريضا، لم تسمح لأحد بالدخول إلى غرفته؟ لماذا غطت الأرضية باللبّاد والسجاد، وأسدلت الستائر، ولماذا كانت تستشيط غضبًا هي التي كانت في منتهى الطيبة والرقة لو سمعت فانيا أو ماشا يطلقان أقل صيحة أو ضحكة بصوت عال؟ لماذا كانت تجلس بجانبه طوال الليل، دون الاعتماد على زاخار أو أنيسيا، ولا تنتزع عينيها منه، حتى القدّاس المبكر، ثم ترمي معطفها على كتفيها، وتكتب كلمة «إيليا» بحروف كبيرة على قطعة من الورق، وتهرع إلى الكنيسة، وتضع الورقة على المذبح لكي يستجاب دعاؤها من أجل شفائه، ثم تنسحب إلى زاوية، وتجثم على ركبتيها وتسجد على الأرض.

ثم تسرع إلى السوق، وتعود إلى البيت بفزع، وترمي نظرة على الباب وتسأل أنيسيا بهمس:

كيف حاله؟

سيقال إن ذلك ليس سوى شفقة وعطف، وهما جزءان لا يتجزءان من قلب المرأة.

حسنٌ جدًا، سابقًا حين كان يتشنّج أبلوموف من المرض، ويظل مكتئبًا طوال الشتاء، وبالكاد يتكلم معها، ولا ينظر داخل غرفتها، لم تكن تهتم بما كانت تفعل، وحين لا يمزح أو يضحك معها، فإنها تغدو نحيلة وباردة ولا تبالي بكل شيء:

ربما كانت تطحن القهوة ولا تعرف ما كانت تفعله، أو أنها ستضع المزيد من الهندباء كي لا يمكن أن يشربها أحد، لكنها لا يمكن أن تشعر بالفرق، كأنها ليس لديها حاسة التذوق. لو لم تطبخ أكولينا السمك بصورة صحيحة ودمدم أخوها وترك المائدة، فإنها لا يبدو عليها أنها سمعت شيئًا، كأنها تحولت إلى حجر. سابقًا، لم يكن يراها أحد في أي وقت مضى، وهي مستغرقة في التفكير، فذلك في واقع الأمر لا يناسبها مطلقا، لأنها كانت تجلس ساكنة والهاون في حضنها، كأنها كانت نائمة؛ ثم فجأة تبدأ بالقرع بعنف بمدقة الهاون بحيث تثير نباح الكلب، معتقدًا بأنّ أحدًا كان يطرق على البوابة. لكن ما إن استعاد أبلوموف عافيته، وما إن بدأ يبتسم بود، وما إن بدأ يحدّق بها كالسابق، وينظر داخل غرفتها بشغف ويمازحها، حتى أصبحت بدينة مرة أخرى، وبدأت تعمل ثانية بنشاطها القديم واستعادت بهجتها ومرحها، لكن بفرق قليل لكنه ذو مغزى ففي الأيام الماضية اعتادت على أن تتحرك طوال اليوم، مثل آلة جيدة الصنع، برشاقة وانتظام، وتمشي بخطوة خفيفة، ولم تتكلم بصوت عال أو منخفض جدًا. كانت تطحن القهوة، وتقطّع كتلة السكر، وتنخل، ثم تجلس لكي تخيّط، فتتحرك إبرتها بانتظام مثل البندول؛ بعد ذلك تنهض دون صخب أو ضجة، وتقف في منتصف الطريق إلى المطبخ، وتفتح الخزانة، ثم تنتزع شيئًا ما، وتنقلهُ كانت أشبه بالآلة في عمل كل ذلك. لكن منذ أن أصبح أبلوموف فردًا من العائلة بدأت تقرع الهاون وتنخل بطريقة مختلفة. لقد نست تطريزها. سوف تبدأ بالخياطة، وتستقر براحة في الكرسي، حين يصيح أبلوموف فجأة على زاخار لكي يجلب القهوة ومثل لمح البصر كانت تحضر إلى المطبخ، وتنظر حولها بتمعّن كأنها كانت تصوّب، وتمسك بملعقة وتصب ملء ثلاث ملاعق من القهوة أمام الضوء لكي ترى إن كانت جاهزة تمامًا وإن كانت قد استقرت، وإن كان هناك أي ثفل فيها أو وجود قشرة على رغوتها. إذا ما طبخت طبقه المفضّل راقبت المقلاة ورفعت الغطاء، وشمّت، وذاقت، ثم أمسكت المقلاة بنفسها ووضعتها على النار. إذا ما بشرتْ جوز الهند وسحقتْ بالهاون شيئًا له، فإنها تفعل ذلك بحماس ونشاط شديدين بحيث إنها كانت

ترشح بالعرق. كل واجباتها المنزلية الطحن، الكوي، النخل... إلخ اكتسبت معنىً جديدًا حيًّا؛ سلام أبلوموف وراحته، سابقًا كانت تعده واجبها؛ أما الآن فقد أصبح مصدر سرور لها. بدأت تعيش، في نمط حياة متغيرة ممتلئة. لكنها لم تعرف ماذا حدث لها؛ لم تطرح على نفسها السؤال أبدًا، لكنها تبنَّت هذا العِبء الأثير بصورة مطلقة، دون مقاومة وتردد، ودون خوف، وشغف ونذر غامضة، ووهن أو عزف على موسيقى الأعصاب.
بدا الأمر وكأنّها تغيّر معتقدها وتبدأ التصريح به دون أن تتساءل أي نوع من المعتقد هو، وما هي مبادئه، لكنها خضعت لقوانينه بشكل أعمى. يبدو أنه كان مفروضًا عليها دون معرفتها، وبدت كأنها تعامله كغيمة لم تحاول أن تتجنبها ولا هرعت للقائها؛ وقعت في غرام أبلوموف ببساطة كأنها أصابها برد أو التقطت حمَّى غير قابلة للشفاء. لم تكن ترتاب بأي شيء: فإذا ما أعلن لها أحد بأنّ ثمة أخبارًا لها فإنها ستبتسم وتتورَّد خجلًا. قبلتْ واجباتها نحو أبلوموف بصمت، وتعلَّمت حالة كل قميص من قمصانه، وأحصت عدد الثقوب في جواربه، وعرفت بأي قدم ينزل من الفراش، ولاحظت متى سيطلع شحاذ عينه، وعرفت ماذا يفضّل من الأطباق وكم عدد حصص الطعام التي يتناولها، سواء أكان مرحًا أم ضجرًا، سواء نام كثيرًا أم قليلًا، كأنها قد فعلت ذلك طوال حياتها، دون أن تسأل نفسها لماذا فعلته أو ماذا كان يعني أبلوموف بالنسبة لها، ولماذا يجب عليها أن تتلقى الكثير من المشاكل. إذا ما سألها أحد إن كانت تحبّهُ فإنها سوف تبتسم ثانيةً وتقول نعم، لكنها ستعطي الإجابة نفسها حين لا تتجاوز معرفتها بأبلوموف في بيتها أكثر من أسبوع. لماذا وقعت في حبّه وليس في حبّ رجل آخر؟ لماذا تزوَّجت دون حب وعاشت دون غرام حتى بلغت الثلاثين حين بدا أنه يأخذها على حين غرّة؟ على الرغم من أنّ الحب يُعلن عنه كونه إحساسًا ونزوة متقلبة لا يمكن تفسيرها يصاب به المرء كالمرض، إلا أنّ له، مثل أي شيء آخر، أسبابًا وقوانين خاصة به. وإذا لم تتم دراسة هذه القوانين بصورة كافية حتى الآن، فلأنّ الإنسان المفعم بالحب هو في موضع يصعب منه المراقبة بتجرّد علمي كيف

أن الانطباع ينسل إلى داخل الروح، وكيف أنه يجعل الإحساسات خدرة كأنها نائمة، وكيف أنه يفقد نظره أولًا، وكيف وفي أي لحظة يبدأ نبضه ومن ثم قلبه بالخفقان بشكل أسرع، وكيف أنه يصبح فجأة مجبرًا على إعلان إخلاصه حتى الموت، ورغبته في التضحية بنفسه، وكيف أنّ «أناه» تختفي تدريجيًا وتصبح متحولة إلى «هو» أو «هي»، وكيف أن فكره يصبح بليدًا أو حادًا على نحو استثنائي، وكيف أنّ إرادته محاصرة بإرادة أخرى، وكيف أنّ رأسه يصبح محنيًا، وركبتيه ترتجفان، وكيف أن الدموع والحمى تظهران...

لم تلتقِ أغافيا ماتفيفنا سابقًا بناس عديدين مثل أبلوموف، وإذا ما التقتهم فمن بعيد، ربما أعجبت بهم لكنهم كانوا يعيشون في عالم آخر ولم يكن لديها الفرصة لمعرفتهم بشكل حميمي. كان أبلوموف لا يمشي مثل زوجها، المتوفى السكرتير بشينتزين، بخطوات صغيرة وسريعة وعملية، ولم يكن يكتب الوثائق بلا انقطاع، ولم يرتعش بسبب الخوف من تأخره عن الدوام في الدائرة، لم ينظر إلى الناس وكأنه يرجوهم أن يرهقوه ويركبوا على ظهره، لكنه تطلع إلى كل شيء وإلى كل شخص بصراحة وجرأة، كأنه توقع منهم أن يخضعوا له. لم يكن وجهه خشنًا أو أحمرَ بل رقيقا وأبيض؛ كانت يداه حارتين مثل يدي أخيها لا تصافحان، لا حمراوان بل كانتا بيضاوين وصغيرتين. حين جلس، صالبَ ساقيه، وأسند رأسه على يده، على نحو مريح بلا جهد، وبشكل هادئ وجميل جدًا؛ تكلم بطريقة كانت مختلفة عن أخيها وتارانتييف.

وبخلاف طريقة زوجها الذي اعتاد على الكلام؛ فإنّ الكثير مما قاله لم تفهمه، لكنها شعرت بأنه كان ذكيًا، رائعًا، واستثنائيًا؛ وحتى الأمور التي فهمت بأنه كان يتكلم بها بطريقة مختلفة عن الناس الآخرين. كان يرتدي ملابس كتانية جميلة، ويغيّرها يوميا، ويغسل بصابون معطَّر، وينظف أظافره كان من اللطافة والنظافة بحيث لم يكن بحاجة أن يفعل أي شيء فالآخرون فعلوا كل شيء من أجله: فلديه زاخار و300 نفس مثل زاخار! إنهُ رجل نبيل: كان متألقًا بهيًا! إضافة إلى أنه كان في منتهى الطيبة؛ كان يمشي بشكل رقيق، وكانت حركاته غاية في

التهذيب؛ كانت يده ناعمة كالمخمل حين يمس يدها؛ لكنها كانت تحس بشيء أشبه بالضربة في يدها حين يمسّها زوجها! وكان يبدو ويتكلم بمنتهى الرقة والطيبة... لم تفكّر بكل هذه الأشياء، ولم تكن تعيها وتدركها، لكن لو حاول أحد أن يحلل ويوضِّح الانطباع المتكون في ذهنها عن دخول أبلوموف إلى حياتها، فإنه لن يكون قادرًا على إعطاء أي تفسير.

فهم أبلوموف ما كان يعني بالنسبة للجميع في البيت، من أخ سيدة المنزل وصولًا إلى كلب الحراسة الذي حصل الآن على ثلاثة أمثال ما كان يحصل عليه من العظام سابقًا. لكنه لم يفهم كم كان يعني بالنسبة لقلب سيدة المنزل، إذ رأى في عنايتها المفرطة بوجباته وملابسه وغرفته إعلانًا للميزة الرئيسة لشخصيتها التي لاحظها سابقًا خلال أول زيارة له، حين جلبت أكولينا فجأة إلى الغرفة الديك المرفرف إذ نجحت سيدة المنزل، رغم ارتباكها من حماسة الديك الموضوع في غير محله، في إخبارها بأن لا تعطي ذلك الديك إلى صاحب المتجر بل الديك الرمادي. لم تكن أغافيا ماتفييفنا نفسها قادرة على مغازلة أبلوموف والكشف له عن بعض العلامات عما يدور في داخلها، كما ذكر سابقًا، كانت غير مدركة تمامًا به أو فهمته بنفسها؛ في الواقع كانت قد نست بأنه خلال الوقت القصير الذي مضى لم يحدث شيء من هذا النوع لها، وأنَّ حبّها وحده وجَدَ تعبيره في إخلاصها المطلق له.

كان أبلوموف جاهلًا بطبيعة موقفها الحقيقي تجاهه. وواصل التفكير بأنّ ذلك كان جوهر شخصيتها. شعور السيدة بشنتزين، العادي والطبيعي والنزيه جدًا، بقي لغزًا بالنسبة لأبلوموف، وللناس الذين من حولها، ولنفسها. في الواقع كان شعورها نزيهًا لأنها أشعلت شمعة في الكنيسة ودعت له بالشفاء لأنها أرادت منه أن يستعيد عافيته، ولم يعرف شيئًا عن ذلك. لقد جلستْ بجانب فراشه في الليل وتركته في الفجر، ولم تتطرق لهذا الأمر فيما بعد. كان موقفهُ تجاهها أبسط كثيرًا: لقد وجد في أغافيا ماتفييفنا، بحركة مرفقيها المنتظمين، وعينيها اليقظتين القلقتين، وانتقالها الدائم بين الخزانة والمطبخ وحجرة المؤن والقبو، ومعرفتها العميقة بالتدبير المنزلي وكل وسائل راحة البيت، غاية الحياة المتجسّدة ذات الهدوء

الصافي اللانهائي، والصورة التي انطبعت بشكل لا يمكن استئصالها في عقله عن الطفولة، تحت سقف أبيه. في أبلوموفكا كان أبوه وجدُّه والأطفال والأحفاد، والزوّار يجلسون أو يستلقون في هدوء مثالي، وهم يدركون بأنّ في البيت كانت ثمة عيون مؤرَّقة تراقبهم بصورة مستمرة وأيدٍ لا تكلّ ولا تتعب تخيّط ملابسهم، وتقدم لهم الطعام والشراب، وتلبسهم وتضعهم في الفراش، وتغلق أعينهم حين يلفّهم الموت، لذا فإن أبلوموف يجلس أيضًا هنا ساكنًا على الأريكة، وكان يرى إلى أنّ هناك من يتحرك بسرعة ونشاط من أجل خدمته، لم يكن يهتم لو أنّ الشمس لن تشرق غدًا أو أنّ الزوابع ستحجب السماء، ويضرب الإعصار أطراف الأرض، كل ما يهمه أنّ حساءه وشواءه سوف يكونان على المائدة، وملابسه جديدة ونظيفة، وأنّ نسيج العنكبوت سوف يكنس من على الجدران، ولن يعرف كيف حدث كل ذلك؛ سابقًا كان يعاني من مشكلة التفكير بما يعجبه، وسوف يتم التنبؤ برغبته في الأكل ويوضع أمامه، لا بشكل كسول وفظ بواسطة يدي زاخار القذرتين، بل بنظرة بهيجة ورقيقة، وابتسامة تدل على الإخلاص العميق، وبيدين بيضاوين، ومرفقين عاريين. كانت علاقته بسيدة المنزل تزداد ودًّا ووثوقًا كل يوم: لكن فكرة الحب لم تدخل رأسه أبدًا، ذلك الحب الذي جرّبه مؤخرًا كأنه مرض الجدري أو الحصبة أو الحمى، والذي يرتعد حين كان يتذكره. أصبح أقرب إلى أغافيا ماتفييفنا تمامًا مثلما يقترب أحدٌ من النار سعيًا وراء الدفء مع أنه لا يحبها. كان يبقى بعد الغداء في غرفتها ويدخّن بالغليون، ويراقبها وهي تضع الفضيات في المزينة، وتُخرج الأكواب، وتصب القهوة، وتغسل وتمسح كوبًا بعناية فائقة، وتصب له القهوة أولًا وتعطيها له وتنظر لترى إن كانت أعجبته. كان يلقي نظراته ببهجة على رقبتها الممتلئة ومرفقيها المدورين، حين يُفتح باب غرفتها، وحتى لو لم يُفتح، فإنه يفتحه برفق بإحدى قدميه، ويمازحها ويلعب مع طفليها. لكنه لم يتلهّف إليها لو مرّ الصباح ولم يرها؛ وبدلًا من أن يبقى معها بعد الغداء، غالبًا ما يذهب إلى غرفته وينام لمدة ساعتين، لكنه كان يعرف بأنه ما إن يستيقظ حتى يكون شايه جاهزًا، بل سيكون جاهزًا لحظة استيقاظه تمامًا. علاوة على أنّ

كلّ ذلك يجري دون أية ضجة: لم يشعر بانتفاخ في قلبه، ولم يسأل نفسه يومًا بقلق إن كان سيرى سيدة منزله أم لا، وبماذا ستفكّر، وماذا سيقول لها، وكيف ستجيب عن سؤاله، وكيف ستنظر إليه لم يكن يوجد شيء من هذا القبيل. لم تكن ثمة أشواق أو ليالي سُهاد، أو دموع حلوة أو مرّة. كان يجلس مدخّنًا ويراقبها وهي تخيّط؛ أحيانًا كان يصرّح بشيء وأحيانًا لا يصرّح، مع ذلك شعرَ بالسلام مع نفسه، لم يرغب بشيء، لم يشعر بالرغبة بالذهاب إلى مكان ما، تمامًا كأنّ كل شيء يحتاجه كان يكمن هنا. لم تطلب منه أغافيا ماتفييفنا أية مطالب ولم تتملقه لكي يفعل أي شيء. لم تكن لديه أي مطامح أو رغبات أو دوافع أو تطلعات لأداء أفعال بطولية أو أي وخز ضمير مبرّح حول الطريقة التي كان يمضي بها الوقت ويحطّم قواه، وحول عدم القيام بشيء خيرًا أم شرًّا، وحول كونه تافهًا يعيش حياة بليدة. كأنّ قوة لا مرئية قد وضعته مثل نبتة ثمينة في الظل لحمايته من الحرارة وتحت السقف لتحميه من المطر، وتعتني به وتدلله.

قال أبلوموف:

كم رشيقة حركة إبرتك وهي تمر بأنفك يا أغافيا ماتفييفنا. إنكِ تلتقطين الخيط بسرعة من الأسفل إذ إني خائف فعلًا من أنك ربما تخيطين أنفك مع تنورتك.

ابتسمت وقالت كأنها تتكلم مع نفسها:

دعني أولًا أنهي خياطة هذا الدرز، ثم نتناول بعد ذلك العشاء.

وماذا أحضرتِ للعشاء.

قالت:

ملفوف مخمّر مع سمك السلمون. كنت أفضل سمك الحفش لكن لا يوجد في أي مكان. لقد بحثت عنه في كل المتاجر وكذلك سأل عنه أخي، لكننا لم نعثر عليه.

بالطبع لو حصلنا عليه حيًّا فأعدكَ بقطعة منه فقد أوصى عليه تاجر من «الرواق المسقف» ثم هناك لحم العجل ووجبة الحنطة السوداء المقلية.

ذلك شيء رائع! كم لطيف أنّكِ تذكّرتِ! آمل أن أنيسيا لن تنسى.

أجابت وفتحت باب المطبخ قليلًا:
ومن أجل ماذا أنا هنا؟ هل تسمع الدهن وهو يئز؟ لقد تم قليه مسبقًا!
انتهت من الخياطة، وقطعت الخيط، طوت خامتها وحملتها إلى غرفة نومها.
وهكذا اقتربَ منها كأنه يقترب من نار دافئة، ومرّة أصبح أكثر اقترابًا منها حتى أحسّ بحريق تقريبًا أو لهيب مفاجئ في أقل تقدير.
كان يخطو في غرفته، ويلتفت إلى باب سيدة المنزل، رأى بأنّ مرفقيها كانا نشطين ومذهلين تمامًا.
قال ودخل عليها:
دائمًا مشغولة! ماذا تفعلين؟
أجابت:
إني أطحن القرفة.
ونظرت داخل الهاون كأنها تنظر إلى هوّة وراحت تطرق بعنف بالمدقة محدثة قعقعة.
سألها:
وإذا ما أعقتكِ عن العمل؟
وأمسك بمرفقيها ومنعها من الدق.
أرجوك دعني أذهب! يجب أن أطحن بعض السكّر وأصب بعض النبيذ من أجل حلوى البودنغ.
ما زال يمسك مرفقيها، وكان وجهه قريبًا من مؤخر عنقها.
ماذا تقولين لو أنني وقعتُ في غرامك؟
ابتسمت.
سأل مرة أخرى:
هل تحبينني؟
ولماذا لا أحبّك؟ فالربّ أمرنا أن نحب بعضنا البعض الآخر.
همس:

وماذا لو قبّلتكِ؟

وانحنى للأسفل بحيث إن نَفَسَهُ أحرق خدّها.

قالت مبتسمة:

إنه ليس أسبوع الفصح.

قبّليني أرجوكِ.

قالت دون دهشة أو توجّس أو ارتباك، لكنها وقفت مستقيمة وظلت هكذا كالفرس حين يوضع عليها طوق العنق.

حين يحلّ عيد الفصح إن شاء اللهّ، سوف نتبادل القُبل.

قبّل عنقها برفق.

علّقت:

أرجوك، كن حذرًا، وإلاّ تناثرت القرفة ولم يبق منها شيئًا من أجل صنع الفطائر.

أجاب:

لا يهمّ سألته بقلق وأمسكت بحاشية مبذله:

من أين جاءت هذه البقعة في مبذلك؟ أظن أنها بقعة زيت.

شمّت البقعة وسألته:

من أين جاءتك؟ هل سقطت من قنديل الأيقونة؟

أخشى أني لا أعرف من أين سقطت عليّ؟

خمّنت أغافيا ماتفييفنا فجأة:

لا بدّ من أنها وقعت عليك من الباب. فمفاصله تم دهنها أمس، بعد أن كانت كلها تصرّ. انزعهُ ودعني أنظفهُ فورًا. سوف آخذه وأنظف البقعة: فلن يظهر شيئًا غدًا.

قال أبلوموف ورمى المبذل بكسل من على كتفيه:

كم أنتِ طيبة يا أغافيا ماتفييفنا. هل تعرفين ماذا؟ فلنذهبْ ونعِشْ في الريف: ذلك هو المكان الذي يليق بالتدبير المنزلي! سيكون كل شيء متاحًا لكِ هناك: الفطر، الفواكه، المربى، فناء الطيور الداجنة، ومزرعة لتربية المواشي...

ختمت كلامها بحسرة:

لكن لماذا أذهب إلى هناك؟ فهنا ولدت وهنا عشت حياتي وهنا يجب أن أموت.

حدّق إليها باهتياج معتدل، لكنّ عينيه لم تشرقا أو تمتلئا بالدموع، ولم تتلهف روحه للأعالي أو تطمح إلى أن تؤدي أفعال البطولة. كل ما أرادهُ هو الجلوس على الأريكة دون أن ينتزع عينيه من مرفقيها.

* * *

(2)

كان عيد القديس يوحنا، وهو عيد الشفيع[65] لإيفان ماتفيفيتش، مناسبة احتفالية عظيمة. لم يذهب إلى دائرته في اليوم السابق، فقد طاف حول المدينة، وفي كل مرة يجلب إلى البيت حقيبة أو سلّة. عاشت أغافيا ماتفييفنا على القهوة وحدها لمدة ثلاثة أيام، عدا أبلوموف فقد تناول الغداء ثلاث مرات، أما بقية أفراد الأسرة فقد عاشوا على أي شيء متاح لهم في أي ساعة من اليوم. وفي ليلة العيد العظيم لم تذهب أنيسيا لتنام مطلقًا. كان زاخار وحدهُ ينام بشكل كاف، وكان ينظر إلى كل هذه التحضيرات بشيء من الاحتقار.

قال للطباخَين اللذين تم جلبهما من مطبخ الكونت:

في أبلوموفكا كانت تُطبخ مثل هذه الوجبات في كل عيد. هناك خمسة أنواع من الحلوى والمزيد من الصلصة بحيث لا يمكن إحصاء كمياتها! وكان السادة يأكلون أثناء اليوم بأكمله واليوم الذي يليه، أما نحنُ فنأكل بقايا الطعام لمدة خمسة أيام. وما إن ننتهي حتى يصل ضيوف آخرون، وتبدأ التحضيرات مرة أخرى أما هنا فتجري مرة واحدة في السنة!

كان زاخار يقدم الغداء إلى أبلوموف أولًا ويرفض بصراحة أن يقدمه إلى سيد نبيل يضع صليبًا كبيرًا حول عنقه.

قال متباهيًا:

سيدنا رجل ذو حسب ونسب نبيل، وهؤلاء الضيوف أشخاص عاديون!

أما تارانتييف الذي جلس في نهاية المائدة فلم يقدم له زاخار شيئًا مطلقًا، أو كان يرمي له طبقًا يضع فيه كمية من الطعام حسب هواه! كان جميع زملاء إيفان ماتفيفتش حاضرين، وكان عددهم حوالي ثلاثين شخصًا. ضمت الوليمة كميات كبيرة من سمك التروتة والدجاج المحشي وطيور السُّمَانَى، والمثلجات والنبيذ الفاخر وكانت وليمة تليق بمناسبة سنوية كبيرة. وفي نهايتها تبادل الضيوف

65بالفرنسية في الأصل feuilles d'automne وهي مجموعة من القصائد لفكتور هوغو.

العناق بينهم وحمدوا ربّ السماوات وأشادوا بذوق مضيفهم الراقي، ثم جلسوا ليلعبوا الورق. انحنى إيفان ماتفيفيتش وشكرهم، وأعلن بأنه يشعر بخالص المتعة لأنه أقام وليمة غداء إلى ضيوفه الأعزاء ولم يأسف للتضحية بثلث راتبه السنوي من أجل ذلك. انصرف الضيوف عند مقتبل الصباح، بعضهم بالعربات وآخرون مشيًا على أقدامهم، لكن بالكاد كانوا قادرين على الوقوف مستقيمين، ثم عاد الهدوء مرة أخرى إلى البيت حتى حلّ عيد القديس إلياس وهو عيد الشفيع بالنسبة لأبلوموف.

في ذلك اليوم كان الشخصان الوحيدان اللذان دعاهما أبلوموف لوليمة عيد شفيعه هما إيفان غراسيموفيتش وألكسييف، وهو الرجل الصامت ذو السلوك اللطيف الذي دعا أبلوموف، في بداية هذه الرواية، لصحبته إلى احتفال الأول من أيار. كان أبلوموف عازمًا على أن لا يفوقه إيفان ماتفيفيتش، وبذل ما بوسعه ليدهش ضيوفه بالأطباق الشهية ذات المذاق الطيب التي لم يعرف لها مثيل في هذه الناحية من المدينة. فبدلًا من الفطائر الغنية بالسمن كانت هناك فطائر خالية من الحشو؛ وقدّمَ المحار قبل الحساء؛ وكان هناك دجاج في ورق مجعّد محشو بالكمأ، كما تم انتقاء قطع من اللحم، وأفضل الخضروات والحساء الإنكليزي.

وفي وسط المائدة كانت هناك ثمرة ضخمة من الأناناس، يحيط بها الخوخ والمشمش والكرز. كما وضعت آنيات للزهور على المائدة.

ما إن بدؤوا بشرب الحساء وصبّ تارانتييف لعناته على الفطائر والطبّاخ بسبب فكرة عدم حشوها حتى بدأ الكلب بالنباح قافزًا من سلسلته ونابحًا بيأس. دخلت عربة إلى الفناء وسأل شخصٌ عن أبلوموف. فغر الجميع أفواههم مندهشين.

قال أبلوموف:

لا بدّ من أنّ صديقًا سابقًا تذكّر عيد شفيعي.

ثم همس لزاخار:

أخبروهم أني لستُ في البيت لستُ في البيت!

كانوا يتناولون غذاءهم في البيت الصيفي الكائن في الحديقة.
اندفع زاخار لينفّذ أمر سيّده وصادف شتولتس في الممر.
صاح مسرورًا بصوت أجش:
أندريه إيفانيتش.
خاطبهُ أبلوموف بصوت عال وهرع ليعانقه:
أندريه!
قال شتولتس:
جئتُ في الوقت المناسب للغداء. هل أنضم إليكم؟ فأنا أتضوّر جوعًا. تطلَّب مني الأمر عدة ساعات لكي أعثر عليك.
قال أبلوموف باهتياج:
تعال، تعال، اجلس!
وجلس بجانبه.
عند ظهور شتولتس، كان تارانتييف أول من يقفز بسرعة من فوق السياج ويدخل بستان الخضروات؛ ثم تبعهُ إيفان ماتفيقتش، الذي توارى وراء البيت الصيفي واختفى في العليّة الخاصة به. وكانت سيدة المنزل قد نهضت أيضًا من مقعدها.
قفز شتولتس قائلًا:
أخشى أني أزعجتكم!
صاح أبلوموف:
أين ذهبتما؟ لماذا؟ إيفان ماتيفيتش! ميخي أندرييتش!
طلب من سيدة المنزل أن تجلس مرة أخرى، لكنه لم يستطع أن يستعيد أخ السيدة أو تارانتييف.
بدأ أبلوموف يرشقه بالأسئلة بسرعة:
من أين جئت؟ هل أنت باق هنا مدة طويلة؟

جاء شتولتس ليبقى لمدة أسبوعين لأداء بعض الأعمال ثم يذهب إلى الريف، وإلى كييف وأماكن أخرى عديدة. تكلّم قليلًا عند المنضدة، لكنه أكل الكثير؛ من الواضح أنه كان جائعًا فعلًا. من البديهي أن الآخرين كانوا يأكلون بصمت. بعد الغداء، وحين رفعت الأطباق من المائدة، طلب أبلوموف أن تبقى الشمبانيا وماء الصودا في البيت الصيفي وبقي وحده مع شتولتس. لم يتحدثا بينهما منذ أمدٍ طويل. نظر شتولتس إلى أبلوموف طويلًا بشكل مركّز.

قال أخيرًا بصوت يحمل صرامة وريبًا شديدين بحيث إن أبلوموف خفض عينيه ولم يحر جوابًا:

حسنٌ، يا إيليا.

إذن هكذا «لن»؟

سأل أبلوموف كأنه لم يفهم:

ما تعني ب «لن»؟

هل نسيت؟ «الآن وإلاّ فلن!» أخيرًا قال:

أنا الآن أختلف عما كنتُ سابقًا يا أندريه. شؤوني منظّمة والحمد للهّ. لم أعد أستلقي بكسل، خطتي على وشك أن تنتهي، ولديّ اشتراكات في الصحف، وقرأت تقريبًا كل الكتب التي تركتها لي...

سأل شتولتس:

لكن لماذا لم تسافر إلى خارج البلاد؟

لقد منعت من السفر للخارج بسبب...

وتوقف فترة.

قال شتولتس ووجّه نظرة ذات مغزى إليه:

أولغا؟

فتورّد أبلوموف خجلًا.

سأل بسرعة ونظر إلى شتولتس:

ماذا؟ هل سمعت عن الأمر؟ أين هي الآن؟

ظلّ شتولتس ينظر إليه دون إجابة، وبدا كأنه يسبر أعماق روحه.
قال أبلوموف:
سمعتُ أنها ذهبت إلى خارج البلاد مع عمتها فورًا بعد...
أكمل شتولتس له الجملة:
بعد أن أدركتْ خطأها.
قال أبلوموف وتغلب على اضطرابه:
آه هل تعرف أنت؟
قال شتولتس:
كل شيء، حتى عن غصن الليلك. لكن ألا تخجل يا إيليا؟ ألا تحس بالأسف؟ ألا يستنفدك الندم؟
قاطعهُ أبلوموف بسرعة:
لا تتكلم عنه لا تذكرني به! مرضتُ مرضا خطيرًا حين رأيتُ هاوية بيني وبينها، وحين أدركتُ بأني كنت لست جديرًا بها... آه، أندريه، إذا كنت تحبني، فلا تعذبني، لا تذكّرني بها. أشرتُ إلى خطأها منذ مدة طويلة، لكنها رفضت أن تصدّقني كما ترى، يجب أن لا توجه اللوم الكثير لي...
واصل شتولتس بنغمة صوت ودية ورقيقة:
أنا لا أوجه إليك اللوم يا إيليا. لقد قرأت رسالتك. أنا من يجب أن يوجّه له اللوم أولًا، ثم هي ثانيًا، وأنت أقل ما يكون.
سأل أبلوموف بتوجّس:
كيف حالها الآن؟
هي؟ آه، يغلبها الحزن وتذرف الدموع مدرارًا وتصبُّ اللعنات عليك...
ظهرت علامات الذعر والرعب والندامة على وجه أبلوموف مع كل كلمة ينطقها شتولتس.
قال، ونهض من كرسيّه:

ماذا تقول يا أندريه؟ فلنذهب إليها فورًا، باللهّ عليك! سوف أجثم على ركبتيّ وأرجوها لتغفر لي...
قاطعه شتولتس ضاحكًا:
اجلس واهدأ! إنها في مزاج رائق. آه، أعتقد أنها سعيدة حقًا! طلبت مني أن أوصل لك تحياتها. أرادت أن تكتب لك، لكن نصحتها أن لا تكتب. أخبرتها بأنها ربما تجعلك قلقًا.
قال أبلوموف والدموع تملأ عينيه تقريبًا:
الحمد للهّ. أنا في غاية السرور يا أندريه! دعني أعانقك، ونشرب بصحتها!
شربا كلاهما كأسًا من الشمبانيا.
لكن أين هي الآن؟
في سويسرا. سوف تذهب مع عمتها إلى عزبتها في الخريف. ذلك السبب في أني جئت هنا الآن: يجب أن أحسم مسألة أملاكها في المحاكم. لم ينهِ البارون المهمة: كان يأخذ في الحسبان أن يخطب أولغا.
قال أبلوموف:
صحيح؟ هل حقًا ما تقول؟ حسنٌ، وماذا فعلت هي؟
رفضتهُ بطبيعة الحال. فشعر بالحزن وسافر، فكان عليّ الآن أن أكمل المهمّة! سوف تحسم الأسبوع المقبل. حسنٌ، وماذا عنك؟ لماذا دفنت نفسك في هذه الحفرة المهجورة؟
إنها آمنة هنا يا أندريه. هادئة جدًا، لا أحد يتدخل في...
في ماذا؟
في عملي...
قال شتولتس ونظر حوله:
هذه أبلوموفكا مرة أخرى، لكنها أكثر سوءًا. فلنذهب إلى الريف يا إيليا.
إلى الريف ولمَ لا؟

فهم سوف يبدؤون قريبًا ببناء بيتي الجديد هناك. لا تستعجلني يا أندريه. ودعني أفكر بالأمر أولًا.

مرّة أخرى تفكّر به! أعرف الطريقة التي تفكّر بها بالأمور: تمامًا مثلما فكرت بالذهاب إلى خارج البلاد قبل سنتين. دعنا نذهب الأسبوع المقبل.

دافع أبلوموف عن نفسه:

الأسبوع القادم؟ لماذا هذا الاستعجال؟ أنت جاهز للسفر، لكني يجب أن أكون جاهزًا. كل أغراضي هنا. هل يمكن أن أتركها كلها؟ وليس لديّ شيء للرحلة.

لكن لا تحتاج إلى شيء. ماذا تحتاج؟ قل لي.

لم يقدّم أبلوموف إجابة.

قال:

لا أشعر بأني على ما يرام يا أندريه. نفَسي ضيق، وظهر لي شحاذ العين مرة أخرى، في البداية في عين واحدة ثم ظهر في الأخرى، وساقاي أيضًا بدأتا بالانتفاخ.

وأحيانًا حين أنام سريعًا في الليل يتراءى لي أن شخصًا يضربني على رأسي أو ظهري، لذلك أقفز من نومي...

استمع يا إيليا، أقول لك بجدّ، يجب أن تغيّر أسلوب حياتك إذا أردت أن لا تصاب بداء الاستسقاء أو بنوبة قلبية. لا تستطيع بعد الآن أن تعلّق آمالًا على مستقبل أفضل، فملاك مثل أولغا لم تستطع أن تحملك على جناحيها خارج المستنقع الذي وضعت فيه، فلا أستطيع أن أفعل شيئًا. لكن لكي تختار حقلًا صغيرًا من النشاط، رتّبْ عزبتك الصغيرة، واحسم شؤون فلاحيك، وابنِ، وازرعْ كل ذلك تستطيع أن تقوم به ويجب أن تفعله، ولن أتركك وحيدًا. والآن أنا لا أنفّذ رغباتك فحسب بل إرادة أولغا أيضًا: إنها قلقة هل تسمع؟ من أنك يجب أن لا تموت كليًا، وأن لا تدفن نفسك حيًا، وقد وعدتها أن أنبشك وأخرجك من قبرك.

صاح أبلوموف بانفعال:

إنها لم تنسني بعد! هل أستحق كل ذلك؟

كلا، إنها لم تنسكَ، وإذا ما سألتني، فإنها لن تنساكَ: إنها ليست من النوع العادي من النساء. وهي تتوقع منكَ زيارة لعزبتها.

ليس الآن، باللهَّ عليك، ليس الآن يا أندريه! دعني أنسى. آه، هنا ما زال...

وأشار إلى قلبه.

سأل شتولتس:

ماذا يوجد هنا؟ أكيد ليس حبًا؟

أجاب أبلوموف بحسرة:

كلا، الخزي والحزن!

حسنٌ، في هذه الحالة دعنا نذهب إلى عزبتك. يجب أن تتقدّم بالبناء الآن. إنه الصيف والوقت الثمين يمضي.

كلا، لديّ وكيل. إنه هناك الآن وأستطيع أن أذهب لاحقًا حين أكون جاهزًا وأفكّر بالأمر.

بدأ يتفاخر أمام شتولتس كيف أجاد في حسم شؤونه دون أن يبرح البيت. كان وكيله يجمع المعلومات حول الفلاحين الهاربين ويبيع حبوبه بثمن مناسب. لقد أرسل له مسبقًا 1500 روبل ومن المحتمل أن يجمع ويرسل ضريبة الفلاحين هذه السنة.

تلهّف شتولتس مندهشًا لهذه الحكاية.

قال:

آه، لقد تمت سرقتك من كل جانب! ألف وخمسمائة روبل من ثلاثمائة فلاح! من هو وكيلك؟ وأي نوع من الرجال هو؟

صحّح أبلوموف:

أكثر من ألف وخمسمائة روبل. دفعت لهُ أجره من النقود التي تسلّمها من بيع الحبوب.

كم؟

لا أتذكر. لكني سوف أريك حساباته فهي موجودة في مكان ما.
ختم كلامه:
حسنٌ، إيليا، أنت بائد فعلًا لقد حُكِمَ عليك بالهلاك! البس وتعال نذهب إلى منزلي.
بدأ أبلوموف يعترض، لكن شتولتس انتزعهُ تقريبًا بقوة، وكتب وثيقة إدارة الملكية باسمه، وجعل أبلوموف يوقّعها، وأخبره بأنه سوف يعرض أبلوموفكا للإيجار إلى أن يأتي أبلوموف بنفسه إلى الريف ويصبح معتادًا على الزراعة.
قال:
ستتقاضى مني ثلاثة أضعاف ما تتقاضاه الآن، لكني لن أبقى مستأجرًا عندك مدة طويلة لديّ شؤوني الخاصة التي يجب أن أديرها. سأكون في عزبة أولغا: إنها على بعد ثلاثمائة ميل من عزبتك. سوف أزورك في منزلك أيضًا. اطرد وكيلك، وقم بالترتيبات الضرورية، ثم يجب أن تأتي بنفسك. لن أتركك بسلام.
تنهّد أبلوموف وقال:
الحياة!
ماذا عن الحياة؟
إنها تظل تزعجك، ولا تمنحك السلام! أود لو أستلقي وأذهب إلى النوم للأبد!
ما تعنيه أنك تودُّ أن تطفئ الضوء وتبقى في الظلام! نمط لطيف من الحياة! آه، إيليا، لماذا لا تنغمس بفلسفة ضيقة في الأقل؟ سوف تومض الحياة كلمح البصر، وأنت تود الاستلقاء وتذهب إلى النوم! دع شعلة الحياة تستمر بالتوهّج! آه، ليتني أستطيع أن أعيش مئتين أو ثلاثمائة سنة!
وختم كلامه:
فكم من الأمور يمكن للمرء أن ينجزها حينئذ!
أجاب أبلوموف:

إنك مختلف تمامًا يا أندريه! فأنت تمتلك جناحين: إنك لا تعيش بل تطير. لديك مواهب وطموحات. أنت لست بدينًا. ولا تعاني من شحاذ العين. ولا تنتابك الشكوك المطّردة. إنك مخلوق بشكل مختلف إلى حدٍّ ما.

لا تتكلم بالهراء! الإنسان خُلق لكي يرتب حياته الخاصة ويغيّر طبيعته أيضًا، وأنت صار لك بطنٌ كبير، وتعتقد بأن الطبيعة أرسلت لك هذا العبء! كان لديك جناحان مرّة، لكنك انتزعتهما!

قال أبلوموف عابسًا:

جناحان؟ أين هما؟ لا أعرف كيف أفعل أي شيء.

قاطعهُ شتولتس:

تعني بأنك تريد أن تعرف. أؤكد لك بأنّ الإنسان الذي لا يعمل لا يكون له كيان.

قال أبلوموف:

حسنٌ، إني لا أقدر على شيء.

إذا ما سمعك أحدٌ سوف يعتقد بأنك لم تكتب رسالة رسمية إلى مجلس المدينة، ولا رسالة إلى مالك الأراضي الذي سكنت في شقته، بل كتبت رسالة إلى أولغا، أليس كذلك؟ وهل مزجت بين ضميري «الذي» للعاقل و«الذي» لغير العاقل فيها؟ وعثرت على ورق الرسائل الممتاز والحبر من المتجر الإنكليزي، وكان خط يدك أيضًا واضحًا ومقروءًا، أليس كذلك؟

احمرَّ أبلوموف خجلًا.

حين احتجتَ إلى الرسالة فإنّ الأفكار واللغة التي عبّرت بها أتت بنفسها. فهي جيدة بما يكفي لأية رواية! لكن حين لا تحتاج لها، حينئذ لا تعرف كيف تكتبها، ولا ترى عينيك ويديك ضعيفتين جدًا! فقدتَ قدرتك على فعل الأشياء في طفولتك، في أبلوموفكا بين العمّات والمربّيات. كل الأمر بدأ مع عجزك عن ارتداء جواربك وانتهى بعجزك عن العيش.

قال أبلوموف بحسرة وبشكل حاسم:

قد يكون ذلك صحيحًا يا أندريه، لكني أخشى أني لا أستطيع أن أحصل على عون فما فات لا يمكن إصلاحه!
أجاب شتولتس بغضب:
ماذا قصدك لا يمكن إصلاحه! يا له من هراء! أصغِ إلي وافعلْ ما أخبرك به وسوف ترى كيف يمكن إصلاح كل شيء!
لكن شتولتس غادر لوحده إلى الريف، وبقي أبلوموف ووعده بالمجيء إلى هناك في الخريف.
سأله شتولتس قبل أن يغادر:
ماذا سأقول لأولغا.
أحنى أبلوموف رأسه ونظر بحزن؛ ثم تنهّد.
قال أخيرًا وبدا مرتبكًا:
لا تذكرني لها. أخبرها بأنك لم ترني أو تسمع بي.
لن تصدّق.
حسنٌ، أخبرها بأني هلكتُ ومتُّ وضعتُ...
سوف تبكي وتبقى قلقة لمدة طويلة: لماذا تزعجها؟
استغرق أبلوموف في التأملات وتأثر بشكل كبير. وكانت عيناه مبلَّلتين.
ختم شتولتس كلامه:
حسنٌ جدًا إذن. سوف أخبرها بكذبة وأقول لها بأنك تعيش على ذكرياتك معها وتبحث عن هدف جدّي في الحياة. لاحظي من فضلكِ بأن الحياة نفسها والعمل يشكلان هدف الحياة لا المرأة؛ ذلك هو الخطأ الذي كنتما ترتكبانه معًا. كم ستكون راضية بذلك!
وتبادلا الوداع بينهما.

❋ ❋ ❋

(3)

في مساء اليوم الذي تلا عيد القديس إلياس التقى تارانتييف وإيفان ماتفتيتش مرة أخرى في الحانة.

أعطى إيفان ماتفتيتش أمره بشكل عابس:

شاي!

وحين جلب النادل الشاي وقنينة الروم دفع إيفان القنينة إلى الخلف غاضبًا.

قال:

هذا ليس مشروب الروم الأصلي، رائحته أشبه برائحة المسامير القديمة.

وتناول قنينته من جيب معطفه، ثم أزال فلّينتها وسمح للنادل أن يشمَّها.

علّق قائلًا:

لا تقدّم لي مشروبك المزيف مرة أخرى.

قال بعد أن ذهب النادل:

حسنٌ، يا صديقي، هل تبدو الأمور سارّة جدًا؟

ردّ تارانتييف بغضب:

كلا. أي شيطان دعاه إلى هنا! يا له من شرير هذا الألماني! مزّق وثيقة إدارة الملكية وعرَضَ العزبة للإيجار! أمر لم يُسمع به! سوف يبتزّ الحَمَلَ المسكين، أضمنُ لك ذلك.

لو عرف بما قمنا به، يا صديقي، فأخشى أن تحدث مشكلة. حين يكتشف بأنّنا جمعنا الضرائب من الفلاحين وتسلّمنا النقود، فربما يرفع ضدنا دعاوى جنائية.

دعاوى جنائية، فعلًا! أراك خِفْتَ يا صديقي! هذه ليست المرة الأولى التي يضع فيها زاتيورتي مخالبه في جيوب مَلاّكي الأراضي. إنه يعرف كيف يدير دفة القانون بثقة. وهل تعتقد بأنه يعطي وصولات الاستلام إلى الفلاحين؟ تأكدّ أنه لا يوجد غرباء حين يتسلّم النقود. سوف يفقد الألماني صوابه ويصرخ، وستكون تلك خاتمة المطاف. دعاوى جنائية، كلام فارغ!

قال إيفان ماتيفيتش مبتهجًا:

هل تعتقد ذلك؟
في هذه الحالة دعنا نشرب!
صبّ لنفسه ولتارانتييف بعضًا من مشروب الروم.
قال بارتياح:
حسنٌ. الأمور ليست سيئة كما تبدو أحيانًا وبالأخص بعد الشرب.
واستأنف كلامه:
في الوقت نفسه يا صديقي، من الأفضل لك أن تفعل ذلك: قم بوضع بعض الفواتير حسب رغبتك للحطب والملفوف أو ما شابه وسجِّلها دينًا على أبلوموف، بما أنّه نقل إدارة منزله إلى أختك واعرضها عليه. وحين يصل زاتيورتي سوف نقول بأن جميع الضرائب التي جمعها قد ذهبت لتغطية الديون المترتبة على أبلوموف.
لكن ماذا لو أخذ الفواتير وعرضها على الألماني؟ سوف يحصيها الألماني وربما...
هراء! سوف يضعها بعيدًا في مكان ما، ولن يعثر عليها حتى الشيطان نفسه. ما إن يأتي الألماني فإن الأمر بأكمله يكون قد تم نسيانه تمامًا.
قال إيفان ماتفيفتش وملأ كأسًا:
هل تعتقد ذلك؟ إذن فلنشرب يا صديقي. من المؤسف أن يختلط هذا المشروب الرائق بالشاي. شمّ رائحته: سعره ثلاثة روبلات. ما رأيك بطبق من حساء الملفوف المملح مع السمك؟
فكرة معقولة.
أيّها النادل!
بدأ تارانتييف يتكلم ثانية بغضب:
يا له من شرير! يقول دعني أستأجرهُ. آه، مثل هذا الأمر لن نقوم به نحن الروس! ففكرة الاستئجار لا يفعلها سوى الألمان. الحقول، العقارات المستأجرة؛ إنها أمور يهتمّون بها هناك. انتظرْ، فسوف يحتال عليه ويجرِّده من كل أمواله باستثمارها على شكل أسهم.

سأل إيفان ماتفيفيتش:

أسهم؟ ما هي الأسهم؟ أخشى أني لا أفهمها تمامًا.

قال تارانتييف بسخط:

إنها بدعة ألمانية! بعض المحتالين مثلًا لديهم فكرة عن بناء البيوت المقاومة للنيران ويتخذون على عاتقهم مسؤولية بناء مدينة: بالطبع يحتاج المشروع إلى المال فيبدأ ببيع الأوراق المصرفية على شكل أسهم، مثلًا بخمسمائة روبل لكل سهم، فيشتريها الكثير من الحمقى ويبيعها كل واحد للآخر. فإذا ما أعلن عن نجاح المشروع فإن سعر الأسهم يرتفع؛ وإذا ما فشل المشروع يحصل الإفلاس. ولا تبقى سوى الأوراق التي لا نفع منها. فتسأل: أين المدينة؟ فيقولون لك احترقت، أو لم يكن هناك رأس مال كاف لإكمال البناء، وفي الوقت نفسه يقوم المستثمر بالهروب بأموالك. هذه هي الأسهم! سيوقعه الألماني في ورطتها، تذكّر كلماتي. حتى إني أتساءل لماذا لم يورطه سابقًا. إني أقف في طريقه كما ترى، وأبذل ما بوسعي لكي أنقذ جاري من الدمار!

قال إيفان ماتفيفيتش كأنه ثمل قليلًا:

حسنٌ، أخشى أن ذلك الأمر قد تم إقراره والانتهاء منه. فلن نحصل على المزيد من الضرائب من أبلوموفكا.

أجاب تارانتييف وسكرَ قليلًا أيضًا:

آه، فليذهب إلى الجحيم يا صديقي! ألم تحصل على وفرة من المال؟ لديك مصدر لا ينفد خذ منهُ ولا تفترْ. فلنشرب.

ليس بمصدر كثير يا صديقي. كل ما تجمعه واحد وأوراق من فئة الثلاث روبلات طوال حياتك...

لكنك جمعتهُ لمدة عشرين سنة يا صديقي، فما الداعي لهذا التشكّي؟

أجاب إيفان ماتفيفيتش بغلظة:

هل قلت: منذ عشرين سنة؟ لقد نسيت أني كنتُ أعمل سكرتيرًا لمدة عشر سنوات. قبلها لم يكن لديّ سوى قطعة من فئة العشرة أو العشرين كوبيكًا

تصلصل في جيبي، وأحيانًا أخجل أن أقول بأنّ عليّ أن أجمع بضعة قطع نحاسية. يا لها من حياة مروّعة! آه يا صديقي، هناك ناس محظوظون في العالم الذين من أجل كلمة يهمسونها في أذن شخص ما أو سطر يملونه أو توقيع اسمهم على ورقة، فجأة ستنتفخ جيوبهم وكأن وسادة وضعت هناك، لكي يناموا عليها، آه.

وأخذ يصيح كالحالم بعد أن راح يثمل أكثر فأكثر:

لو بوسعي أن أقوم بأفعال مثل هذه! لن يراني المستدعون ولا يتجاسرون على الاقتراب مني. أدخل إلى عربتي وأصيح: «إلى النادي!» وسوف يحييني رجال بارزون يضعون نجومًا. ألعب الورق، لكن لا أراهن على خمسة كوبيكات! أما وجبات الطعام لديّ، فأخجل أن أذكر حساء الملفوف مع السمك إذ سوف يتلوَّى وجهي من التقزّز! دجاج جنوب أفريقيا في الشتاء؛ آه، سأحصل عليه بطلب خاص، والفراولة في نيسان! في البيت سوف ترتدي زوجتي قماشًا مطرّزًا حقيقيًا، وسوف يكون لدى أطفالي مربية، تلبسهم بذكاء وتمشط شعرهم بشكل جميل. آه يا صديقي العزيز، ثمة فردوس، لكنّ آثامنا تمنعنا من الدخول إليه. فلنشرب! ها هم يجلبون لنا حساء الملفوف!

قال تارانتييف وقد سكر سكرًا شديدًا بحيث بانت عيناه محتقنتين بالدم:

لا تدمدم يا صديقي؛ لقد حصلت على وفرة من المال مال وفير. خمسة وثلاثون ألف قطعة فضية. هذه ليست مزحة، أليس كذلك؟

قاطعهُ إيفان ماتيفيتش:

هدوء، هدوء يا صديقي. وما قيمتها؟ إنها مجرد خمسة وثلاثين ألفا. فكّر كم يستغرق الوقت لكي أجعلها تصل إلى خمسين ألف! إضافة إلى أنك لن تدخل الفردوس حتى بخمسين ألف! إذا ما تزوَّجتُ، عليّ أن أعيش بحذر، وأحسب كل روبل، وأنسى كل ما يتعلق بمشروب روم جامايكا يا لها من حياة تلك؟

لكن يجب أن تعترف يا صديقي، أنه نوع مريح من الحياة روبل من أحد الزملاء روبلان من آخر، وفي نهاية اليوم توفر سبعة روبلات. لا ضجر، لا أعباء، لا وصمة عار، لا دخان. إذا ما تطلب الأمر أن تضع اسمك في شأن كبير مرة،

فعليك أحيانًا أن تمضي حياتك كلها بألم وأنت تحاول أن تشطبه. كلا يا صديقي يجب أن لا تظلم نفسك!

لم يكن إيفان ماتفيفيتش يستمع؛ كان يفكّر بشي آخر.

بدأ فجأةً وفتح عينيه على وسعهما وكان مسرورًا بشيء بدا أنه أصبح أكثر اتزانًا:

استمع يا صديقي. لكن كلا! أفضّل أن لا أخبرك لا تستطيع أن تسمح لمثل هذا الطير البهي أن يحلق خارج رأسك إنه كنز حقيقي، إنه... فلنشرب يا صديقي، دعنا نشرب بسرعة!

قال تارانتييف وأبعد كأسه:

لن أشرب حتى تقول لي.

همس إيفان ماتيفيتش ونظر إلى الباب:

إنه شأنٌ مهم يا صديقي.

سأله تارانتييف بعد أن نفد صبره:

هلاّ قلتهُ؟

إنه لقية حقيقية بشرفي. كأنك تضع يا صديقي اسمك في قضية كبيرة.

باللهَّ عليك ما هو، هلاّ أخبرتني به.

إنه هِبة هِبة!

حثّه تارانتييف:

هيّا هلّا قلت؟

انتظر لحظة، يجب أن أفكّر. نعم، إنه مأمونٌ كالبيت، وشرعيٌّ جدًا. حسنٌ يا صديقي. سوف أخبرك، لأنّي أحتاج إليك، فأنا لا أستطيع تنفيذه دونك. وإلاّ فإني يجب أن لا أخبرك بأي شيء في العالم شاهدي اللهّ إنه نوع من السرّ الذي لا يمكن أن تبوح به لأي شخص.

وهل أنا غريب بالنسبة لك يا صديقي؟ لقد قدمت لك سابقًا العديد من الخدمات، كشاهد في المحكمة وناسخ للوثائق أتذكّر؟ يا لك من خنزير!

انظر هنا، زميلي العزيز، هلاّ أمسكت لسانك؟ أعرف أي نوع من الفتيان أنت دائمًا تفشي السر دون قصد!
قال تارانتييف منزعجًا:
ومَنْ اللعين الذي يسمعنا هنا؟ هل كنت دائمًا أنسى نفسي؟ لماذا تبقيني في حالة ترقّب وقلق؟ هيّا قله!
الآن استمعْ: أبلوموف جبان نوعًا ما، وليس لديه فكرة كيف تدار الأمور. لقد فقد صوابه بسبب ذلك العقد، ولم يعرف ماذا يفعل بوثيقة إدارة الملكية حين حصل عليها؛ حتى أنه لم يتذكر كمية الضرائب التي يجب على الفلاحين أن يدفعوها له. لقد أخبرني بنفسه بأنه لا يعرف شيئًا.
صاح تارانتييف نافد الصبر:
وماذا بعد؟
حسنٌ، كان يذهب إلى غرفة أختي في الكثير من الأحيان. وفي اليوم التالي جلس هناك حتى منتصف الليل وحين صادفني في الصالة تظاهر أنه لم يرني. لذا سيتوجب عليك أن تنتظر وترى ما سيحدث وسوف تأخذه جانبًا وتتحدث له عن الأمر. أخبره بأنه ليس من غير اللائق أن يجلب الخزي للأرملة وعائلتها، فالناس يتكلمون عن ذلك، وأنها في هذه الحال ستجد من المستحيل أن تتزوج مرة أخرى، وأنّ تاجرًا غنيًا تقدم لطلب يدها، لكن الآن حين سمعَ بأن أبلوموف يقضي المساء معها، لم يعد يبالي بمغازلتها وفسخ الخطوبة...
قال تارانتييف:
حسنٌ، ما سيحدث لاحقًا أنه سيصبح خائفًا، ويذهب إلى فراشه ويتأوه، ويلتفت من جانب إلى آخر مثل الخنزير ذلك كل ما في الأمر. كيف نتخلص منه؟ أين هبتك؟
لا تكن أحمق! تخبره بأني سأرفع شكوى ضدهُ، وإني كنت أراقبه، ولديّ شهود.
وماذا بعد؟

حسنٌ، إذا ما خاف خوفًا شديدًا، تستطيع أن تخبرهُ بأنَّ الموضوع بأكمله يمكن تسويته بطريقة ودية بالتضحية بمبلغ صغير.
سأل تارانتييف:
لكن من أين يحصل على المال؟ إذا ما خاف فإنه يعدك بأي شيء تريده، حتى عشرة آلاف روبل.
بمجرّد أن تغمز لي سوف أجعل سند الدَّين عليه جاهزًا باسم أختي، وتكتب في السند مثلًا: قام السيد أبلوموف باستدانة عشرة ألاف روبل من الأرملة فلانة، لكي يتم دفعها في غضون... إلخ.
وما الفائدة من ذلك يا صديقي؟ لا أفهم: فالنقود سوف تذهب إلى أختك وأطفالها. فما نحصل نحن؟
وأختي تعطيني سند الدين بالمبلغ نفسه. سوف أجعلها توقعه.
لكن ماذا لو رفضت ولم توقِّعهُ؟
مَنْ؟ أختي؟
وانخرط إيفان ماتيفيتش في ضحكة مدويّة.
سوف توقّع يا صديقي، لا تقلق. سوف توقِّع صك موتها دون أن تسأل ما هو. ستبتسم فقط. سوف تضع اسمها، أغافيا بشنتزين، وتكتبهُ عبر الصفحة بشكل ملتوٍ، ولن تعرف ماذا وقعّت. هل رأيت بأننا لا علاقة لنا بالأمر مطلقًا. سوف ترفع أختي دعوى ضد السكرتير أبلوموف، وسوف أرفع أنا دعوى ضد أرملة السكرتير بشنتزين. دع الألماني يطير صوابه إنه أمر شرعي تمامًا.
قال ورفع يديه المرتعشتين:
فلنشرب يا صديقي!
صاح الألماني مسرورًا:
شرعي تمامًا. فلنشرب!
وإذا ما نجحت الخطة دون عائق، نستطيع أن نجرّب أخرى في غضون سنتين. إنها مسألة شرعية تمامًا.

صاح تارانتييف مرة أخرى:
فلنجّرب أخرى!
وأومأ برأسه موافقًا ومستحسنًا الفكرة.
أخرى؟ لا أبالي لو أفعل.
وشربا.
قال إيفان ماتيفيتش:
الأمر الوحيد الذي أخاف منه هو أنّ أبلوموف قد يرفض ويكتب أولًا إلى الألماني. فإذا ما فعل ذلك وقعنا في الفخ! فلا نستطيع أن نقيم دعوى ضده: إنها أرملة، رغم ذلك، لا عانس.
قال تارانتييف:
يكتب؟ بالطبع سوف يكتب في غضون سنتين. وإذا ما رفض سوف أوبّخهُ بطريقة مناسبة.
كلا، كلا، لا سمَح اللهّ! سوف تفسد الأمر كله يا صديقي. سوف يقول بأننا أجبرناه، وربما يذكر أننا ضربناه وسوف يكون ذلك مدعاة لاتهامنا بالجريمة. كلا، ذلك لا ينفع. ما يمكن أن نفعلهُ هو أن ندعوه إلى وليمة ودية خفيفة أولًا فهو يحب جدًا شرب الفودكا المنقّعة بأوراق العنب. وما إن يسكر قليلًا حتى تغمز لي وسوف أجلب سنَد الدين. فهو لن ينظر حتى إلى المبلغ، ويوقّع العقد، وبعد أن يتم تصديقه عند الكاتب العدل يكون الوقت قد فاته لكي يقوم بأي شيء. إضافة إلى أنّ سيدًا نبيلًا مثله سيخجل من الاعتراف بأنه وقَّعها حين كان سكران. إنّ المسألة شرعية جدًا!
كرّر تارانتييف:
جدُّ شرعية!
فلتكن أبلوموفكا إذن من نصيبنا نحن ورثته!
آه، فلتكن! فلنشرب يا صديقي!
قال إيفان ماتيفيتش:

في صحة جميع الحمقى!
وشربا.

❊ ❊ ❊

(4)

يجب أن نعود الآن قليلًا إلى الوقت الذي سبق وصول شتولتس في عيد شفيع أبلوموف وفي مكان آخر بعيدًا عن فايبورغ. سوف يلتقي القارئ بناس يعرفهم، إذ لم يقل شتولتس لأبلوموف كل ما عرفه عنهم، إما لأسباب خاصة أو ربما لأن أبلوموف لم يسأل عنهم بما فيه الكفاية لأسباب خاصة به أيضًا.

في أحد الأيام كان شتولتس يمشي في شارع بباريس وينظر شارد الذهن إلى المارّة ولافتات المتاجر دون أن يتوقف عند أي شيء بالأخص. لم يتسلّم أي رسائل من روسيا منذ زمن طويل، لا من مدينة كييف أو أوديسا أو بطرسبورغ. كان ضجرًا، وبعد أن أرسل أكثر من ثلاث رسائل، عاد إلى البيت. وفجأة ومضت عيناه على شيء مندهشًا ثم استعادت تعبيرها العادي. عبرت الشارع سيدتان ودخلتا متجرًا. فكّر: «كلا، لا يمكن. يا لها من فكرة! كنتُ قد عرفتها! لا يمكن أن يكونا هما».

تطلع إلى نافذة المتجر وتحرَّى السيدتين من خلال الزجاج. «لا أستطيع أن أرى شيئًا! إنهما تقفان وظهرهما للنوافذ!». دخل شتولتس للمتجر وسأل عن شيء.

التفتت إحدى السيدتين إلى الضوء فميّز أولغا إلينسكي ولم يتعرف عليها! كان على وشك أن يندفع إليها، لكنه توقف وبدأ يراقبها بدقة. يا إلهي، كم تغيّرت! هي وليست هي. ملامحها نفسها، لكنها كانت شاحبة، وبدت عيناها غائرتين قليلًا، ولا أثر لابتسامة طفولية على شفتيها، ولا تحمل سذاجة أو رباطة جأش. كانت تطوف على حاجبيها فكرة حزينة مهيبة، وعيناها تصرّحان بالكثير مما لا يعرف ولا يقال من قبل. لم تعد تنظر نظرتها المعتادة الصريحة والهادئة والمخلصة سحابة من الحزن والذهول تغطي وجهها. تقدّم نحوها. تقلّص حاجباها قليلًا؛ نظرت إليه للحظة بذهول، ثم ميَّزتهُ؛ تفرَّق حاجباها واستقرّا بشكل متماثل، وشعّت عيناها بالضوء وبفرح هادئ وعميق لكن غير جامح. فرحت بلقائه كما يفرح الأخ حين تكون أخته المفضلة سعيدة بلقائه.

صاحت بصوت نفذ إلى الروح وكان يحمل فرحًا حد الانتشاء:

يا إلهي، هذا أنتْ؟
التفتت عمتها بسرعة وبدأ الثلاثة يتبادلون الحديث فورًا. عاتبهما لأنهما لم يكتبا إليه وقدمتا اعتذارهما. لقد وصلتا إلى باريس منذ يومين وكانتا تبحثان عنه في كل مكان. وفي أحد العناوين جرى إخبارهما بأنه قد رحل إلى مدينة ليون، ولم تعرفا ماذا تفعلان.
قال معاتبًا لهما:
ما الذي جعلكما تأتيان هنا؟ دون أن تكتبا كلمة واحدة لي!
قالت عمّة أولغا:
لقد عزمنا على السفر بسرعة فلم نكتب إليك. أرادت أولغا أن تكون مفاجأة لك.
ألقى نظرة على أولغا: لم يكن وجهها يؤكد كلمات عمتها. نظر إليها بإمعان لكنها كانت منيعة وعصية على الرصد والمراقبة.
فكّر شتولتس: ماذا حصل لها. اعتدتُ على تخمين أفكارها فورًا، لكن الآن، كم تغيرت!
قال بصوت عال:
كم كبرتِ يا أولغا سيرجييفنا! لم أستطع التعرف عليك مع أنه لم تمض إلا سنة منذ التقينا. ماذا كنتِ تفعلين؟ أخبريني!
قالت وفحصت بعض المواد:
آه، لا شيء.
سأل شتولتس:
كيف غناؤك؟
واستمرّ في تفحّص أولغا الجديدة وحاول أن يقرأ التعبير غير المألوف في وجهها؛ لكن تعبيرها ومض واختفى مثل البرق.
قالت بنغمة عابرة في صوتها:
لم أكن أغنّي منذ مدة طويلة، منذ شهرين أو أكثر.

سأل فجأةً:

وكيف حال أبلوموف؟ هل هو حيّ؟ هل يكتب لكِ؟

وكانت أولغا على وشك أن تبوح بسّرها لولا إسراع عمتها لنجدتها.

قالت ومشت خارج المتجر:

تصوّر أنه اعتاد على زيارتنا كل يوم، ثم اختفى فجأة. وبعد أن وضعنا ترتيباتنا للسفر إلى الخارج، أرسلتُ رسالة له، لكن قيل لنا بأنه كان مريضًا ولا يستقبل أحدًا؛ لذا لم نرهُ مرة أخرى.

سأل شتولتس أولغا باهتمام:

وأنتِ ألم تعرفي أي شيء عنه أيضًا؟

كانت أولغا تتفحص من خلال نظراتها عربة مارَّة.

قالت ونظرت إلى العربة باهتمام متكلّف:

لقد سقط مريضًا فعلًا. انظري عمتي إنّ رفاقنا في السفر مرُّوا بالعربة من هنا توًّا.

أصرّ شتولتس:

كلا، يجب أن تعطيني وصفًا كاملًا لصديقي إيليا. ماذا فعلتِ له؟ لماذا لم تصحبيه معك؟

قالت:

لكن عمتي قالت لك[66]. علّقت العمّة:

إنه كسول على نحو مخيف، وخجول جدًّا بحيث إنه ما إن يصل ثلاثة أو أربعة من ضيوفنا حتى يعود إلى البيت. تصوّر، إنه كان يحجز في الأوبرا للفصل كله ولم يكن يشاهد سوى نصف عروض الأوبرا!

أضافت أولغا:

إنه لم يسمع روبيني[67] حرّك شتولتس رأسه وتنهّد.

سأل شتولتس:

66بالفرنسية بالأصل Mais ma tante vient de dire

67مغني أوبرا إيطالي.

كيف قررتما أن تذهبا إلى الخارج؟ هل تمكثا طويلًا؟ وما الذي أوحى إليكما بالفكرة فجأةً؟

قالت العمة وأشارت إلى أولغا:

إنها هي. حسب نصيحة الطبيب. كان لبطرسبورغ تأثير سيئ جدًا على صحتها، فانصرفنا في الشتاء، لكننا لم نقرّر بعد أين نقضيه في مدينة نيس أو في سويسرا.

قال شتولتس:

نعم لقد تغيّرتِ كثيرًا ونظر إلى أولغا بإمعان وراح يتفحص كل ملامح وجهها.

أمضت أولغا وعمتها ستة أشهر في باريس؛ كان شتولتس ملازمًا لهما يوميًا ورفيقهما ودليلهما الوحيد. بدأت صحة أولغا تتحسن بشكل واضح؛ وفسح تفكيرها المجال للهدوء واللا مبالاة، ظاهريًا على أية حال. من المستحيل وصف ما يعتمل داخلها، لكنها عادت فأصبحت تدريجيًا تكن الودّ لشولتس، على الرغم من أنها لم تعد تنخرط كالسابق في الضحكة الرنانة الطفولية، بل تبتسم فقط بشكل متحفّظ حين يحاول شتولتس أن يضحكها. أحيانًا تبدو منزعجة حين تعجز عن الضحك.

أدرك فورًا بأنه يجب عدم إضحاكها بعد: كانت تستمتع غالبًا إلى بعض نكاته المضحكة بعبوس بين حاجبيها المرسومين بشكل غير متماثل، وتنظر إليه بصمت، كأنها تعاتبه بسبب خفّتهِ، أو ينفد صبرها معه؛ وبدلًا من أن تستجيب لنكاته، تسأله فجأةً بعض الأسئلة الجدّية وتلاحقه بنظرة ملحّة بحيث كان يشعر بالخجل من كلامه الفارغ غير المشوّق. في بعض الأحيان كانت تبدو متعبة جدًا من التهافت اليومي الذي لا معنى له واللغو الذي يثيره شتولتس فجأة حين يتداول بعض المواضيع التي من النادر من يناقشها قسرًا مع النساء. كم كان عليه أن يصرف الكثير من التفكير والدهاء العقلي لكي تصبح عينا أولغا المتساءلتين العميقتين مشرقتين وهادئتين بحيث لا تجدّان في طلب السؤال من شخص آخر. كم كان مستاءً حين أصبحت نظرتها جافة وصارمة، نتيجة التفسير المهمل، وحاجباها متقلّصَين، وظلٌّ من الاستياء الصامت العميق وقع فوق وجهها.

وكان عليه أن يقضي يومين أو ثلاثة أيام لاحقة في استعمال كل الرقة والبراعة التي كان قادرًا عليهما، وكل حماسته ومهارته في التعامل مع النساء، لكي يعيد، تدريجيًا ودون صعوبة، بصيص الصفاء في وجه أولغا ورقة الاسترضاء في عينيها وابتسامتها. أحيانًا كان يعود في المساء يمزقه هذا الصراع، وكان سعيدًا حين خرج منه منتصرًا. «يا إلهي كم نضجت! كم تطورت هذه البنت الصغيرة! من كان أستاذها؟ من أين أخذت دروسها في الحياة؟ هل من البارون؟ لكنه كان من اللطف بحيث لا تستطيع أن تتعلم شيئًا من عباراته التي يحوّلها ويختارها بعناية! أليس من إيليا بالتأكيد؟» لم يكن بوسعه أن يفهم أولغا، وهرع إليها ثانية في اليوم التالي؛ لكن في هذه المرة قرأ تعبيرها بحذر وخوف؛ وأحيانًا شعر بالحيرة، وكان ذكاؤه ومعرفته بالحياة قد ساعداه على التعامل مع المسائل والشكوك والطلبات وكل شيء آخر تنبّأ به في ملامح أولغا. بوجود شعلة التجربة في يديه، توغّل داخل متاهة عقلها وشخصيتها، وفي كل يوم اكتشف حقائق جديدة وميزات جديدة، لكنه كان بعيدًا عن سبر أعماقها، فكان يراقب بدهشة وحذر فحسب كيف أنّ عقلها طلب قوته اليومي وكيف أن روحها لم تتوقف عن التماس الحياة والتجربة. في كل يوم كانت حياة ونشاط شخص آخر مرتبطة بحياة شتولتس ونشاطه. بعد أن أحاط أولغا بالزهور والكتب والموسيقى والألبومات توقّفَ شتولتس عن القلق لأنهُ أتاح الكثير من الأمور لتنشغل بها صديقته في ساعات فراغها، وذهب لكي يعمل، أو يفحص منجمًا أو حقلًا نموذجيًا، أو يلتقي بحلقة من الرجال الجدّد أو البارزين ويتبادل معهم الآراء؛ ثم يرجع إليها مرهقًا، لكي يجلس أمام آلة البيانو وينعم بنغمة صوتها. وفجأة كان يجد في وجهها أسئلة جديدة وفي عينيها طلبًا مُلحًّا للإجابة. كان يخبرها تدريجيًا بشكل لا إرادي بما رآه في ذلك اليوم. أحيانًا كانت تعبّر عن رغبة في تعليم نفسها ورؤية ما قد رآه وتعلّمه. وكان ينهمك في عمله مرة أخرى إذ يذهب معها ليفحص بناية أو مكان ما أو محّرك، أو يقرأ عن بعض الأحداث التاريخية المنقوشة على الأحجار والجدران. ورويدًا رويدًا اكتسب بشكل غير مدرك عادة التفكير والشعور

بصوت عالٍ بحضورها؛ وفي أحد الأيام اكتشف فجأة، بعد أن أخضع نفسه إلى الفحص الذاتي الصارم بأنّ ثمة شخص ما يشاركه حياته، وأنّ هذا الأمر قد بدأ في اليوم الذي التقى به أولغا. بدأ بشكل لاواعٍ، كأنهُ يتكلم مع نفسه، في التخمين، بصوت عال بحضورها، ثيمة بعض الثروةً التي اكتسبها، وكان معجبًا بنفسه ونفسها؛ ثم دقّق بعناية ليرى إن كان ثَمَّ سؤال ما زال باقٍ في عينيها، وإن كان وميض التفكير المقنع قد انعكس في وجهها، وإن كانت عيناها تلاحقانه كونه فاتحًا منتصرًا. فإن كان الأمر كذلك، فإنه عاد إلى البيت بكبرياء وعاطفة متوجّسة، وحضّر نفسه عدة ساعات في الليل لليوم التالي. كان العمل الممل الذي لا مفر منه لا يبدو جافًا بالنسبة له، بل لا مفر منه فحسب: فدخلَ عميقًا داخل أساس ونسيج الحياة ذاتها؛ الأفكار والملاحظات والأحداث لم يتم إبعادها بشكل مهمل وبصمت داخل أرشيف الذاكرة، بل كانت تمنح لونًا لامعًا لكل يوم يمر.
يا لهُ من وهج دافئ ينتشر فوق وجه أولغا الشاحب، حين كان يسرع، دون انتظار نظرتها المتسائلة المتلهفة، إلى رمي تجهيزات طازجة ومواد جديدة أمامها، بحماسة ونشاط! وكم كان سعيدًا تمامًا حين أسرع عقلها، بقلق مماثل وإذعان ساحر، في التقاط كل كلمة ونظرة منه؛ كان كل منهما يراقب الآخر بحماس: نظر إليها ليرى إن كان ثَمَّ تساؤل في عينيها، ونظرت له لترى إن كان ثَمَّ شيء قد تركه ولم يقله أو نسيه، أو في أسوأ الأحوال، إن كان لا سامح اللهّ قد أهمل فتح زاوية مظلمة ما زالت غير قابلة للفهم بالنسبة لها، أو أنه أهمل تفكيره بشكل كامل. كلما كان الموضوع مهمًّا ومعقّدًا راح يشرحهُ لها بعمق، وكلما كانت نظرتها المقدّرة المركّزة عليه أطول وألطف أصبحت أكثر دفئًا وعمقًا وحنانًا.
فكرّ بدهشة: «تلك الطفلة أولغا فاتني!» أخذ يفكّر بأولغا كما لم يفكّر بشيء آخر. في الربيع يسافر الجميع إلى سويسرا، وقرر شتولتس مسبقًا وهو في باريس بأنه لا يمكن أن يعيش دون أولغا.
وبعد أن حسم المسألة بدأ يتساءل إن كان يمكن لأولغا أن تعيش دونه أم لا. لكن ذلك السؤال من الصعب الإجابة عنه. فقد فهمه ببطء، وبحذر واحتراس، والآن

يشق طريقه، الآن يتقدم بجرأة، وفكّر بأنه قد وصل عمليًا إلى هدفهِ بعد أن لمح علامة ونظرة وكلمة وضجر أو فرح لا يمكن خطؤه: خطوة أخرى، حركة ممكن إدراكها من حاجبَي أولغا، حسرة، وسوف يتم حل اللغز غدًا: إنها تحبّه! يمكن أن يقرأ في وجهها ثقة طفولية تقريبًا فيه؛ أحيانًا كانت تنظر إليه كما لم تنظر لأي أحد، عدا نظرتها إلى أمها ربما، لو كانت لها أم. اعتبرت زياراته وحقيقة أنه كان يخصص كل وقت فراغه لها ويقضي الأيام محاولًا أن يدخل السرور إلى قلبها، لا من أجل مصلحة أو حضور مداهن للحب، أو فعل تودّد، بل ببساطة كونه التزامًا، كأنه كان أخاها وأباها أو حتى زوجها: وتلك هي صفقة كبيرة، ذلك كل شيء.

كانت بنفسها حرة ومخلصة معه في كل كلمة تلفظها وفي كل خطوة تتخذها بحيث إنه لم يستطع أن يغالب الشعور بأنه مارس سلطة لا جدال فيها عليها. عرف أنه امتلك مثل هذه السلطة عليها. فهي تؤكد ذلك في كل لحظة، وتخبرهُ بأنها آمنت به وحده ويمكن أن تعتمد عليه بشكل أعمى في الحياة كما لم تعتمد على أي أحد في العالم كله. كان بالطبع فخورًا بذلك، لكن حينئذ كان يمكن لأي قريب كهل وذكي ومجرّب أن يكون فخورًا به، حتى البارون، لو كان رجلًا صاحب ذكاء وشخصية. لكن هل كان ذلك نوعًا من السلطة مارسها رجل على محبوبته؟ تلك هي المسألة!

هل امتلكت سلطته خيانة الحب المغرية تلك، وذلك العمى المداهن الذي من خلاله تكون المرأة جاهزة لأن تكون خاطئة بشكل قاس وسعيدة بخطئها؟ كلا، لقد خضعت له بوعي. حقًا أنّ عينيها توهَّجتا حين كان يطوّر فكرة أو يعرض لها روحه عارية؛ حدّقت فيه بعينين ساطعتين، لكنه استطاع دائمًا أن يخبرها لماذا كانت تفعل ذلك؛ أحيانًا كانت تخبره السبب بنفسها. لكن الجدارة في الحب تكتسب بشكل أعمى ودون أي سبب مقصود، وفي هذا العمى وعدم القصد تكمن السعادة.

لو تعرَّضت للانتهاك لعرَفَ من انتهكها.

لم يمسك بها وهي تتورّد خجلًا فجأةً من غير قصد، أو غلبها الفرح المتاخم للخوف، أو تنظر إليه نظرة ملتاعة متوهِّجة؛ لو حدث شيء من هذا النوع لو فكّر بأنها نظرت إليه ساخطة حين أخبرها بأنها ستود الذهاب إلى إيطاليا في بضعة أيام وأنّ قلبهُ قد خفق بشدة في إحدى اللحظات النادرة والثمينة لبدا كل شيء فجأة مخفيًا تحت حجابٍ مرّةً أخرى. قالت بشكل ساذج وصريح:

للأسف، لا أستطيع أًن أذهب هناك معك. أتمنى ذلك، لكني أتوقع أن تحكي لي عن كل ما رأيته بحيث أشعر كأنني كنت هناك بنفسي. وبطُلَ السحر بواسطة الرغبة الصريحة المعبّرة، التي لم تستطع أن تخفيها عن أحد، وهذا الإطراء القبيح والرسمي لقواه السردية. حالما جمعَ كل الخيوط ونجح في نسج الشبكة الرقيقة المطرَّزة وكان عليه فقط أن يعزّز العروة الأخيرة الثابتة الآن لحظة أخرى وستصبح فجأة ثانيةً هادئة متزنة وأحيانًا باردة فعلًا. سوف تجلس وتواصل عملها، مصغية له بصمت، ورافعة رأسها من وقت لآخر، وتنظر إليه بتلك الطريقة المتسائلة والفضولية والواقعية بحيث إنه كان يرمي لأكثر من مرة الكتاب بغضب، أو يتوقف فترة وجيرة عن الشرح، ويقفز من مقعده، وينصرف. لو استدار لأدرك نظرتها المفاجئة وشعر بالخجل، فيعود ويخترع بعض الأعذار. أصغت له ببساطة طبيعية وصدَّقت الأمر. لم ترتَبْ به في الأقل؛ ولم يكن هناك حتى شبحُ ابتسامة ماكرة على شفتيها. تساءل: «هل تحبني أم لا؟». لو كانت تحبّهُ فلماذا هي متحفِّظة وحذرة جدًا؟ ولو كانت لا تحبّه، فلماذا كانت خانعة جدًا وفي غاية القلق من توقّع رغباته؟ كان عليه أن يسافر إلى باريس ولندن لمدة أسبوعين، وجاء ليخبرها حول سفره في نفس اليوم الذي كان يغادر فيه، دون أي إنذار سابق. لو جفلت فجأة أو تغيّر لونها، فذلك هو الحب، فاللغز تم حلّه، وكان سعيدًا! لكنها صافحتهُ بثبات وبدت حزينة: فامتلأ يأسًا.

قالت:

سوف أشتاق إليكِ كثيرًا. أكاد أبكي وأشعر بأني يتيمة يا عمتي.

وأضافت بحزن:

انظري سيد شتولتس سيسافر.
كانت تلك القشة الأخيرة. فكّر: «إنها تلتفت إلى عمتها. تلك هي الغاية! أستطيع أن أرى بأنها آسفة لذهابي، وأنها تحبني، ربما هذا النوع من الحب يمكن أن يشترى مقابل ثمن يشمل الكثير من الوقت والانتباه والتودّد...». فكّر بقنوط: «لن أرجع. كيف تحبّ ذلك؟ أولغا الفتاة الصغيرة آه، اعتادت أن تفعل كل شيء أطلبه منها! فما الذي حدث لها؟» واستغرق في التفكير العميق.
ما الذي حصل لها؟ كان ثَمَّ أمرٌ صغير لم يكن يعرفه: بأنها قد أحبَّتهُ طالما كانت قادرة، مرّت عبر فترة من عدم سيطرة الفتاة على نفسها، والخجل المفاجئ، وألم القلب الخفي الخطير وأعراض الحب المحمومة والغيرة الأولى. لو عرف هذا لاكتشف إن كانت تحبه أم لا، أو على الأقل لماذا كان من الصعب تخمين ما الذي حصل لها.
في سويسرا شاهَدوا كل مكان يذهب إليه السيّاح، لكن في الكثير من الأحيان كانوا يرغبون في البقاء في الأماكن غير المألوفة التي قلَّما تُزار. كانوا، وبالأخص شتولتس، منهمكين جدًا بشؤونهم الخاصة، وكانوا مرهقين من السفر، الذي يعتبرونه ذا أهمية ثانوية. ذهب معها ليتنزها في الجبال، ونظر إلى الجُرُف والشلالات وكانت في واجهة كل مشهد طبيعي. كان يمشي وراءها في ممر ضيّق، بينما بقيت عمتها جالسة في العربة تحت؛ كان يراقبها بحماس وبشكل سرّي، ويتوقف حين تصل إلى القمة وتلتقط أنفاسها، ويتساءل كيف ستنظر إليه، لأنها كانت تنظر إليه في المقام الأول؛ ليس هناك شكٌّ في عقله حول ذلك الآن. لقد كان الأمر استثنائيًا: جعل من قلبه دافئًا وفرحًا، لكن حينئذ كانت توجِّه فجأة نظرة إلى المنظر الطبيعي، وتقف مفتونة ومستغرقة في تأمل حالم ولم تعد تهتم به كأنه غير موجود هناك. في اللحظة التي كان يتحّرك ويعرّف نفسه بها، أو يتلفظ بكلمة، كانت تجفل وأحيانًا تصيح. كان من الواضح أنها نسيت إن كان بجانبها أو بعيدًا عنها أو في الواقع إن كان موجودًا أصلًا. لكن بعد ذلك، وفي البيت، عند النافذة أو في الشرفة، كانت تتكلم إليه على انفراد عدة ساعات، وتصف انطباعاتها طويلًا

حتى تضعها كلها على شكل كلمات وسرعان ما تفهم تعبيرًا أوحى به، وكان يتلقَّط في عينيها نظرةً من الاعتراف بالجميل لمساعدته. أو أنها تجلس في كرسيّ كبير، شاحبة بسبب التعب، وسوف تخبرهُ عيناها المتلهفتان والنشطتان بأنها تريد أن تستمع له.

كانت تستمع له دون حركة أو لفظ كلمة، ودون إغفال أي تفصيل. حين يصمت، تبقى تستمع، وعيناها تظلان تسألانه، وجوابًا على تحديه الصامت، يستمر بالكلام بقوة وحماسة جديدتين. سيكون الأمر رائعًا: شعر بالدفء والفرح، وكان قلبه يخفق سريعًا، وذلك كان يعني بأنها عاشت في الحاضر وبأنها لم ترغب بشيء أكثر. فنورها وطموحها وعقلها كانوا بجانبها. لكنها كانت تنهض فجأةً وهي تبدو مرهقة، وتلكما العينان المتسائلتان لها تطلبان منه أن ينصرف وإلا فإنها تصبح جائعة وتأكل بنهم. وكل ذلك كان أمرًا رائعًا: لم يكن حالمًا؛ لم يرغب بحبّ جامح شأنه شأن أبلوموف، لأسباب مختلفة. غير أنه كان يود لو أنّ شعوره يجري بتيار هادئ وعريض، لكن ليس قبل أن يغلي أولًا ويجيش بحرارة عند المنبع، لكي يستطيعا أن يغرفا منه ويشربا بكفاية، وبعد ذلك يعرفان حياتهما التي كان يجري منها نبع السعادة.

صاح بألم مبرّح بسبب الإثارة والاضطراب:

هل تحبني أم لا تحبني؟

وكان على وشك أن ينخرط في الدموع تقريبًا ويصيبه انهيار عصبي.

أصبح هذا السؤال هاجسًا تملّكه، وانتشر مثل شعلة وشلّ غاياته: أصبح مسألةً لا حبًّا، لكن مسألة حياة أو موت. لم يكن ثمة في قلبه مجال لأي شيء آخر الآن.

كأنه في هذه الأشهر الستة جرّب كل آلام الحب وعذاباته التي كان يتجنبها بمهارة في علاقاته مع النساء.

شعر بأنّ قوامه القوي سوف ينهار لو أنّ هذا التوتّر في عقله وإرادته، وأعصابه استمرّ لعدة أشهر. فهمَ ماذا فشل في فهمه لحد الآن كيف أن قوى الإنسان ضاعت في هذا الصراع السرّي للروح مع العاطفة، وكيف أن الجراح العضال غير

الدامية مسلَّطة على القلب وترفع من صرخات الألم وكيف أن الحياة ربما تضيع. فقد بعض من ثقته المتغطرسة في قواه؛ لم يعد يطلق النكات وهو منشرح حين يسمع قصص الناس الذين يخرجون عن صوابهم أو يذبلون لأسباب مختلفة، ومنها الحب. كان خائفًا.

قال:

سأضع حدًّا لكل هذا. سأعثر على ما يكمن وراء عقلها، كما اعتدتُ على ذلك من قبل، وغدًا إما سأكون سعيدًا أو أنصرف! لا أستطيع أن أتحمل أكثر!

وتابع ناظرًا إلى نفسه في المرآة:

لا أشبه أحدًا على الأرض كفى!

ثم ذهب مباشرةً إلى هدفه، أي إلى أولغا.

وماذا بشأن أولغا؟ ألم تلاحظ الحالة التي كان فيها أم أنها كانت لا تبالي به تمامًا؟ لم تتمالك نفسها من ملاحظة ذلك: النساء أقل براعة في معرفة كيفية التمييز بين الإخلاص والود وأفعالِ الطيبة والتعبير الرقيق عن شعور آخر. لا يمكن للمرء أن لا يتهمها في كونها عابثة، لأنّه كان لديها فهمٌ صحيحٌ للأخلاق الحقيقية غير التقليدية وغير المنافقة. كانت فوق مثل هذا الضعف القبيح تستطيع أن تفترض فقط، دون أن يكون شيء خاص في عقلها، بأنها أحبت التوقير، وأنها ممتلئة بالشغف والفهم لرجل مثل شتولتس. بالطبع أحبّت ذلك: هذا التوقير منح التعويضات لشعورها الأليم بالاحترام الذاتي ووضع تدريجيًا ظهرها على القاعدة التي سقطت منها؛ رويدًا رويدًا كان كبرياؤها ينتعش من جديد. لكن ما فكَّرت به سيكون نهاية هذا التوقير؟ يمكن أن لا يستمر دائمًا في التعبير عن نفسه على شكل صراع مستمر بين عقل شتولتس المُحقّق وصمتها العنيد. هل أدركت، على أية حال، بأن كلّ هذا الصراع لم يكن عبثًا وأنه سوف يكسب الدعوى التي من أجلها أنفق الكثير من الإرادة والعزم؟ هل أنفق كل انفعاله وذكائه عبثًا؟ هل ذابت صورة أبلوموف وحبّها القديم في أشعته؟ لم تفهم أي شيء من هذا، لم يكن لديها مفهوم واضح عنه، وصارعت بيأس مع هذه الأسئلة، مع نفسها، ولم تعرف

كيف تهرب من هذه الفوضى. ماذا يجب عليها أن تفعل؟ يمكن أن لا تبقى في حالة من الحيرة والتردد: عاجلًا أم آجلًا هذا الصراع الصامت والمتفاعل للعواطف، المحبوس في صدريهما سيفسح الطريق إلى الكلمات ماذا يمكن أن تخبرهُ عن ماضيها؟

كيف تصفهُ له وكيف ستصف شعورها لشتولتس؟ لو كانت تحبه فماذا كان حبها الأول؟ المغازلة والعبث، أم الأسوأ؟ تورّدت من الخجل وأحست بالحرارة من هذه الفكرة. لن تتهم نفسها بذلك. لكن لو كان ذلك هو حبّها الأول الخالص فما الداعي لعلاقاتها مع شتولتس؟ مرة أخرى اجتذبهُ اللعب والخيانة والحساب الدقيق إلى الزواج لكي يغطّي عبث علاقته بها؟

أصبحت باردة وشاحبة بسبب الفكرة ذاتها. لكن إن لم تكن لعبة أو خيانة أو حساب... فهل هو الحبّ مرة أخرى؟ لكن مثل هذا الافتراض جعلها تشعر بشدة بالضياع: حبٌّ ثانٍ بعد سبعة أو ثمانية أشهر من الحب الأول! من يصدّقها؟ كيف أمكنها أن تشير إليه دون أن تثير المفاجأة، وربما الازدراء! لم تجرؤ على التفكير فيه. ليس لديها الحق في ذلك. نقّبت في ذاكرتها: لم يكن ثمة شيء عن الحبّ الثاني. تذكرت آراء عماتها المتسلطة، وخادماتها العجائز، وكل أنواع الناس الأذكياء، وأخيرًا الكتّاب والخادمات و«فلاسفة الحب» ومن جميع الجوانب سمِعتْ الحُكم الذي لا مفرّ منهُ: «المرأة تحب بصدق مرة واحدة فقط» وقد أعلن أبلوموف أيضًا نفس الحكم سابقًا. تذكّرت سونيا وتساءلت عما قالتهُ حول الحب الثاني، لكن الزائرين من روسيا أخبروها بأنّ صديقة لها كانت مشغولة سابقًا بحبّها الثالث.

كلا، لقد قرّرت بأنها ليست لها علاقة حب بشولتس، وفعلًا لا يمكن أن توجد تلك العلاقة! فقد أحبّت أبلوموف، وقد مات ذلك الحب وذبلت زهرة الحياة للأبد!

كانت مجرد صداقة فقط مع شتولتس، مودّة قائمة على ميزاته الذكية وصداقته معه ونباهته وثقته.

ولهذا السبب فقد استبعدت الفكرة، أو حتى إمكانية الحب لصديقها القديم. كان هذا هو السبب الذي مكَّن شتولتس من أن يكتشف في وجهها أو كلماتها أي علامة على اللا مبالاة الإيجابية أو اللمحة الخاطفة وحتى شرارة الشعور التي تجاوزت بشق الأنفس حدود الصداقة الدافئة والودية لكن العادية. كانت ثمة طريقة وحيدة لإنهاء كل ذلك فورًا: إذ بعد أن لاحظت الأعراض الأولى للحب في شتولتس، يجب أن ترحل فورًا، وبذلك تقطَّع حبّه وهو لم يزل برعما. لكن الأمر كان متأخرًا جدًا: لقد حدث منذ وقت طويل، إضافة إلى أنها يجب أن تتوقع بأنّ شعورها سوف يتطوَّر حتى يصبح شغفًا؛ إنه يختلف عن أبلوموف: فهي لم تستطع أن تهرب منه إلى أي مكان. حتى لو كان ممكنًا جسديًا إلا أنه غير ممكن لها أخلاقيًا أن ترحل. في البداية تمتعت فقط بحقوق الصداقة القديمة، ووجدت كالسابق في شتولتس أما صحبة عابثة ظريفة وساخرة أو مراقبًا حقيقيًا عميقًا للحياة ولكل شيء أثار اهتمامها. لكن كلما التقيا بصورة متكررة أصبحا أكثر حميمة وتطورًا روحيًا كما أصبح دوره أكثر حيوية: تحول من مجرد مراقب للأحداث إلى مفسرها ودليلها، وظهرت حقوق جديدة وروابط سرّية أربكت حياتها بأكملها، عدا زاوية أثيرة أخفتها بعناية من مراقبته وحكمه. لقد تقبَّلت هذه الحماية الروحية لقلبها وعقلها، ورأت بأنها من ناحيتها اكتسبت تأثيرًا عليه. لقد تبادلا الحقوق:

وسمحت لهذا التبادل أن يحدث إلى حدّ ما دون مراقبة أو حديث عنه. كيف تستطيع الآن أن تنتزعه كله مرة أخرى؟ كما أنه كان يحمل الكثير من الدعابة والمتعة والتنوع والحياة. ماذا ستفعل لو أنها حرمت منه؟ وعلى أية حال، حين طرأت على ذهنها فكرة الهروب، فقد كانت متأخرة جدًا؛ ولم تمتلك القوة الكافية لتنفيذها. كل يوم لا تقضيه معه، وكل فكرة لا تأتمنها عليه ولا تشاركها بها معه، تفقد طعمها ومعناها. فكّرت: «يا إلهي، لو استطعت أن أكون أختهُ! ما أسعد أن تمتلك مطالب دائمة من رجل كهذا! لا من ذهنه فحسب بل من قلبه أيضًا، لكي تتمتع بحضوره بطريقة سخية ومشروعة، دون تقديم تضحيات كبيرة من أجل

ذلك وخيبات أمل واعترافات عن الماضي البائس. والآن، ماذا أفعل؟ إذا ما رحل فليس لي الحق في إبقائه، بل أيضًا يجب أن أرغب بأن أفترق عنهُ؛ وإذا ما أبقيتهُ فماذا عليّ أن أقول له؟ وأي حق لي في الطلب بأن أراه وأسمعه في كل دقيقة؟ هل لأني ضجرة وأشعر بالبؤس، ولأنهُ يعلمني ويسلّيني ولأنه يفيدني ويسرّني؟ ذلك هو السبب بالطبع، لكنه ليس حقًا لي. ماذا سأمنحهُ مقابل ذلك؟ أن أمنحهُ الحق في الإعجاب بي بلا اهتمام دون أن يجرؤ على التفكير بالتبادل في حين أنّ العديد من النساء يعددن أنفسهنّ محظوظات...».

كانت تعِسة ومرهقة بسبب التفكير في التخلص من هذا الموقف، ولم ترَ أي نهاية له، ولا غاية فيه. كل ما تبقى لها من مستقبل كان يحمل الخوف من خيبة الأمل والافتراق عنه للأبد. أحيانًا كان يخطر في بالها أن تخبرهُ عن كل شيء وبذلك تنتهي من صراعها وصراعه، لكن شجاعتها خانتها في اللحظة التي فكرت بالأمر.

شعرت بالخجل والتعاسة. كان الأمر الغريب أنها توقفت عن احترام الماضي، حتى أنها بدأت تخجل منه منذ أن لازمت شتولتس وسيطر على حياتها، لو عرفه البارون مثلًا أو أي شخص آخر لشعرت بالطبع بالارتباك والقلق، لكنها لن تعذب نفسها كثيرًا، كما تفعل الآن، من فكرة أن شتولتس ربما يكتشف الأمر. تصورت تعبير وجهه بشكل مرعب، وكيف أنه سيبدو لها، وماذا سيقول، وماذا سيفكّر بعد ذلك. ستظهر له فجأة ضعيفة وتافهة ولا تساوي أي شيء بالنسبة له. كلا، كلا، لا يمكن أن يحصل مثل ذلك في العالم! بدأت تراقب نفسها، وكانت خائفة من اكتشاف خجلها لا من مسألة حبّها فحسب، بل أيضًا من بطل هذا الحب...

وكانت مرهقة ونادمة من عدم الرد بالجميل للإخلاص العميق لعشيقها السابق. ربما نشأت معتادة على خجلها وأحرزت قصب السبق فيه ما الذي لم يتعود عليه المرء؟ ليت صداقتها لشتولتس خلت من أية أفكار ورغبات أنانية. لكن لو نجحت في كبت همس قلبها الماكر والمداهن، فلن تستطيع أن تسيطر على تحليق خيالها: فقد ظهرت الصورة المشرقة لهذا الحب الآخر أحيانًا أمام عينيها؛ حلم

السعادة الرائعة على حلبة واسعة من الحياة متعددة الجوانب، بكل أعماقها وأحزانها وأفراحها أصبحت سعادتها مع شتولتس، وليس مع أبلوموف النعسان والمتراخي، أكثر إغراءً. حينئذ كانت تذرف الدموع على ماضيها ولم تتمكن من جرفهِ. استيقظت من حلمها وبحثت عن ملجأ أكثر من مرة ما وراء الحائط الصلد للصمت واللا مبالاة الودية التي شعر بها شتولتس كونها لا يمكن تحملها. وبعد أن تنسى نفسها، كان يكتسحها بشكل غير أناني حضور صديقها، وتكون فاتنة ولطيفة وواثقة إلى أن يذكرها حلم السعادة التي صادر حقها، بأن مستقبلها قد ضاع بالنسبة لها، وأنها تركت الأحلام الوردية وراءها، وأنّ زهرة الحياة قد ذبلت. من الممكن بأنه بمرور السنين ستصبح متصالحة مع موقفها، ومثل الخادمات العجائز، سوف تشجب أحلامها عن المستقبل وتغرق في الشعور الفاتر أو تكرّس نفسها للأعمال الخيرية؛ لكن حلمها غير المشروع اتخذ جانبًا أكثر تهديدًا حين أدركت من الكلمات التي أفلتت من شتولتس بأنها فقدته كصديق واكتسبت مُعجبًا متحمسًا. فقد ضاعت الصداقة في الحب.
كانت شاحبة في الصباح الذي اكتشفت الأمر، لم تخرج طوال اليوم، كانت مضطربة، صارعت مع نفسها، وتساءلت ماذا يتوجب أن تفعل الآن وماذا كان واجبها لكنها لم تستطع أن تفكر بشيء. لعنت نفسها فحسب بسبب عدم تغلبها على خجلها وكشفت عن ماضيها إلى شتولتس مبكرًا، والآن كان يجب عليها أن تتغلب على خوفها أيضا. أحيانًا تكون عاجزة عن تحمل الألم المبرّح لصداع رأسها، فكانت تبدو ممتلئة بالعزم وكانت جاهزة للاندفاع نحوه وإخباره بحبها السابق لا بالكلمات بالدموع، والتشنجات ونوبات الإغماء، لكي يستطيع أن يرى كم كانت توبتها كبيرة. سمعت كيف أن النساء الأخريات يتصرفنَ في الحالات المماثلة.
سونيا، مثلًا، أخبرت خطيبها عن الملازم الأول الذي سفّهتهُ، وأنه كان مجرد صبي، وأنها أبقته عن قصد ينتظر في الثلج إلى أن أعجبها أن تذهب إلى عربتها... إلخ.

لم تتردد سونيا في القول بأنها كانت تسخر من أبلوموف للتسلية فقط، وأنه كان سخيفًا جدًا، وأنها لم تتمكن من أن تحب «مثل هذا الشخص الأخرق المغفّل»، بحيث أن أحدًا لم يكن ليصدّق ذلك. لكن مثل هذا التصرف ربما يبرره زوجها وآخرون، ما عدا شولتس. ربما كانت أولغا قادرة على وضع الموضوع بأكمله تحت الضوء بشكل أفضل عن طريق قولها بأنها أرادت فقط أن تسحب أبلوموف من الهاوية، ولكي تفعل ذلك، استعملت أسلوب المغازلة الودية لكي تبعث رجلًا محتضرًا ثم تتخلى عنه. لكن هذا الأمر كان معقّدًا جدًا وقسريًا، ومزيفًا على أية حال. كلا، كلا، لا مفر!

فكّرت أولغا بألم ويأس: «يا إلهي، يا لها من فوضى مخيفة أنا فيها! أخبرهُ! كلا، كلا! لا أريدهُ أن يعرف عن ذلك، لكن ليس لمدة طويلة! لكن عدم إخباره لا تختلف عن السرقة. كأني أخونه، وأحاول أن أحظى به. يا إلهي، أَعِنِّي!» لكن ليس ثمة عون.

مهما كانت تتمتع كثيرًا بحضور شتولتس، هناك أوقات أرادت خلالها أن لا تلتقي به ثانيةً، وأن تمر عبر حياته كظل من الصعب إدراكه، لا أن تعتّم وجوده الهادئ والمعقول بشغف محظور. سوف تحزن بسبب حبّه التعيس، وتبكي على ماضيها وتدفن ذكراه في قلبها. وبعدها بعدها ربما تصنع «زوجًا محترمًا» يوجد العديد جدًا من نوعه، وتصبح زوجة طيبة ذكية وأُمًّا حنون، ولن تعيش بل تخلق معظم حياتها. أليس ذلك ما كانت تفعله النساء؟

لكن لسوء الحظ لم تكن مسألتها وحدها؛ فأي شخص آخر أيضًا كان يهتم بها ويضع الآمال الأخيرة والنهائية لحياته عليها.

سألت نفسها بألم: «لماذا أحببت؟» وتذكرت ذلك الصباح في الحديقة حين أراد أبلوموف أن يهرب وفكّرت بأنّ كتاب حياتها سوف يغلق للأبد لو أنه فعل ذلك. لقد حلَّت مسألة الحب والحياة بشكل جريء وسهل جدًا، وبدا كل شيء واضحًا جدًا لها لكن أصبحت الأمور واقعة في شرك عقدة لا يمكن حلّها. حاولت أن تكون ذكية جدًا، لقد فكّرت بأنه يكفي أن تنظر ببساطة إلى الأمور وتنطلق للأمام

مباشرة حتى تمتد الحياة أمامها طائعة مثل سجّادة تحت قدميها وهناك كانت! لم تجد أحدًا لتضع اللوم عليه: لقد كانت غلطتها.
دون أن تعرف السبب الذي جاء من أجله شتولتس، نهضت أولغا خليّة البال من الأريكة ووضعت كتابها وذهبت للقائه.
سألها:
هل أزعجتكِ؟ هل كنتِ تقرأين؟
وجلس بالقرب من نافذة غرفتها التي تطل على البحيرة.
أجابت بكلام رقيق واثق ودود:
كلا، لقد توقفت عن القراءة. أصبح الجوّ مظلمًا. كنت أتوقع قدومك!
علّق برزانة وسحب كرسيًّا آخر لها بالقرب من النافذة:
أفضل بكثير. فأنا أريد أن أتكلم معك.
جفلت وأحسّت بالخدَر. ثم ارتمت بشكل آلي على الكرسي وبقيت جالسة متألمة بشدة من القلق وكان رأسها محنيًا دون أن ترفع عينيها. رغبت لو كانت على بعد مئة ميل. في تلك اللحظة ومض ماضيها خلال عقلها مثل البرق. بدت تسمع صوتًا يقول: «اقتربت ساعة الحساب. لا يمكن للمرء أن يلعب مع الحياة مثلما يلعب مع الدمى. لا تعبثي معها وإلا ستدفعين من أجلها الغالي والثمين».
ظلّا عدة دقائق صامتين. كان من الواضح أنه يستجمع أفكاره. ونظرت أولغا بخوف إلى وجهه النحيل، وحاجبيه المقطّبين وشفتيه المزمومتين اللتين كانتا تعبّران عن العزم والتصميم. فكّرت: «انتقام!» وارتعدت في داخلها. وبدا كلاهما يعدّان لمبارزة.
قال ونظر نظرة متسائلة إليها:
أفترض أنك خمَّنتِ ما أريد أن أتكلم عنهُ.
جلس وظهره إلى الحائط لكي يكون وجهه في الظل، بينما النور المتسلل من النافذة وقع مباشرة عليها. وكان بوسعه أن يقرأ ما يدور في ذهنها.
ردّت برفق:

وكيف لي أن أعرف؟

بعد مواجهتها لهذا النّد الخطر، لم تعد تمتلك قوة الإرادة وقوة الشخصية والنفوذ والسيطرة الذاتية التي كانت دائمًا تظهرها مع أبلوموف. أدركت أنها لو نجحت الآن في إخفاء نفسها عن عيني شتولتس الحادَّتين وخوض حربٍ ضده، فذلك لم يكن نتيجة قواها الخاصة، كما في حالة صراعها مع أبلوموف، بل نتيجة صمت شتولتس العنيد وتحفّظه. لكن النجاح لم يكن حليفها في هذا النزال المفتوح؛ وبسؤالها ذاك أرادت فحسب لهذا السبب أن تحصل على إنشٍ من الأرض وتكسب دقيقة من الوقت لكي تجبر العدو على عرض ما في يده بوضوح أكثر.

قال بشكل صريح:

ألا تعرفين؟ حسنًا، سوف أخبركِ...

قالت بشكل لا إرادي:

كلا لا أعرف.

وأمسكت بيده ونظرت إليه كأنها تطلب منه الرحمة.

قال:

أنتِ ترين، خمَّنْتُ بأنكِ عرفتِ.

ثم أضاف بحزن:

لكن لماذا لا تعرفين؟

ولم تحِرْ جوابًا.

إذا تنبَّأتِ بأنه يجب أن أعلن عن نفسي في يوم ما، فيجب أن تعرفي طبعًا ماذا سيكون جوابك، أليس كذلك؟

قالت:

نعم تنبأتُ به وجعلني تعيسة!

ومالت للخلف بكرسيّها وأشاحت وجهها من الضوء، وقدمت صلاة صامتة للظلام حتى يأتي لعونها لكي لا يقرأ شتولتس صراع الارتباك والألم المبرّح في وجهها.

قال بهمس تقريبًا:

تعيسة؟ تلك كلمة مرعبة. لا أقول شيئًا سوى عبارة دانتي: «أقطعْ كل أمل»، فهذه العبارة توضّح كل شيء.

وأضاف بحسرة عميقة:

لكن أشكرك على أنك أخرجتِني من الاضطراب والظلام، وأنا أعرف في الأقل ما يجب عمله. خلاصي الوحيد هو أن أهرب بأسرع ما يمكن!

نهض.

صاحت متوسلة ومتوجسة واندفعت إليه وأمسكت ثانيةً بيده:

كلا، باللهَّ عليكَ، كلا! أشفق عليّ ماذا سيحدث لي؟

جلسا كلاهما.

قالَ بشكل صارم تقريبًا:

لكني أحبّك يا أولغا. لقد رأيتِ ما حدث لي في الأشهر الستة الأخيرة. فماذا تريدين بعد: نصرٌ ساحق؟ هل تريدين أن ينحَلَ جسمي أو أفقد عقلي؟ شكرًا جزيلًا لكِ!

تحوّل وجهها شاحبًا.

قالت وقد شعرت بجرح خفيٍّ في كرامتها وبحزن شديد لم تكن قادرة على إخفائه:

تستطيع أن ترحل!

اعتذر:

أنا آسف جدًا. ها نحنُ نختلف دون أن نعرف ما يدور حوله الأمر. أعرف أنكِ لا تتمنين ذلك، لكن لا تستطيعين أن تحلّي مكاني، ولهذا تعتقدين بأنّ دافعي للهروب غريب. أحيانًا يكون الإنسان أنانيًا بلا قصد.

بدّلت مكانها في الكرسي، كأنها كانت غير مرتاحة، لكنها لم تقل شيئًا.

تابع كلامه:

حسنٌ، افترضي أني بقيتُ فماذا سيفيد الأمر؟ سوف تمنحينني بالطبع صداقتك، لكنها صداقتي أيضًا. إذا ما حصل أن رحلتُ ثم عدت في غضون سنة أو سنتين، فإنها تبقى لي. فالصداقة أمر جميل يا أولغا، حين يوجد حبٌّ بين شاب وشابة أو ذاكرة حبّ بين رجل كهل وامرأة مسنّة. لكن فليساعدنا الربّ لو أن الصداقة على جانب والحب على الجانب الآخر. أعرف بأنكِ لست ضجرة مني لكن ماذا تظنين أني فاعل لو أني معكِ؟

همست بصوت يكاد لا يسمع:

إذا كان ذلك ما تحسّ به فمن الأفضل أن تذهب!

فكّر بصوت عال:

هل أبقى؟ يعني أن أسير على حافة سكّين يا لها من صداقة!

أجابت بشكل مفاجئ:

وهل تعتقد بأنه أفضل لي؟

سألها بسرعة:

ماذا تعنين؟ أنتِ أنتِ لا تحبين...

أضافت بقنوط:

لا أعلم؛ أقسم أنّي لا أعلم! لكن لو أنك أقصد لو كان ثَمَّ تغيير في حياتي الحالية فما الذي سيحدث لي؟

صاح وسحب كرسيه بالقرب منها:

وكيف لي أن أفهم ذلك؟ أوضحيه بنفسك باللهَّ عليك!

وباغتتهُ كلماتها والنغمة الأصيلة والصريحة في صوتها الذي تلفَّظت به تلك الكلمات.

حاول أن يتمعّن في وجهها. كانت صامتة، وقلقة جدًا من طمأنته واستعادة كلمة «تعيسة» أو شرحها بصورة مختلفة عن الطريقة التي فهمها بها لم تعرف بنفسها، لكنها شعرت بصورة غامضة بأنّ كليهما كانا واقعين تحت وطأة سوء الفهم، بحيث كانا في وضع غادر، وكلاهما محطّم بسبب ذلك، وأنه وحده، وبمساعدتها،

يمكن أن يجلب النظام والصفاء إلى الماضي والحاضر. لكن لكي تفعل ذلك، عليها أن تعبر الهوة التي كانت تفصلها عنه وتخبرهُ بما حدث لها: كم صلّت وكانت خائفة من حُكمهِ!

قالت:

لا أفهم أي شيء بنفسي. فأنا أشد اضطرابًا وإظلامًا منك!

سألها وأخذ بيدها:

اسمعي؛ هل تثقين بي؟

أجابت بشكل ضعيف:

تمامًا مثلما أثق بأمّي أنت تعرف ذلك.

إذن أخبريني ما الذي حصل لكِ منذ افتراقنا. إنكِ كتاب مغلق بالنسبة لي، لكن سابقًا استطعت قراءة أفكارك من وجهك. يبدو لي بأنّ هذه هي الطريقة الوحيدة لنا لكي يفهم أحدنا الآخر. هل تتفقين معي؟

قالت وشعرت بالتحطّم بسبب اعترافها المحتوم:

آه، نعم، نعم، يجب أن أفعل ذلك يجب أن أنهي الأمر إلى حدّ ما.

فكّرت وحَنَتْ رأسها: «انتقام! انتقام!».

غضّت بصرها وكانت صامتة. وشعرَ بالروع بسبب هذه الكلمات البسيطة وبقائها في صمتها.

فكّر وشعر بالبرد وارتجفت يداه وقدماه: «إنها تعاني! آه، يا إلهي، ماذا حدث لها؟» وتصوّر شيئًا مخيفًا جدًا. ما زالت صامتة ومن الواضح أنها تعاني من الصراع مع نفسها.

حثّها على الكلام:

حسنٌ يا أولغا...

كانت صامتة لكن صدرت عنها حركة عصبية مرة أخرى فلم يتمكن من ملاحظتها في الظلام؛ كان يسمع حفيف ثوبها الحرير فحسب.

قالت أخيرًا:

أنا أستجمع شجاعتي الآن.
وأضافت بعد ذلك:
لو تعلم كم كان الأمر صعبًا!
والتفتت وحاولت أن تتغلب على مخاوفها. ما كانت تريدهُ أن لا يكتشف شتولتس كل شيء عن طريقها بل بواسطة معجزة. ولحسن الحظّ فإن الظلام خيّم بشدة وصار وجهها في العتمة: إلا صوتها فقد خانها، ولم تستطع أن تحمل نفسها على الكلام، كأنّها لم تستطع أن تقرر بأي نغمة تبدأ.
فكّرت بألم مبرّح: «يا إلهي، كيف يوجّه لي اللوم وأنا أشعر بالخجل والتعاسة الشديدين».
منذ زمن ليس بالطويل كانت تخطط بيقين لحياتها وحياة الآخر وكانت في منتهى القوة والذكاء! والآن حان الوقت لها كي ترتجف مثل فتاة صغيرة! عذَّبها الخجل من ماضيها والندم الحاد على الحاضر، ووضعها المضلّل كان لا يمكن تحملهُ!
أجبر شتولتس نفسه على القول بصعوبة:
دعني أساعدكِ هل أحببتِ؟
وآلمتهُ كلماته كثيرًا.
وأكدت ذلك بواسطة صمتِها. وفورًا شعر بالهلع.
سأل محاولًا أن يتكلم بثبات، على الرغم من أنه شعر بأن شفتيه ترتجفان:
مَنْ هوَ؟ أهوَ سرٌّ؟
شعرت بالخوف أكثر. تمنت لو استطاعت أن تمنحهُ اسمًا آخر، وتخترع قصةً أخرى. تردّدت للحظة، لكن لا بدّ من قول الحقيقة: مثل إنسان في لحظة من الخطر الشديد يقفز من ضفة شديدة الانحدار أو يقذف بنفسه في النيران، قالت فجأةً:
إنهُ أبلوموف!
أصابه الذهول. ولم يتكلم في غضون دقيقتين.
كرّر مندهشًا:

أبلوموف!

وأضاف مؤكِدًا وخفض صوته:

هذا ليس صحيحًا!

قالت أولغا بهدوء:

إنها الحقيقة!

كرّر:

أبلوموف!

وأضاف بثقة:

مستحيل! ثمة خطأ هنا: إنكِ لم تفهمي نفسكِ ولا أبلوموف ولا الحبّ!

كانت صامتة.

كرّر القول بإصرار:

ذلك ليس حبًّا، كان شيئًا آخر، أقول لكِ!

قالت بصوت مكتوم تخلّله، مع ذلك، شعورٌ بالاستياء:

نعم، افترض أنك تفكّر بأني كنت أعبث معهُ وأسيطر عليه، وأجعله تعيسًا، وأنا الآن أبدأ معك نفس الأفعال!

عزيزتي أولغا، من فضلكِ لا تغضبي. لا تتكلمي هكذا: فهذا ليس من طبعك. أنتِ تعرفين بأني لا أفكّر بشيء من هذا النوع. لكني أخاف أنّ الأمر يتجاوز قدرتي. لا أستطيع أن أفهم كيف أنّ أبلوموف...

أعلنت مدافعة:

لكن ألا يستحق صداقتك؟ إنك لا تستطيع أن تتكلم عنه بإجلال كاف. إذن، ألا يستحق الحبّ؟

قال:

أعرف أن الحب أقل إرهاقًا من الصداقة. غالبًا ما يكون أعمى، وهو لا يتطلب الجدارة هكذا هو. لكنّ هناك شيئًا خاصًا يحتاجه الحب، أحيانًا يكون مجرد تفاهة،

وأحيانًا لا تستطيع أن تحدّده أو تسميه، وإن صديقي الفريد لكن الأخرق إيليا لا يملك مثل هذا الشيء. وذلك ما أدهشني.

وتابع كلامه بحيوية كبيرة:

استمعي. لن نصل أبدًا إلى صميمه لن يفهم أحدنا الآخر. لا تخجلي من التفاصيل، لا تبخلي على نفسك نصف ساعة، وأخبريني عن كل شيء، وسوف أخبرك ماذا كان، وماذا سيحصل ربما. لا أغالب الشعور بأن هناك شيئًا خطأً في مكان ما.

وأضاف بحماس:

آه، ليته كان حقيقة.

وختم كلامه بصوت هادئ ومبتهج تقريبًا:

ليته أبلوموف، وليس شخصًا آخر! أبلوموف! آه، ذلك يعني بأنكِ لا تنتمين إلى الماضي، وإلى الحب، وأنك حرّة... أخبريني، من فضلكِ بسرعة!

أجابت بثقة، وكانت سعيدة بأن بعض قيودها قد انكسرت:

أجل، آه، أجل. سأصاب بالجنون وحدي تمامًا. ليتك عرفت كم كنتُ محطّمة! لا أعرف إن كان اللوم يوجّه لي أم لا، وإن كان يجب أن أخجل من ماضِيَّ أو أكون نادمة عليه، وإن كان عليّ أن أتطلّع إلى المستقبل أو أيأسَ منه. تكلمتَ عن معاناتك، لكنَّكَ لا يخامِركَ الشعور بمعاناتي.

وأضافت برفق بصوت بلا نغمة:

اسمعني إذن بقلبك لا بعقلك فأنا أخاف من عقلك؛ فربما سيدرك بأني لا أملك أمًّا، وأني تائهة.

ثم صحَّحتْ قولها بسرعة بعد لحظة:

لا تصفح عني. لو كان حبًّا، فمن الأفضل أن تذهب.

توقَّفتْ للحظة، ثم أضافت:

لكن عُدْ لاحقًا، حين لا تشعر بأي شيء سوى الصداقة معي مرة أخرى. لكن لو أبديتُ دلال الحب الطائش، فعاقبني واهربْ مني بعيدًا ما استطَعت وانسَني!

سمعتْ.
وضغط يديها كليهما بحرارة كرد فعل على كلامها.
بدا اعتراف أولغا طويلًا ومفصّلًا. أوضحت له حرفيًا، ما واجهته من معاناة ومضايقات، والحوادث التي جعلتها تتورّد خجلًا، وما الذي جعلها في إحدى المرات سعيدة وأثارها بعمق إلى أن وقعت فجأة بعد ذلك صريعة الشكوك والأحزان.
أخبرته عن نزهاتهما في الحديقة وعن آمالها وعن نشاط أبلوموف الجديد وسقوطه، وغصن الليلك وحتى القبلة.
لكنها أغفلت بصمت ذكر المساء المثير في الحديقة ربما لأنها لم تقرر لحد الآن ما الذي حصل لها حينئذ. في البداية لم يكن هناك سوى همس مرتبك يمكن سماعه، لكن حين واصلت سرد قصتها، أصبح صوتها أوضح وأكثر تحررًا من القيود؛ تحولت الهمسة إلى صوتٍ خافت، ثم إلى نغمات كاملة عميقة. أنهت كلامها بهدوء كأنها تروي قصة شخص آخر. شعرت كأنّ ستارةً رُفعت وانكشف ببطء أمامها الماضي التي كانت خائفة من التمعُّن فيه حتى تلك اللحظة. كانت عيناها مفتوحتين على العديد من الأشياء وسوف تنظر بجرأة إلى رفيقها إذا لم يحل الظلام دون ذلك.
ختمت حديثها وانتظرت الحُكم منه. لكن صمت الموتى كان هو الجواب. ما الذي كان ينبغي أن يقوله؟ لم يكن بوسعها أن تسمع كلمة، أو حركة، أو حتى نَفَس، كأنّه لم يكن هناك أحد في الغرفة معها. هذا الصمت جعلها تشعر بالشك من جديد. استمرّ الصمت. ماذا يعني؟ ما الحكم الذي حضّرهُ لها من قبل أشد القضاة في العالم تساهلًا وأكثرهم حدّة في الذهن؟ بقية القضاة كلهم سوف يتهمونها بلا رحمة، وحده هو يمكن أن يكون محاميها، لقد اختارته هو سوف يفهم القضية بأكملها، ويضعها في الميزان، ويحسمها لصالحها أفضل مما يمكن أن تفعلهُ هي. لكنه ما زال صامتًا: هل خسرت قضيتها؟ شعرت بالفزع مرة أخرى.

فتحت الخادمة الباب وجلبت شمعتين أنارت بهما الزاوية التي يجلسان عندها. ألقت نظرة متوجسة لكنها متلهفة ومتسائلة عليه. لقد صالب ذراعيه وكان ينظر إليها بعينين رقيقتين صريحتين وهو يتلذَّذ باضطرابها. زال ثقل كبير من قلبها. تنفست الصعداء وكانت على وشك البكاء. عاد التسامح مع نفسها والثقة فيه فجأةً إليها. كانت سعيدة مثل طفل يُغفَر خطؤهُ ويتم استلطافه واسترضاؤه.

سأل برفق:

هل هذا كل شيء؟

قالت:

كل شيء.

وهذه الرسالة؟

والتقطت الرسالة من حقيبتها وأعطتها له. قرأها على ضوء الشمعة، ووضعها على المنضدة. وتحولت عيناه نحوها مرة أخرى بتعبير لم تره فيهما منذ مدة طويلة. الصديق القديم الواثق بنفسه والساخر قليلًا والطيب بلا حدود الذي اعتاد على تدليلها كان يقف أمامها الآن. لم يكن ثمة مسحة من المعاناة أو الشك على وجهه. أخذ يديها كليهما وقبَّلَهُما، ثم غرق بعمق في التأمّل. أصبحت هي أيضًا هادئة وراقبت دون أن تطرف عينها حركة الأفكار في وجهه.

وفجأة نهض.

قال:

يا إلهي، لو كنت أعرف بأن المسألة تتعلق بأبلوموف فما كان ينبغي لي أن أعاني هكذا!

ونظر بعطف وثقة إليها كأنها لم تعد تمتلك ذلك الماضي البغيض.

شعرَتْ بالانشراح والبهجة. وتلاشى كل قلقها. رأت بوضوح بأنها كانت تخجل أمامه وحده فحسب، وأنه لم يكن يفكّر بعقابها والهروب. ما كان يقلقها هو رأي العالم بأكمله!

استعاد مرة أخرى السيطرة على نفسه وانفرجت أساريره؛ لكن ذلك لم يكن كافيًا بالنسبة لها. رأت بأنها قد تمت تبرأتها؛ لكن أرادت أن تسمع الحُكم كونها المتّهمة.
التقط قبعته.
سألت:
أين أنت ذاهب؟
أجاب:
أنت مضطربة ويجب أن تستريحي. سوف نتحدث غدًا.
قاطعتهُ وهي تمسك بيده وتجلسهُ على الكرسي:
تريدني أن أبقى مستيقظة طوال الليل؟
وأضافت:
تريد أن تذهب دون أن تخبرني برأيك بقولي، ومن أنا ومن سأكون. ارحمني: مَنْ يخبرني؟ من سيعاقبني إذا كنتُ أستحق ذلك أو من سيغفر لي؟
ونظرت إليه بعاطفة رقيقة بحيث إنه رمى قبعتهُ وكان على وشك أن يرمي نفسه على قدميها.
قال:
ملاكي؛ اسمحي أن أقول يا ملاكي. لا تعذبي نفسكِ عبثًا: لا حاجة لعقابكِ أو العفو عنكِ. في الواقع، ليس هناك ما أضيفهُ إلى القصة. أيّ شكوك لديك؟ تريدين أن تعرفي ما الأمر الذي حصل لكِ؟ تريدين مني أن أخبرك باسمه. لقد علمتِ به منذ مدّة طويلة. أين رسالة أبلوموف؟
التقط الرسالة من المنضدة.
قالَ:
استمعي.
وقرأ: «هديتُكِ: أحبُّكَ ليست حبًا حقيقيًا، بل الحبّ الذي ستشعرين به في المستقبل. إنها حاجتُكِ اللا واعية للحب التي تجد النساء تعبيرها، بسبب الحاجة

إلى القوت المناسب، في ملاطفة طفل، وحبّ امرأة أخرى، أو ببساطة في دموع أو نوبات من الهستيريا...

لقد ارتكبتِ خطأً (قرأ شتولتس مؤكدًا على هذه العبارة) فالرجل الذي أمامكِ ليس من النوع الذي تتطلَّعين إليه وتحلمين به. انتظري سوف يأتي، ثم تعودين إلى إحساساتك وتشعرين بالغيظ والخجل من خطأكِ»...

قال:

أترين كم كان صادقًا. كنتِ غاضبة وخجلة من خطأكِ. ليس لديّ ما أضيفه. كان على حق ولم تصدّقيه تلك هي عاقبة ذنبك.

وأضاف بلمسة من السخرية:

كان يجب أن تفترقي عنهُ وقتها، لكنه لم يستطع أن يقاوم جمالك، وأثارتكِ رقته البريئة!

لم أصدّقهُ. فكّرتُ بأنّ قلب المرء لا يخطئ.

أضاف:

بلى، يمكن أن يخطئ، وأحيانًا على نحو خطير! لكنه لم يبلغ قلبك لأنّكِ امتلكتِ الخيال والكبرياء من جهة والضعف من جهة أخرى. وكنتِ خائفة بأن الشمس ربما لن تشرق في حياتك، وبأن ذلك الشعاع الباهت قد أضاء حياتكِ وسوف يلحقهُ ليلٌ أبديّ.

قالت:

وماذا عن دموعي؟ ألم تكن نابعة من قلبي حين بكيتُ؟ لم أكن كاذبة، كنتُ مخلصة.

يا إلهي، النساء سوف يذرفن الدموع حول كل شيء! قلتِ بنفسكِ بأنك كنتِ نادمة بسبب باقة أزهار الليلك ومقعدكِ المفضّل في المنتزه. إضافة إلى تلك الكبرياء الجريحة وفشلكِ في إنقاذ أبلوموف، ومدىً محدود من السلوك وها أنتِ لديكِ الكثير من الأسباب لكي تريقي الدموع!

ختمت كلامها بارتباك:

وهل لقاءاتنا ونزهاتنا كانت أخطاءً أيضًا؟ تتذكر أني ذهبتُ إلى شقتهِ.
وكان من الواضح أنها رغبت في كبت تلك الكلمات بنفسها.
كانت تحاول أن تدين نفسها فقط لكي تجعلهُ يدافع عنها بحماس، ولتظهر في عينيه أنها بريئة جدًا.
أستطيع أن أرى من روايتك بأنه خلال لقاءاتكِ الأخيرة معه لم يكن لديك شيء تتكلمين عنه. ما يسمّى «حبّكِ» يفتقد إلى المحتوى الداخلي ولا يمكن أن يتجاوز ذلك. لقد انفصلتِ قبل انفصالكِ الأخير، وكنتِ مخلصة لا للحب بل لأطيافه التي اخترعتِها بنفسك ذلك هو كل اللغز.
همست برفق شديد بحيث إنه خمَّنه بدلًا من أن يسمعه:
والقُبلة؟
قال بصرامة ساخرة:
آه، ذلك شيء مهم جدًا. من أجلها كان يجب أن تذهبي دون أن تتناولي الحلوى في الغداء.
وظلّ ينظر إليها برقة وعاطفة ناضجتين.
أجابت بشكل متجهّم وانزعجت من لا مبالاته ولهجته الساخرة:
النكتة ليست تبريرًا لمثل هذا الخطأ. كان يجب أن أشعر بالسرور لو عاقبتني بكلمة خشنة وسمّيتَ جنحتي باسمها الصحيح.
قال بنوع من الاعتذار:
لم أكن لأمزح لو أن المسألة تتعلق بشخص آخر غير أبلوموف. لو كان شخصًا آخر لتحول خطؤكِ إلى كارثة، لكنني أعرف أبلوموف.
قاطعته وانخرطت في الغضب:
شخص آخر، أبدًا! أصبحتُ أعرفه أفضل مما تعرفهُ أنتَ.
وافقها قائلًا:
ها أنتِ قلتِها!
قالت:

لكن لو تغيّر، لو عاد للحياة واستمعَ لي، ألا تعتقد أني كنت سأحبّهُ حينئذ؟ هل يمكن أن تكون كذبة أو يحدث خطأ عندئذ؟
وكانت قلقة من تحرّي الموقف من جميع جوانبه لكي لا يبقى شيء لم يتم شرحه مهما كان.
قاطعها شتولتس:
هذا يعني لو وُجِد شخص آخر مكانه، فإن علاقتك في هذه الحالة تتحول بلا شك إلى حبّ، وستصبح علاقة متماسكة، ثم... لكن تلك قصة حبّ أخرى وبطل آخر، ولا علاقة لنا بها.
تحسّرت كأنها تلقي العبء الأخير عن كاهلها. وكان كلاهما صامتًا.
قالت ببطء كأنها تتفتح مثل زهرة آه، ما أجمل أن يستعيد الإنسان نشاطه!
وألقت عليه نظرة من الإقرار العميق بالفضل، والصداقة الدافئة والفريدة جدًا التي من خلالها التقط فيها لمحة من الشرارة التي كان يبحث عنها بلا فائدة لمدة عام تقريبًا.
وتخلّلت جسمه رعشة من السعادة.
قال وبدا مستغرقًا في التفكير:
كلا، أنا الذي أستعيد عافيتي الآن، آه، ليتني عرفت بأن بطل قصتك الرومانسية كان إيليا!
ظلّ يردد بغضب:
كم من الوقت مضى عبثًا وكم من الشعور النكد قد وُلِد! لماذا؟ ومن أجل ماذا؟
لكنه بدا فجأة قد شفا من غيظه وثاب إلى نفسه بعد تفكير مجهد وطويل. أصبح جبينه ناعمًا وسطعت عيناه مرة أخرى.
أضاف مبتهجًا:
يبدو الأمر محتومًا، لكني لم أعد قلقًا بعد الآن، أنا سعيد!
قالت مستغرقة في التفكير وبصوتٍ بالكاد يمكن سماعه، وقد اندهشت من انتعاشها المفاجئ:

إنه كالحلم، كأنّ شيئًا لم يحدث. لقد انتزعتني لا من الخجل والندم فحسب، بل من القسوة والألم أيضًا من كل شيء.

ثم سألتهُ برفق:

كيف فعلتَ ذلك؟ لكن هل سيتم التجاوز عن هذا الخطأ؟

قال:

آه، فكرتُ بأنه قد تمّ تجازوه مسبقًا! أقصد كل ما حدث سابقًا.

ونظر إليها لأول مرة بعينين طافحتين بالشغف ولم يخفِ ذلك.

سألت بلا تردّد:

وماذا يحدث لو أنّ ذلك لم يكن خطأ بل الشيء الحقيقي؟

التقط الرسالة من جديد وقال:

مكتوب هنا: «إنّ الرجل الذي أمامك ليس هو الرجل الذي تنتظرينه وتحلمين به: سوف يأتي، حينها ستصحو إحساساتك» وربما أضيف: وستقعين كثيرًا في الحب، بحيث إن لا سنة واحدة فحسب بل حياتك بأكملها تكون مدة قصيرة جدًا لمثل هذا الحب.

وختم قوله وهو ينظر إليها بتمعّن:

لكني لا أعلم مع مَنْ؟

غضَّت بصرها وزمّت شفتيها، لكن من تحت جفنيها مرّ ضوءٌ وامض، وعلى الرغم من أنها حاولت جاهدة أن تبتسم إلا أن شفتيها لم تستطيعا التحكم بها. ثم نظرت إليه وضحكت مسرورة بحيث إن الدموع طفرت من عينيها.

ختم كلامه:

لقد أخبرتكِ ماذا حدثَ وسيحدث لكِ. لكنكِ لم تُعطِني جوابًا لسؤالي، الذي لم تسمحي لي بأن أنهيه.

قالت مرتبكة:

لكن ماذا بوسعي أن أقول؟ ولو استطعت، فهل لي الحق أن أقول ما أرغب بقوله وماذا أقول لك؟

وأردفت بهمس:
فأنت تستحق الكثير.
ونظرت بخجل إليه.
بدا أنه وجد مرة أخرى في نظرتها شرارة من الوجد العميق؛ وارتعش ثانيةً من السعادة.
أضاف:
لا تسرعي. أخبريني ماذا أستحقُّ حين ينتهي حداد قلبك، حداد الاحتشام. لقد علمتني هذه السنة شيئًا. والآن أريدك أن تجيبي عن سؤال واحد. هل أنصرف أم أبقى؟
صاحت بمرح فجأة:
اسمعْ! إنك تتدلَّل عليّ!
علّق بشكل رزين:
آه، كلا، فهذا سؤال لم أطرحه سابقًا. إنه يكتسب معنى مختلفًا الآن تمامًا: لو بقيتُ سيكون الأمر... ماذا؟
وفجأة شعرتْ بالارتباك.
ضحك وكان مسرورًا بأنه فاجأها:
هل ترين، إني لا أتدلّل عليكِ! بعد حديثنا هذه الليلة يجب أن نتعامل بيننا بصورة مختلفة: لم نعد كما كنا بالأمس.
همست، وما زالت أكثر ارتباكًا:
لا أعرف.
هل لي أن أعطيك بعض النصيحة؟
أضافت بخضوع متحمّس تقريبًا:
تكلّم، سوف أنفّذها بشكل أعمى.
تزوجيني بينما تنتظرين وصوله!
همست ودفنت وجهها في يدها، متحمسة لكنها سعيدة:

لا أجرؤ على ذلك الآن...
سأل بهمس وسحب رأسها إليه:
لماذا لا تجرؤين؟
همست مرة أخرى، ووضعت رأسها على صدره كأنها تضعهُ على صدر أمّها:
لكن الماضي؟
رفع يديها برفق من وجهها، وقبّل رأسها، ونظر بمتعة لوجهها المرتبك وإلى الدموع التي بدأت تنهمر من عينيها ومرة أخرى استغرق فيهما.
ختم كلامه:
سيذبل كما ذبل غصن الليلك. لقد أخذتِ درسك، وحان الوقت لتستفيدي منه. الحياة تبدأ: أعطِني مستقبلكِ ولا تقلقي حول أي شيء سأتكفّل به كله. فلنذهب إلى عمّتك.
رجع شتولتس إلى البيت متأخرًا. فكّر: «لقد عثرتُ على ما كنتُ أبحث عنه». وحدّق بعين العاشق في السماء والأشجار والبحيرة، وحتى الضباب الذي يرتفع من الماء. «لقد ظفرتُ أخيرًا! بعد سنوات عديدة من الصبر، والكفاح من أجل الحب، والتوفير في القوى الروحية! كم انتظرت طويلًا أخيرًا تمت مكافأتي. هذه هي سعادة الإنسان العظمى!
سعادته طردت كل اهتماماته الأخرى: مكتب الشركة، عربة أبيه، قفازاه الجلديان، وحساباته الملطّخة ببقع الزيت وكامل حياته العملية. الشيء الوحيد الذي عاد إلى ذاكرته كان غرفة أمّهِ المعطّرة، وتنويعات هرتس[68] الموسيقية، مرسم الأمير، العينان الزرقاوان، والشعر الكستنائي المكسو بالمسحوق وصوت أولغا الرقيق يرنّ خلالها كلها: فقد سمع غناءها يتردد في ذهنه...
همسَ وارتجف من الشغف:

68موسيقار ألماني.

أولغا زوجتي! كل شيء موجود، لا شيء يجب أن أبحث عنه، ولا مكان ثمة أبعَدَ لأذهب إليه.

وسار عائدًا إلى البيت وهو منبهر من السعادة ومستغرق في التفكير، فلم يلاحظ طريقه أو الشوارع...

تبعتهُ أولغا لبعض الوقت بعينيها، ثم فتحت النافذة وتنفَّست عدة دقائق الهواء المعتدل في الليل؛ اضطرابها زال تدريجيًا وكان صدرها يرتفع وينخفض باطِّراد.

حدّقت بالبحيرة وإلى المدى البعيد واستغرقت في حلم يقظة هادئ وعميق جدًا فبدت وكأنها كانت نائمة. أرادت أن تلتقط ما كانت تفكّر وتشعر به لكنها لم تستطع. انجرفت أفكارها بانتظام مثل الأمواج، وجرى دمها برفق في عروقها. شعرت بالسعادة، لكنها لم تستطع أن تقول من أين بدأت سعادتها أو انتهت وماذا كانت. تساءلت عن السبب الذي شعرت فيه بالهدوء والسلام، ولماذا كانت سعيدة على نحو مدهش، ولماذا كان عقلها في سلام خالص، حتى ذلك الحين...

همست:

أنا خطيبته.

تفكّر الفتاة وترتجف وتقول بفخر: «أنا مخطوبة!» بعد أن بلغت أخيرًا اللحظة التي أضفت تألقًا على حياتها بأكملها، وتنظر أسفل الطريق المظلم التي مشت على طوله وحدها البارحة ولم يلاحظها أحد.

لماذا لم تشعر أولغا إذن بالارتجاف؟ كانت مشت أيضًا على طول ممر وحيد غامض، وعند تقاطع الطرق قابلتهُ، فأعطاها يده وقادها، لا إلى ضوء الشمس الباهر بل إلى نهر واسع يجري طافحًا، وإلى الحقول الشاسعة، والتلال الودودة الباسمة. الضوء الباهر لم يجبرها على تضييق عينيها، ولم يتحمل قلبها السكون، ولم تلمس خيالها النيران. ركّزت عيناها بفرحٍ هادئ على تيار الحياة الواسع، وعلى حقوله الشاسعة وتلاله الخضر. لم تكن الرعشة تسري في عمودها الفقري، ولم تومض عيناها بالكبرياء: لكن ذلك حصل حين نقلت نظرتها من الحقول والتلال إلى الرجل الذي أعطاها يده بحيث شعرت بدمعة تجري ببطء على خدّها...

ما زالت تجلس كأنها نائمة كان حلم سعادتها هادئًا جدًا: فهي لم تتحرك، وبالكاد كانت تتنفس. وبعد أن غرقت في النشوة كانت نظرتها العقلية مسلطة على الليل الأزرق الساكن، الممتلئ بالدفء والعبير والذي يعمُّ فيه ألقٌ وامضٌ رقيق. الرؤية الشبحية للسعادة نشرت جناحيها العريضين وراحت تحوم ببطء، مثل غيمة في السماء، فوق رأسها...

في ذلك الحلم لم تكن ترى نفسها وهي ملفوفة بالشاش والرباط لعدة ساعات وبالأسمال البالية اليومية لبقية حياتها. لم تحلم بمائدة الأعياد، ولا بالأضواء، أو بصيحات الابتهاج؛ حلمت بالسعادة، لكنها سعادة عادية غير مبهرجة، بحيث إنها مرة أخرى، ودون رعشة كبرياء، لكن بعاطفة عميقة همست: «أنا خطيبته».

* * *

(5)

يا إلهي، كم كان كل شيء في شقة أبلوموف كئيبًا ورتيبًا بعد حوالي ثمانية عشر شهرًا من عيد شفيعه، حين حضر شتولتس إلى الغداء بغير قصد. أصبح أبلوموف بنفسه أكثر بدانة وترهلًا؛ كان السأم يتآكل داخل عينيه ويتطلع من خلالهما وكأنه نوع من الجرثومة. كان يمشي في الغرفة ذهابًا وإيابًا، ثم يستلقي ويحدّق في السقف؛ ويلتقط كتابًا من الخزانة، ويتصفح بضعة أسطر، ويتثاءب، ثم يبدأ بالنقر بأصابعه على المنضدة. أصبح زاخار أخرق وقذرًا أكثر؛ ظهرت بقعٌ على مرفقيه؛ بدا محطّما يكاد يموت من الجوع، كأنّ ليس لديه شيءٌ ليأكله، وينام قليلًا ويؤدي أعمال ثلاثة رجال. صار مبذل أبلوموف باليًا ومهما تم رتق ثقوبه بعناية إلا أنها كانت تنتشر في كل مكان وليس فقط خلال الدرزات، إذ كان من الضروري أن يستبدله بآخر جديد منذ مدة طويلة. كانت البطانية على الفراش قد تهرَّأت أيضًا وظهرت عليها الرقع هنا وهناك؛ حالت ألوان الستائر على النوافذ، ومع أنها نظيفة، إلا أنها بدت مثل الأسمال البالية.

جلب زاخار غطاء المائدة القديم، وفرش نصف المنضدة قرب أبلوموف، ثم جلب بحذر، ولسانه بين أسنانه، صينية تحتوي على دورق الفودكا، ووضع الخبز على المائدة ثم خرج. فتح باب سيدة المنزل ودخلت أغافيا ماتفييفنا، حاملة مقلاة ما زالت تئز فيها عِجَّة البيض. كانت تغيرت بشكل كبير، ولم يكن ذلك في صالحها.

أصبحت أشد نحولًا. لم تعد ممتلئة الجسم أما وجنتاها المستديرتان فلا حمراوان ولا شاحبتان؛ لم يعد حاجباها لامعين؛ بينما أضحت عيناها غائرتين. كانت ترتدي ثوبًا قطنيًا قديمًا. أما يداها فقد لوَّحتهما الشمس أو أصبحتا خشنتين بسبب العمل، بالقرب من الحرارة والماء، أو كليهما. لم تعد أكولينا في البيت. كان على أنيسيا أن تؤدي الأعمال في المطبخ وبستان الخضراوات؛ كان عليها أن تعتني بالطيور الداجنة وتمسح الأرضيات وتنجز أعمال الغسيل؛ ولأنها لا تجيدها كلها بنفسها فإن أغافيا ماتييفنا كان عليها شاءت أم أبت أن تؤدي العمل في المطبخ:

فتقوم بأعمال الدق بالهاون وحمل الحطب والنَّخْل، لأنها لم تستطع أن تقدّم سوى القليل من القهوة، والقرفة وجوز الهند، ولم تفكّر أبدًا بالتطريز. كان عليها في هذه الأيام غالبًا أن تقطّع البصل وتبشر الفجل الحار وتحضّر التوابل الأخرى.

كانت نظرة من الكآبة العميقة تبدو في وجهها. لم تتحسّر على نفسها أو قهوتها؛ كانت قلقة لا لأنها لم تملك الفرصة لتنشغل بتنظيم البيت على نطاق واسع، وتطحن القرفة، وتضع الفانيلا في الحساء أو تغلي القشدة الثخينة، بل لأنّ أبلوموف لم يعد يتذوق تلك الأطعمة منذ أكثر من سنة؛ ولأنّ قهوته لم يعد يشتريها بكمية كبيرة من أفضل المتاجر، بل بسعر عشرة كوبيكات من متجر صغير في ركن الشارع؛ ولأنّ قشدتهُ لم تعد المرأة الفنلندية تجلبها، بل يتم تجهيزها من نفس المتجر الصغير؛ ولأنه بدلًا من أن تجلب له شرائح اللحم الطرية كانت تطعمهُ عجّة البيض للغداء مقلية بقطعة صلبة من فخذ الخنزير سيئة المذاق من المتجر الصغير نفسه.

لكن ماذا كان يعني ذلك؟ يعني أنه منذ أكثر من سنة كانت واردات أبلوموفكا، التي يرسلها شتولتس فورًا، كانت تصرف من أجل تسديد الدين الذي كان يعطيه أبلوموف إلى سيدة المنزل وفق السَّنَد الذي احتال كل من تارانتييف وإيفان ماتيفيتش على تسجيله عليه.

نجح الإجراء «القانوني بشكل مثالي» الذي اتخذه أخ سيدة المنزل نجاحًا أكبر مما هو متوقع. فقد تورَّد أبلوموف خجلًا وأصبح مضطربًا عند أول تلميح لتارانتييف عن «علاقته المخزية» مع سيدة المنزل. ثم توصَّلوا إلى اتفاق وشربوا ثلاثتهم، ووقَّع أبلوموف سند الدين الذي يجب أن يسدّد في غضون أربع سنوات. وبعد شهر وقَّعَت أغافيا ماتفييفنا سندَ دين مشابهًا مكتوبًا باسم أخيها، دون أن تشك به أو تسأل عن سبب توقيعها له. أخبرها أخوها بأنه كان وثيقة تتعلق بملكية البيت وطلب منها أن تكتب فيه: «سند الدين هذا قد وقَّعته بيدها السيدة أغافيا ماتفييفنا». الاعتراض الوحيد الذي أثارته هو أنها لم تكن لديها خبرة كبيرة بالكتابة وربما تفسد الأمر وطلبت من أخيها أن يكتب ابنها فانيا بدلًا عنها،

لأنه يكتب بشكل جميل الآن. لكنّ أخاها أصرّ بثبات على أن تؤدي المهمة بنفسها فكتبته بشكل ملتوٍ ومائل وبحروف كبيرة. ولم تسمع عنه مطلقًا مرة أخرى.
إنّ أبلوموف حين وقّع سند الدين شعر بشيء من الارتياح لأنه اعتقد بأن النقود سوف تذهب إلى أطفال أغافيا ماتييفنا، وفي اليوم التالي، حين صفا ذهنهُ، تذكر الأمر وخجل منهُ وحاول أن ينساه، متجنبًا أخ سيدة المنزل؛ حتى أنه هدّد تارانييف حين ذكر المسألة، بمغادرة البيت فورًا والذهاب إلى الريف. بعد ذلك، حين تسلّم النقود من عزبته، جاء أخ سيدة المنزل ليراه ويبلغه بأنه (أبلوموف) من الأسهل له البدء بالدفع فورًا من وارده، لأن الدعوى توصي بدفع الدين في غضون ثلاث سنوات، بينما إذا انتظر حتى يحل وقت الدفع المستحق، فإنّ عزبته يجب أن تباع في المزاد العلني، بما أن أبلوموف ليس لديه المبلغ الضروري نقدًا وليس من المحتمل أن يحصل عليه. أدرك أبلوموف المأزق الذي وقع فيه إذ كانت النقود التي يرسلها شتولتس تذهب إلى تسديد دينه، فلم يتبقَّ له إلا مبلغ زهيد يعيش منه.
كان أخ سيدة المنزل في عجلة من أمره من أجل إنهاء هذا العقد الطوعي مع مَدينِهِ في غضون سنتين، وكان يخشى بأن شيئًا ربما يحدث فتفشل خططه، وذلك هو السبب الذي وجد فيه أبلوموف نفسه فجأة وهو يواجه الصعوبات. في البداية لم يلاحظ الأمر كثيرًا نظرًا لعادته في عدم معرفته بكمية النقود الموجودة في جيبه؛ لكن إيفان ماتيفيتش وضع في ذهنه أن يخطب ابنة أحد تجار الحبوب، لذا أجّر شقة وانتقل إليها. وفجأة تقلَّصت خطط أغافيا ماتفييفنا الطموحة في التدبير المنزلي: فسمك الحفش، ولحم العجل الأبيض، والدجاج الرومي ظهرت في مطبخ آخر في شقة إيفان ماتيفيتش الجديدة.
كانت الغرف هناك تضاء في أوقات المساء، وتجمَّع أقرباؤه المستقبليون وزملاؤه في الدائرة وتارانتييف؛ كان كل شيء موجود هناك. أما أغافيا ماتفييفنا وأنيسيا فلم يُترك لهما شيء تفعلانه، وهما تحدّقان فاغرتي الفم في الأواني والقدور الفارغة. علمتْ أغافيا ماتفييفنا لأول مرة بأنها تمتلك فقط بيتًا وحديقة خضراوات

ودجاجًا وأن القرفة ونبات الونيلية لم يعودا يزرعان في حديقتها. رأت بأن أصحاب المتاجر في السوق توقفوا تدريجيًا عن الانحناء لها أو الابتسام بوجهها وبأن هذه الانحناءات والابتسامات توجهت الآن إلى طباخة أخيها الجديدة الطويلة حسنة الهندام.
أعطى أبلوموف سيدة المنزل كل ما يملك من المال الذي تركهُ له أخوها لكي يعيش عليه، وظلت لمدة ثلاثة أو أربعة أشهر، كالسابق، تطحن أرطالًا من القهوة والقرفة وتشوي لحم العجل والدجاج الرومي، وتواصل العمل حتى آخر النهار الذي صرفت خلاله آخر سبعين كوبيكًا وتأتي لتخبرهُ بأنه لم يتبق عندها نقود.
تقلّب ثلاث مرات على الأريكة حين سماعه الخبر، ثم نظر في دُرج طاولته؛ لم يبق كوبيك واحد. حاول أن يتذكَّر أين وضع النقود لكنه لم يستطع؛ تحسّس بارتباك بحثًا عن بعض القطع النحاسية على المنضدة وسأل زاخار، الذي أجاب بأنه لا يملك أي فكرة عنها. جاءت لكي ترى أخاها وتخبره بشكل ساذج بأنه لم يكن ثمة نقود في البيت.
سأل:
ولماذا بَذَّرْتُمَا أنتِ وسيادته آلاف الروبلات التي أعطيتها له من أجل تكاليف العيش؟ من أين لي بالمال؟ أنتِ تعرفين بأني سأتزوج فلا أستطيع أن أُعيل أُسرتين، وأنتِ وسيّدك كان من الأفضل أن تمدّا رجليكما على قدر بساطكما[69].
قالت:
لماذا توجِّه اللوم لي وله؟ ماذا فعلَ لك؟ إنه لا يؤذي أحدًا. إنه معتزل عن الناس. لستُ أنا الذي أغريته بالمجيء إلى البيت بل أنتَ وتارانتييف.
أعطاها عشرة روبلات وأخبرها بأنه ليس لديه المزيد. لكن بعد أن ناقش المسألة بعد ذلك مع تارانتييف في الحانة، قرّر أنه من المستحيل التخلّي عن أبلوموف وأخته بهذه الطريقة، لأن أخبار ذلك سوف تصل إلى شتولتس، الذي ربما يحلّ

69أي أن يوفق المرء بين الدخل والخرج.

فجأةً ويكتشف ما حدث، ومن المحتمل أنه سيتخذ إجراءً لكي لا يجدا الوقت الكافي لجمع الدَّين على الرغم من أنه «قانوني تمامًا». إنه ألماني، ولهذا السبب فهو وغد بارع!

وافق على منحها خمسين روبلًا في الشهر، على أمل أن يسترجع ذلك المبلغ من وارد أبلوموف بعد ثلاث سنوات من الآن. لكن أوضح لأخته تمامًا، وأعلن أيضًا بأنه جاهز للقَسَم عليه، بأن لا يعطيها بعد ذلك كوبيكًا واحدًا. قام بحساب مصروفهم على الطعام وكيف يجب أن يوفِّروا من التكاليف، حتى أنه أخبرها ما الأطباق التي يجب أن تطبخها ومتى؛ وتحقّق أخيرًا من وارد تربيتها للدجاج وزراعتها للملفوف، وأعلن لها بأنّ بإمكانها بعد ذلك أن تعيش بترف وتنعُم بكل شيء.

لأول مرّة في حياتها تفكّر أغافيا ماتفييفنا لا بالتدبير المنزلي بل بشيء آخر. لأول مرة انخرطت في البكاء، لا لأنها كانت غاضبة على أكولينا بسبب كسرها الآنية الفخارية ولا لأنّ أخاها وبّخها بعنف بسبب عدم نضوج السمك الذي طبخته؛ لأول مرة كانت تواجه تهديد الحرمان والفاقة، وهو التهديد الذي لم يكن موجّهًا ضدّها بل ضد أبلوموف.

قالت متأمّلة:

كيف يمكن لرجل نبيل مثله أن يأكل اللفت بدلًا من الهليون، ولحم الضأن بدلًا من لحم الطيهوج البندقي والسمك المقدّد وربما لحم الخنزير المخلل من المتجر الصغير بدلًا من سمك السلمون المرقّط من غاتتشينا[70] وسمك الحفش الأصفر...

أمر فظيع! إذ إنها لم تستطع التفكير بالمقارنة إلى النهاية، لكنها ارتدت ملابسها بسرعة وأخذت عربة وذهبت لترى أقارب زوجها الراحل لا في عيد الفصح أو عيد الميلاد عند غداء العائلة، بل في الصباح الباكر، وقد أصابها القلق بشدّة،

70بلدة جنوب مدينة بطرسبورغ.

لتخبرهم بحكاية غريبة ولتطلب منهم ماذا كان عليها أن تفعلهُ ولكي تحصل على المال منهم. كانت لديهم وفرة من المال، كانوا سيعطونه لها فورًا لو عرفوا أنه كان من أجل أبلوموف. لو أرادت المال من أجل شراء الشاي أو القهوة، أو ملابس الأطفال وأحذيتهم ووسائل ترف مشابهة، فلَمَا حلمت بطلبه منهم، لكنها أرادتهُ من أجل حاجة ماسّة: في الحقيقة أرادتهُ من أجل أن تحصل على الهليون لأبلوموف، وأن تشتري لحم الطيهوج والفطائر الفرنسية التي كان يحبّها كثيرًا... لكن أنسباءها اندهشوا ولم يعطوها المال، وأخبروها إن كان لدى أبلوموف بعض الذهب أو الفضة والفراء فإنهم سيعطونه ثلث قيمتها وينتظرون إعادة المبلغ حتى يتسلّم النقود من الريف. كان هذا الدرس العملي سيضيع في أي وقت من سيدة المنزل ولن يكون له بصمة على عقلها الذكي، مهما حاول أحد أن يوضح لها الموقف، لكن هذه المرة فهمت هذا الدرس بحكمة قلبها، وقدّرتهُ بعناية، فرهنت اللآلئ التي تسلمتها مَهرًا لزواجها. في اليوم التالي، شرب أبلوموف من دورق الفودكا، دون أن يشك بأي شيء، ثم أتبعهُ بأكل سمك السلمون المُدخّن وطبقه المفضّل من كبد الطيور، ولحم الطيهوج الأبيض. كانت أغافيا ماتفييفنا وأطفالها يتناولون حساء الملفوف والعصيدة التي صنعها الخدم، ولكي تبقى بصحبة أبلوموف فقد شربت كوبين من القهوة. وفورًا بعد رهن سلسلتها من اللآلئ التقطت من خزانة خاصة قلادتها الماسية، ثم أشياءها الفضية ومعطفها المصنوع من الفراء... حين وصلت النقود من الريف، منحها أبلوموف كلها لها. استرجعت اللآلئ، وأبدت اهتمامها بالقلادة، والفضة، والفراء، وبدأت مرة أخرى تطبخ الهليون ولحم الطيهوج البندقي له، وتشرب القهوة معه لمجرد الظهور لا غير. لكن سلسلة اللؤلؤ عادت إلى مقرضي الرهون. كانت تكافح بقلق من أسبوع لآخر، ومن يوم لآخر من أجل سد رمقها، فباعت شالها وأرسلت أفضل ثوب عندها للبيع وبقيت في ثوبها القطني الرخيص ذي الكم القصير، وغطّت رقبتها في أيام الآحاد بمنديل متهرئ قديم.

وهذا هو السبب في أنها أصبحت نحيلة، وباتت عيناها غائرتين، وكانت تجلب الغداء إلى أبلوموف بنفسها. كان لديها الشجاعة أيضًا كي تبدو مسرورة حين أخبرها أبلوموف بأن تارانتييف وألكسييف أو إيفان غاراسيموفيتش سوف يأتون إلى الغداء في اليوم التالي. كان الغداء سائغًا والخدمة جيدة، فلم تخذل المضيف. لكن كم كلَّفتها تلك الوليمة من الهياج والتجوال والتوسلات في المتاجر وسهر الليالي وحتى الدموع! كم وجدت نفسها فجأة وهي منغمرة عميقًا في مشاكل الحياة، وكم أجادت في التوصل إلى معرفة أيامها السعيدة والتعيسة! لكنها أحبّت هذه الحياة: وعلى الرغم من قسوة دموعها الشديدة وقلقها فلم تبدلها بحياتها السابقة الهادئة، حين لم تتعرف بعد على أبلوموف، وحين كانت ترعاها بكرامة بين القدور والمقالي التي تغلي وتئز، وتصدر أوامرها إلى أكولينا والحارس. ارتعدت برعب حين فكّرت بالموت فجأةً وهو يظهر لها، على الرغم من أن الموت بنفخة واحدة سوف يقضي على دموعها التي لن تجف، واندفاعها خلال النهار وعجزها عن غلق عينيها خلال الليل.

أكل أبلوموف وجبة الغداء وسمع ماشا تقرأ باللغة الفرنسية، وأمضى بعض الوقت في غرفة أغافيا ماتفييفنا يراقبها وهي ترتق سترة فانيا المدرسية، وتقلّبها عدّة مرات على هذا الجانب أو ذاك، وفي الوقت نفسه تندفع داخل المطبخ لكي تلقي نظرة على لحم الضأن الذي كانت تشويه لتقدّمهُ في الغداء، ولترى إن كان الوقت قد حان لطبخ حساء السمك.

قال أبلوموف:

يجب أن لا تتجشمي عناء ذلك كله حقًا! امنحي نفسك الراحة!

قالت:

ومن يتجشَّم عناء ذلك غيري؟ حالما أضع رقعتين هنا سأحضّر حساء السمك. يا له من طفل وقح فانيا! فقد رتقتُ له معطفه الأسبوع الماضي، وها هو يمزّقهُ من جديد! علامَ تضحك؟

والتفتتْ إلى فانيا الذي كان جالسًا عند المائدة مرتديًا قميصًا وبنطالًا بحمّالة واحدة.
وأضافت:
لو لم أصلحهُ قبل الصباح فلن تكون قادرًا على الركض إلى البوابة. أتوقّع أنَّ الصبيان هم الذين مزّقوه. هل تشاجرت معهم؟
قال فانيا:
كلا، يا أمّي، لقد تمزّق من تلقاء ذاته.
هل تمزّقَ من تلقاء ذاته؟ يجب أن تجلس في البيت وتؤدِّي واجبك البيتي ولا تركض في الشوارع. في المرة القادمة إذا ما قال السيد أبلوموف بأنك لم تحفظ دروسك بالفرنسية بصورة صحيحة، سوف أنزع حذاءك أيضًا لتجلس وتؤدي واجبك البيتي حينئذ!
لا أُحبُّ الفرنسية.
سأل أبلوموف:
لماذا؟
لديهم الكثير من الكلمات السيئة في الفرنسية.
توردت أغافيا ماتفييفنا خجلًا وانخرط أبلوموف في الضحك. إنها ليست المرة الأولى التي يُثار فيها موضوع «الكلمات السيئة».
قالت:
اصمتْ أيها الولد الوقح. ألا تستطيع أن تمسح أنفكَ؟
تنشّقَ فانيا لكنهُ لم يمسحْ أنفه.
تدخّل أبلوموف:
انتظر حتى أحصل على المال من الريف سوف أجلب لكَ معطفين. سترة زرقاء وزيّ مدرسي بعد أن تدخل إلى المدرسة الثانوية في السنة القادمة.
قالت أغافيا ماتفييفنا:

آه، سترته القديمة ما زالت جيدة جدًا. سأحتاج إلى النقود للشؤون المنزلية. يجب أن نجهّز اللحم المقدّد وسوف أصنع لك المربّى. يجب أن أذهب وأرى إن كانت أنيسيا قد جلبت قشدة التخمير.

نهضت.

سأل أبلوموف:

ماذا لدينا اليوم للغداء؟

حساء السمك، ولحم الضأن المشوي والفطائر.

لم يقل أبلوموف شيئًا.

فجأة ظهرت عربة، وكان ثَمَّ طَرَقٌ على البوابة تبعهُ نباح الكلب ووقفزه. عاد أبلوموف إلى غرفته وهو يفكّر بأنّ شخصًا جاء ليرى سيدة المنزل: القصّاب، بائع الخضار أو شخص آخر. مثل هذه الزيارات كان يصاحبها عادةً طلب النقود، ورفض سيدة المنزل، وتهديد بائع الخضار، يتبعهُ توسّلات وإهانات، وصفق أبواب، وضرب للبوابات ونباح الكلب ومحاولته اليائسة للقفز من السلسلة وهو مشهد مزعج تمامًا. لكن هذه المرة وصلت عربة فماذا كان ذلك يعني؟ فالقصَّابون وبائعو الخضار لا يأتون بعربات.

اندفعت صاحبة المنزل فجأة نحو غرفته وقد أصيبت بالفزع.

قالت:

زائر سأل عنك.

مَنْ؟ هل هو تارانتييف أم ألكسييف؟

كلا، كلا، إنه النبيل الذي جاء إلى الغداء في عيد شفيعك.

صالح أبلوموف متوجسًا:

شتولتس!

ونظر حوله باحثًا عن طريق للهروب.

وأضاف بسرعة وانسحب إلى غرفة صاحبة المنزل:

ماذا سيقول حين يرى... أخبريه إني غير موجود في البيت!

كانت أنيسيا على وشك أن تفتح الباب للزائر. وكان لدى أغافيا ماتفييفنا الوقت لكي تعطيها أمر أبلوموف. صدّقها شتولتس، مع أنَّهُ لم يتمالك نفسه من التعبير عن دهشته من عدم وجود أبلوموف.

قال وذهب إلى المنتزه العام في الجوار:

حسنٌ جدًا، قولي لسيّدك بأني سأكون هنا في غضون ساعتين وسوف أتناول الغداء معه.

صاحت أنسيا متوجسة:

سوف يأتي إلى الغداء!

كرّرت أغافيا ماتفييفنا القول لأبلوموف وهي تشعر بالفزع:

سوف يأتي إلى الغداء!

قرّر أبلوموف بعد فترة توقف:

سيتوجب عليكِ أن تحضِّري غداءً آخر.

وجهت له نظرة مليئة بالرعب. كل ما بقي خمسون كوبيكًا، ولم تزل عشرة أيام من بداية الشهر، حين أعطى لها أخوها النقود. ربما لن تستطيع أن تحصل على دائن آخر.

علّقت متوجّسة:

لن يكون لدينا وقت. يجب يقنع بالأكل بما هو موجود لدينا.

لكنه لن يأكله. إنه يكره حساء السمك ولا يأكل حتى حساء سمك الحفش. ولم يذق لحم الضأن أيضًا.

قالت كأنما نزل عليها إلهام مفاجئ:

يمكن أن أحصل على لسان من متجر النقانق. إنه ليس بعيدًا من هنا.

ذلك أمر حسن، اذهبي وأحضري أيضًا بعض الخضراوات والفاصوليا الطازجة.

كانت على وشك أن تقول، لكنها لم تفعل:

الفاصوليا بثمانين كوبيكًا للرطل.

قالت وقررت شراء الملفوف بدلًا من الفاصوليا.

حسنٌ، سأذهب.

أمَرَها ولم يكن لديه فكرة عن موارد أغافيا ماتفييفنا المالية:

اجلبي رطل من الجبنة السويسرية، ولا أكثر. سوف أعتذر وأقول إننا لم نكن نتوقع زيارته... آه نعم، هل يمكن أن تجلبي أيضًا حساءً صافيًا لذيذًا؟

كانت على وشك أن تغادر الغرفة.

فجأة تذكّر:

والنبيذ؟

نظرت نظرة رعب جديدة.

ختم كلامه ببرود:

يجب أن تحضّري نبيذًا فرنسيًا أحمر.

***

(6)

وصل شتولتس بعد ساعتين.

سأل:

ما الذي حصل لك؟ كم تغيَّرتَ! تبدو شاحبًا ومتورمًا! هل أنت على ما يرام؟

قال أبلوموف واحتضنهُ:

كلا يا أندريه، لست على ما يُرام مطلقًا. لقد شُلّت ساقي اليسرى.

قال شتولتس ونظر حوله:

يا لها من فوضى شنيعة تعجُّ بها غرفتك! لماذا لا ترمي مبذلك؟ انظر إليه! إنه مليء بالرقع.

إنها العادة يا أندريه. سأحزن حين أفارقه.

بدأ شتولتس:

والبطانيات والستائر! هل هذه أيضًا عادة؟ هل تحزن حين تبدّل هذه الأسمال؟ يا إلهي، هل تستطيع فعلًا أن تنام في هذا الفراش يا رجل؟ ماذا جرى لك؟

قال أبلوموف ونظر مرتبكًا:

آه، لا شيء. كما تعلم فأنا لا أهتم بترتيب غرفي... هيّا فلنتناول الغداء. هاي، زاخار! حضّر المائدة سريعًا. طيّب، كيف حالك؟ هل تبقى هنا طويلًا؟ من أين جئت؟

سأل شتولتس:

خمّن ما فعلتهُ ومن أين جئت؟ آه، افترض أنك لا تحصل على أية أخبار من خارج العالم هنا، صحيح؟

نظر إليه أبلوموف باهتمام، وانتظر أن يسمع ما قاله.

سأل:

كيف حال أولغا؟

قال شتولتس:

آه، ألم تنسها؟ لم أكن أعتقد بأنك ستتذكرها.

كلا يا أندريه، وهل أستطيع أن أنساها؟ ذلك يعني نسيان أني كنت حيًّا في يوم من الأيام، وأني كنتُ أعيش في الفردوس...

تنهّد وقال:

وها أنت ترى حالتي الآن! لكن أين هي الآن؟

إنها تبحث عن عزبتها.

سأل أبلوموف:

مع عمّتها؟

ومع زوجها.

صاح أبلوموف وحدّق في شتولتس:

هل تزوجت؟

أضاف شتولتس بلين ورفق تقريبًا:

لماذا توجّست؟ هل هي الذكريات؟

صاح أبلوموف وعاد إلى رشده:

يا إلهي، كلا! لست متوجسًّا، بل مندهشًا. لا أعرف لماذا أجفلني الأمر. هل تزوجت منذ مدة طويلة؟ هل هي سعيدة؟ أخبرني من فضلك. أشعر كأنك رفعت ثقلًا عن كاهلي. مع أنك أكَّدت لي بأنها غفرت لي فإني شعرتُ بالقلق كما تعرف! شيء ما راح يقضمني... عزيزي أندريه، كم أعترف لك بالجميل!

كان مسرورًا حقًا، وكان يقفز على الأريكة، غير قادر على أن يبقى ساكنًا، بحيث إن شتولتس لم يتمالك نفسه من الإعجاب به وكان أيضًا متأثرًا.

قال:

كم أنت رجل طيب يا إيليا. كان قلبك جدير بها. سوف أخبرها كل شيء.

قاطعهُ أبلوموف:

كلا، كلا لا تخبرها! سوف تعتقد بأني بلا إحساس لو سمعت بأني كنتُ سعيدًا بزواجها.

لكن ألا يُعَدُّ السرور إحساسًا وإيثارًا أيضًا؟ أنت مسرور لأنها سعيدة.

قاطعهُ أبلوموف:
صحيح، صحيح! لا أعرف عمّا أتكلم. لكن من يكون الرجل المحظوظ؟ نسيت أن أسأل.
كرّر شتولتس:
من تعتقد؟ كم أنت بطيء يا إيليا!
نظر أبلوموف فجأة بلا حركة إلى صديقه: وسرعان ما أصبح وجهه جامدًا وغادر اللون وجنتيه.
سأل فجأة:
هل أنتَ زوجها؟
سأل شتولتس ضاحكًا:
هل أنت خائف مرة أخرى؟ ما بك؟
صاح أبلوموف مرتعشًا:
لا تمزح يا أندريه أخبرني الحقيقة!
بالطبع، أنا لا أمزح. لقد تزوَّجتُ من أولغا لأكثر من سنة.
اختفت سيماء التوجس من وجه أبلوموف فجأةً، وحلّ مكانها تعبير من التأملّ الهادئ؛ لم يرفعْ عينيه، لكن تأمله كان تحوَّلَ بعد دقيقة إلى فرح عميق وهادئ، وحين تطلَّع ببطء إلى شتولتس، كانت عيناه ممتلئتين بالعاطفة الرقيقة والدُّموع.
قال أبلوموف واحتضن صديقه:
عزيزي أندريه!
وأردف وكبح حماسه:
عزيزتي أولغا سرغييفنا اللهّ يبارك فيكما! يا إلهي، كم أنا سعيد! أخبرها...
قاطعهُ شتولتس وتأثر عميقًا:
سوف أخبرها بأني لا أعرف مثيلًا لأبلوموف!
كلا أخبرها، وذكِّرها بأنَّ شملنا التمَّ من أجل أن نضعها على الطريق الصحيح وبأني أبارك لقاءنا وأبارك لها مسارها الجديد في الحياة!

ثم أضاف برعب:
لكن ماذا لو كان شخصًا آخر؟
ثم ختم كلامه بمرح:
لكن الآن أنا غير خجلان من الدور الذي أدَّيتُهُ ولست آسفًا عليه. فقد رُفع حملٌ ثقيل عن كاهلي؛ كل شيء واضح هناك وأنا سعيد. الحمد للهّ!
كاد أن يطفر على الأريكة من الحماس والتأثر بحيث إنه كان يضحك تارة ويبكي تارة أخرى.
صاح ونسي بأنه لا يملك كوبيكًا واحدًا:
زاخار، هات الشمبانيا للغداء!
قال شتولتس:
سوف أخبر أولغا بكل شيء. أنا أفهم الآن لماذا لم تستطع أن تنساك. كلا، إنك جدير بها: فقلبك عميق مثل بئر!
راح زاخار يطلُّ برأسه من الباب:
قال وهو يغمز لسيّده:
من فضلك سيدي، لحظة واحدة!
سأله أبلوموف نافد الصبر:
ماذا تريد؟ اذهبْ!
همس زاخار:
أريدُ نقودًا من فضلك!
صمتَ أبلوموف فجأةً.
همس عند الباب:
لا داعي لذلك. قل لقد نسيت أو أنك ليس لديك وقت! اذهبْ الآن!
قال بصوت عال:
كلا، ارجعْ! هل سمعتَ الأخبار يا زاخار؟ هنّئ السيد شتولتس لأنه تزوّج.

حقًا تزوجتَ يا سيدي؟ أنا مسرور يا سيدي أن أعيش وأسمع مثل هذه الأخبار السعيدة. تفضل بقبول تهنئتي سيدي شتولتس! أدعو لك بالرفاء والبنين. يا إلهي، حقًا إنها أنباء عارمة سيدي!

انحنى زاخار وابتسم ثم نخرَ وتنفّس بأزيز مسموع. التقط شتولتس ورقة نقدية وأعطاها له.

قال:

هاك. خذها واشترِ لنفسك معطفًا؛ تبدو مثل المتسوّل.

سأل زاخار وحاول أن يلتقط يد شتولتس لكي يقبّلها:

مِمَّنْ تزوجتَ يا سيّدي؟

قال أبلوموف:

أولغا سرغييفنا.

الشابة من عائلة إلينسكي! يا ربّي، يا لها من فتاة جميلة يا سيدي! كنتَ محقًا في تعنيفي ذلك الوقت سيدي بسبب الإشاعات، لقد كنتُ كلبًا! تلك كانت غلطتي الحمقاء يا سيدي: فكّرتُ بأنه أنت. أنا الذي أخبرت خدَم عائلة إلينسكي حول الأمر وليس نيكيتا! آه، كان افتراءً!

وظلّ يكرّر بينما كان يخرج من الغرفة:

يا إلهي، يا إلهي...

تدعوك أولغا أن تبقى في بيتها الريفي. حبّك ذوى، فلا خطر هناك: لن تكون غيورًا. دعنا نذهب.

تنهّد أبلوموف. وقال:

كلا، أندريه، لا أخاف الحبّ أو الغيرة، لكن لن أذهب معك.

أخاف أن أحسدك: ستكون سعادتك مثل المرآة التي أرى فيها حياتي المريرة الضائعة؛ كما ترى فإني لن أعيش بعد ذلك بشكل مختلف، لا أستطيع.

عزيزي إيليا، كيف يمكن أن تتكلم هكذا؟ سوف يتوجب عليك العيش بنفس نوع حياة الذين حولك، شئتَ أم أبيت. سوف تمسك الحسابات، وتعتني

بعزبتك، وتقرأ، وتستمع إلى الموسيقى. لا تستطيع أن تتصور كم كان صوتها قد تحسّن! هل تتذكر أغنية «الإلهة النقية»؟

لوّح أبلوموف بيده لكي يوقف شتولتس عن تذكيره بما مضى.

أصرّ شتولتس:

فلنذهب! هذه رغبتها. لن تتركك وحدك. قد أكون تعبت من الطلب منك وليست هي. ثمة الكثير من الطاقة والنشاط فيها بحيث إني أجد في الكثير من الأحيان أنه من الصعب مسايرتها بنفسي. سوف يبدأ الماضي يتحرك في روحك. سوف تذكر المنتزه وغصن الليلك وسوف تستنهض نفسك...

قاطعهُ أبلوموف جدّيًا:

كلا، أندريه؛ لا تذكرني بها، لا تحاول أن تستنهضني باللهَّ عليك. إنها لا تريحني، إنها تؤلمني. فالذكريات إما أن تكون رومانسية جميلة حين تشي بالسعادة الحقيقية أو تكون ألما حارقًا حين تكون مرتبطة بالجروح التي لن تشفى. دعنا نتكلم عن شيء آخر. آه، لقد نسيت أن أشكرك بسبب اهتمامك بمشكلة عزبتي وشؤونها. لا أستطيع يا صديقي، لا أشعر بأني أضاهيه. يجب أن تبحث عن امتناني في قلبك، وسعادتك في أولغا... سيرغييفنا، لكني لا أستطيع! أنا آسف لأني أسبب لك كل هذه المتاعب. لكن الربيع سرعان ما يحل وسوف أذهب بالتأكيد إلى أبلوموفكا...

قال شتولتس:

لكن هل لديك فكرة عمّا يحدث في أبلوموفكا؟ لن تعرف! لم أكتب لك لأنك لا تجيب عن رسائلي. الجسر تم بناؤه والبيت انتهى تشييده بسقفه وكل شيء. لكن يجب أن تختار الديكور الداخلي حسب ذوقك فأنا لا أستطيع أن أتولى مسؤولية ذلك. المدير الجديد لأملاكك هو أحد رجالي وهو يعتني بكل شيء. هل اطّلعتَ على الحسابات؟

لم يَجِرْ أبلوموف جوابًا.

سأل شتولتس:

ألم تقرأها، أين هي؟
مهلًا، سوف أعثر عليها بعد الغداء. يجب أن أسأل زاخار.
آه، إيليا، إيليا! لا أدري هل أضحك أم أبكي.
سوف نجدها بعد الغداء. فلنتناول الغداء!
عبَس شتولتس بينما جلس على المنضدة. تذكر حفلة عيد الشفيع لأبلوموف: المحار، الأناناس، وطيور الشنقب. والآن رأى غطاء مائدة خشن، وقناني مغطاة بلفَّات الورق بدلًا من الفلّين، وشوكات ذات مقابض مكسورة، وقطعتين من خبز أسود في أطباقها. كان لدى أبلوموف حساء السمك وتكاد توجد لديه مرقة ودجاج مسلوق، ثم لحم لسان متصلب مع لحم الضأن. أُحضِرَ نبيذ أحمر. صبّ شتولتس لنفسه نصف كأس، وارتشف منه، ثم وضع الكأس خلف المنضدة، ولم يمسّه مرة أخرى. شرب أبلوموف كأسين من الفودكا المنقَّعة بأوراق العنب، تباعًا، ثم التهم لحم الضأن بنهم.
قال شتولتس:
النبيذ رديء جدًا.
قال أبلوموف:
أنا آسف. كنا مشغولين ولم يتسنَّ لنا أن نعبر إلى الجانب الآخر من النهر لجلبه.
ألا تشرب بعض الفودكا؟ إنه رائع. حاول أن تشربهُ يا أندريه؟
صبّ لنفسه كأسًا آخر وشربه. نظر شتولتس له بدهشة لكنه لم يعترضه.
قال أبلوموف وثمل قليلًا:
أغافيا ماتييفنا تصنعهُ بنفسها. إنها امرأة لطيفة. يجب أن أقول بأني لا أعرف كيف سأكون قادرًا على العيش في الريف دونها؛ لن تعثر على ربة منزل مثلها في أي مكان.
أصغى شتولتس إليه وهو عابس قليلًا.
تابع أبلوموف:

من تظن حضّر كل هذا الطبخ؟ أنيسيا؟ كلا سيدي! أنيسيا تعتني بالدواجن وتقطّع الملفوف وتمسح الأرضيات. أما أغافيا ماتفييفنا فهي تقوم بكل هذا.

لم يأكل شتولتس لحم الضأن أو الفطائر. وضع شوكته وراقب بشهية أبلوموف وهو يلتهمها كلها.

تابع أبلوموف وهو يمصّ عظمة بمتعة كبيرة:

الآن لن تراني ألبس قميصي بالمقلوب. إنها تفحص كل شيء ولا تفوّت شيئًا كل جواربي قد رتقتها كلها بنفسها. والقهوة التي تصنعها! سترى بنفسك حين تشربها بعد الغداء.

استمع شتولتس بصمت وقد ظهر القلق على محيَّاه.

الآن أخوها ذهب ليعيش في شقة خاصة به لقد قرَّر الزواج لهذا فإن الأمور ليست بهذا النطاق الواسع كما في السابق. فيما مضى كانت لا تفرغ دقيقة واحدة. اعتادت على العمل الدائب من الصباح حتى المساء. إذ تذهب إلى السوق والمتجر...

وختم متلعثمًا في كلامه:

أخبرك ماذا... أعطني ألفين أو ثلاثة آلاف وسوف أجلب لك شيئًا أفضل من لحم اللسان ولحم الضأن سمك الحفش والسلمون وشريحة لحم بقر فاخرة. وسوف تعمل أغافيا ماتفييفنا الأعاجيب دون طبّاخة نعم سيّدي!

شرب كأسًا أخرى من الفودكا.

قال وتكلم بشكل غليظ نوعًا ما:

اشرب يا أندريه؛ فهناك رجل طيب وفودكا رائعة! وأولغا سرغييفنا لن تصنع لك فودكا مثل هذه. تستطيع أن تغني أغنية «الإلهة النقية» لكنها لا تعرف كيف تصنع مثل هذه الفودكا! ولا تعرف تصنع فطيرة الدجاج والفطر! فهذه الفطائر تصنع فقط في أبلوموفكا وهنا الآن! والرائع في الأمر أنّه لا يصنعها رجل طبّاخ: فلن تعرف كيف ستكون يداه حين يصنع الفطائر، لكن أغافيا ماتفييفنا هي مثال للنظافة نفسها.

استمع شتولتس بانتباه شديد وفهم كلامه.
واصل شتولتس وكان هذه المرة ثملًا حقًا:
واعتادت أن تكون يداها بيضاوين جدًا بحيث لا تتمالك نفسك من تمنّي تقبيلهما! لكن الآن أصبحتا خشنتين جدًا لأنه، كما ترى، كان عليها أن تعمل كل شيء بنفسها.
وصاح وشعر بأنه على وشك البكاء:
فهي تنشّي قميصي بنفسها! فعلًا تفعل ذلك فقد رأيتها بنفسي. أقول لك إنّ العديد من الزوجات لا يعتنين بأزواجهنّ كما تهتم بي نعم سيدي! مخلوقة لطيفة هي أغافيا ماتفييفنا! انظر هنا يا أندريه، لماذا لا تأتي وتعيش هنا مع أولغا سرغييفنا؟ أعني أن تبني لك كوخًا صيفيًا هنا. سوف تحب المكان! سوف تشرب الشاي في الغابات وتذهب إلى مصانع البارود في عيد القديس إلياس، مع عربة مليئة بالمؤن والسماور تتبعنا. سوف تستلقي على العشب هناك على سجّادة! وتقوم أغافيا ماتفييفنا بتعليم أولغا سرغييفنا كيف تدير البيت، أعدك أنها ستفعل! أنت ترى بأن الأمور هنا ضيقة الآن إلى حدٍّ ما، لقد انتقل أخوها، ولو كان لدينا ثلاثة أو أربعة آلاف روبل فإننا سوف نحصل لك على الدجاج الرومي...
قال شتولتس فجأة:
لكنك تتسلم مني خمسة آلاف. فماذا تفعل بها؟
قال أبلوموف فجأةً من غير تفكير:
ودَيني؟
قفز شتولتس من كرسيّه.
دَينكَ؟
كرّر:
أيُّ دَين؟
ونظر إلى أبلوموف كما ينظر أستاذ صارم إلى طفل يحاول أن يخفي شيئًا عنه.

أصبح أبلوموف فجأةً صامتًا. جلس شتولتس بجانبه على الأريكة. سأل:

من هو الشخص الذي تدين له؟

صحا أبلوموف قليلًا وعاد له وعيه:

لستُ مدينًا بشيء لأحد. أنا أكذب.

آه، كلا، إنك تكذب الآن، وبصورة خرقاء أيضًا. ماذا حدث هنا يا إيليا؟ ماذا حصل لك؟ آها! ذلك هو معنى لحم الضأن والنبيذ الرديء! إنك لا تملك النقود! ماذا تفعل بها؟

قال أبلوموف:

حقيقة الأمر، إني مدين لمالكة شقتي مالًا قليلًا لقاء الطعام والمؤن.

من أجل لحم الضأن واللسان! إيليا، أخبرني، ماذا يحصل هنا؟ أي نوع من الحكاية هذه: أخ سيدة المنزل انتقل، وأصبحت الأمور تسوء... ثمة شيء خطأ هنا. كم دَينك؟

همَسَ أبلوموف:

عشرة آلاف روبل حسب سند الدَين.

قفز شتولتس على قدميه وجلس ثانيةً.

كرّر برعب:

عشرة آلاف؟ لسيدة المنزل؟ من أجل طعامك؟

دمدم أبلوموف:

نعم، حصلتُ على الكثير من رصيد الدَين كنت أعيش برغد، كما تعلم... هل تذكر الأناناس والخوخ، و - حسنٌ، هكذا انخرطتُ في الدَين. لكن ما فائدة الكلام عنهُ؟

لم يُجب شتولتس. كان يفكّر. «انتقل أخ سيدة المنزل، وساءت الأمور هكذا: كل شيء يبدو ضئيلًا وفقيرًا وقذرًا! أي نوع من النساء هذه السيدة؟ إنها تعتني به، وهو يتكلم عنها بحماس...» فجأة تغيّر لونه وقد خمّن الحقيقة، وأصبح باردًا.

قال:
إيليا، تلك المرأة، ماذا تعني لك؟
لكن أبلوموف وضع رأسه على المائدة ونام نومًا خفيفًا.
فكّر: «إنها تسرقهُ، وتأخذ كل شيء منه أمر يحدث كل يوم، ولم أفكر به حتى هذه اللحظة!» نهض شتولتس وفتح الباب المؤدي إلى غرفة سيدة المنزل بسرعة بحيث عند رؤيته أسقطت خائفة المِلعقة التي كان تحرّك بها القهوة.
قال بأدب:
أود التحدّث معك يا سيدة.
ردّت متوجّسة:
من فضلك اذهب إلى غرفة الاستقبال. سوف أجيء فورًا.
رمت منديلًا حول رقبتها، وتبعتهُ إلى غرفة الاستقبال وجلست على حافة الأريكة ذاتها. لم تعد تلبس شالها وحاولت أن تخفي يديها تحت المنديل.
سأل:
هل أعطاك السيد أبلوموف سند دَين؟
أجابت بنظرة بليدة تنم عن الدهشة:
كلا. لم يعطني أي سند دَين.
ألم يعطكِ؟
كرّرت بنفس تعبير الدهشة البليدة:
لم أرَ أي سند دَين.
كرّر شتولتس:
سند دَين!
ظلت تفكّر لمدة دقيقة.
قالت:
أعتقد بأنه من الأفضل لك أن تتكلم مع أخي. أنا لم أرَ أي سند دَين.
فكّر شتولتس: «هل هي حمقاء أم شريرة؟» سأل:

لكن ألم يكن مدينًا لك بالنقود؟
وجهت له نظرة فارغة، ثم فجأة ظهر على وجهها تعبير من التفكير والقلق. تذكرت سلسلة اللآلئ المرهونة، والفضة ومعطف الفراء، وتصورت بأن شتولتس كان يشير إلى ذلك الدَين، ولِمَ تفهم كيف تمكّن من معرفته، لأنها لم تشي بسرّه لا إلى أبلوموف فحسب، بل أيضًا لأنيسيا التي عادة ما تخبرها بكل كوبيك صرفته.
سأل شتولتس بقلق:
بكم هو مدين لك؟
لا شيء مطلقًا. ولا كوبيك واحد.
فكّر: «إنها تخفي شيئًا عني، وتستحي أن تفصح عنهُ، مخلوقة جشعة ومرابية! لكني سوف أصل إلى الحقيقة».
قال:
والعشرة آلاف روبل؟
سألت بدهشة وقلق:
أية عشرة آلاف روبل؟
سألها:
هل السيد أبلوموف مدين لك بعشرة آلاف روبل حسب سند دَين قولي نعم أم لا؟
ليس مدينًا لي بشيء. كان مدينا للقصَّاب منذ الصوم الكبير باثني عشر روبلًا وخمسين كوبيكًا. لكننا سدَّدناه منذ أسبوعين. كذلك هو دفع لبائعة الحليب لشراء القشدة إنه لا يدين لأحد بشيء.
لكن ألم تكن لديك وثيقة منه؟
نظرت بانشداه له.
أجابت:

من الأفضل أن تتكلم مع أخي. فهو يعيش عبر الشارع في بيت زاماكالوف، بالقرب من هنا تمامًا. هناك حانة في السرداب.
قال بشكل حاسم:
كلا سيدتي، أفضل الكلام معك. يقول السيد أبلوموف بأنه مدين لك بالمال، وليس لأخيك.
أجابت:
لم يكن مدينًا لي بأي شيء، وبالنسبة للآلئ والفضة ومعطف الفراء المرهونة، فقد رهنتها من أجل نفسي. اشتريتُ الأحذية لماشا ولي، والقمصان لفانيا، وأعطيتُ البقية إلى البقّال. لم أصرف كوبيكًا واحدًا على السيد أبلوموف.
نظر إليها، وأصغى وحاول أن يفهم معنى كلماته. هو وحده، كما يبدو، بلغ تخمين سر أغافيا ماتفييفنا، لكن نظرة الازدراء، والاحتقار تقريبًا التي ألقاها عليها حين تكلّم معها كانت قد حلَّت محلها تلقائيًا نظرة أخرى تحمل الاهتمام والتعاطف. في رهن اللآلئ والفضيات قرأ بغموض سر التضحيات، لكنه لم يستطع أن يقرر إن كانت قد قُدّمت نتيجة الإخلاص الكامل أو التطلُّع إلى مجيء البركات. لم يعلم إن كان يجب عليه أن يشعر بالسعادة أو الحزن بالنسبة إلى إيليا. كان من الواضح بأنه ليس مدينًا لها بشيء، وإنّ هذا الدَين كان حيلة مخادعة من أخيها، لكن تم الكشف عن الكثير من المسألة... ما معنى رهن اللآلئ والفضة؟
سأل:
إذن ألم يكن لديك دَين على السيد أبلوموف؟
أجابت بشكل رتيب:
من الأفضل أن تتكلم عن المسألة مع أخي. يجب أن يكون في البيت الآن.
تقولين إن السيد أبلوموف لم يكن مدينًا لك بأي شيء؟
أعلنت بهدوء:
ولا كوبيكًا واحدًا، أقسم أنها الحقيقة.
ونظرت إلى الأيقونة ورسمت علامة الصليب.

هل أنتِ جاهزة لتأكيد قولكِ أمام شهود؟
نعم أمام أي شخص. سوف أعترف به! أما بالنسبة لرهن اللآلئ والفضيات فقد كان لتغطية تكاليفي.
قاطعها شتولتس:
حسنٌ جدًا. سوف أعود غدًا مع صديقين لي. هل تمانعين من قول الشيء نفسه بحضورهما؟
كرّرت:
أعتقد بأنه من الأفضل أن تتكلم مع أخي. أنت ترى أني لا ألبس ملابس محتشمة فأنا دائمًا في المطبخ. ليس من اللائق أن يراني الغرباء: سوف يسيئون الظنّ بي.
لا تقلقي حول ذلك، وسوف أرى أخاك غدًا بعد أن توقّعي ورقة.
أخشى أني لا أجيد الكتابة الآن.
لا يحتاج إلى أن تكتبي كثيرًا سوى سطرين.
كلا، سيّدي. أفضل أن تعفيني من ذلك. لماذا لا تدع فانيا يكتب مكاني؟ فخطّهُ جميل.
أصرّ:
كلا، يجب أن لا ترفضي. إذا لم توقّعي الورقة فذلك يعني أن السيّد أبلوموف مدين لكِ بعشرة آلاف روبل.
كلا، ليس مدينًا لي بكوبيك واحد. أقسم على ذلك.
في هذه الحالة يجب أن توقّعي الورقة. وداعًا إلى غد.
قالت ورأته منصرفًا:
غدًا من الأفضل أن تذهب لترى أخي. إنه يعيش هناك عند الزاوية، عبر الشارع.
كلا، أطلب منكِ أن لا تقولي شيئًا لأخيك عن الأمر حتى أجيء، وإلاّ فسيقع أمرٌ بغيضٌ للسيد أبلوموف.
قالت مذعنة:
إذن لن أقول له شيئًا.

❊ ❊ ❊

(7)

في اليوم التالي أعطت أغافيا ماتفييفنا إقرارًا مكتوبًا إلى شتولتس بأنها ليس لديها أي دَين من أي نوع كان على أبلوموف. فواجه شتولتس أخاها فجأة بهذا الإقرار. فكان له وقع الصاعقة على إيفان ماتفيفيتش. انتزع سند الدَين وأشار بأصبعٍ مرتجفة من يده اليمنى، وظفْرُها للأسفل، إلى توقيع أبلوموف وتوقيع كاتبَ العدل المرفق.

قال:

إنه قانوني سيدي. لا علاقة لي به. فأنا أهتم بشؤون أختي فحسب. لا أملك فكرة عن المال الذي استدانهُ أبلوموف منها.

هدّدهُ شتولتس بينما هو ينصرف:

سوف تسبّب لنا المشاكل!

ردّ إيفان ماتفيفيتش على التهمة وأخفى يديه في كمّيه:

إنه قانوني تمامًا، وليس لي علاقة به!

حالما وصل إلى دائرته في اليوم التالي، وصل رسول من الجنرال يريد أن يراه فورًا.

ردّد كل الموظفين في الدائرة مرعوبين:

الجنرال؟ لماذا؟ هل يريد أن يطّلع على وثيقة ما؟ أي وثيقة؟ أسرعوا، أسرعوا! ضعوا الأوراق في ملفات وهيئوا جدول الأعمال، ما الأمر؟

جاء إيفان ماتفيفيتش في المساء إلى الحانة وهو مضطرب بشدة. وكان تارانتييف ينتظره هناك لعدّة ساعات.

سأله نافد الصبر:

حسنٌ، ما المشكلة يا صديقي؟

قال إيفان ماتفيفيتش بشكل رتيب:

ما المشكلة؟ ماذا تعتقد؟

هل وجهوا لك التوبيخ؟

قلّد إيفان ماتفيفيتش صوته:

توبيخ! كنت أود لو وجهوا لي ضربة!
وأردف موبّخًا له:
وأنت رجل لطيف أيضًا! هلّا حذرتني من هذا الألماني؟
لكني أخبرتك بأنه رجل وغد!
وغد، أهو كذلك؟ لقد رأينا الكثير من الأوغاد! لماذا لم تخبرني بأنّ لديه نفوذًا؟ آه، إنه يستأنس بالجنرال، تمامًا مثلما يحصل بيننا. لو كنت أعرف ذلك هل ستكون لي به علاقة؟
أجاب تارانتييف:
لكن. سند الدَين قانوني تمامًا.
قلّد إيفان ماتفيفيتش صوتهُ مرة أخرى:
قانوني تمامًا! حاول أن تقوله هناك: آه، سيلتصق لسانك عند سقف فمك. هل تعرف ماذا سألني الجنرال؟
سأل تارانتييف بفضول:
ماذا؟
سأل: هل صحيح أنك وأحد الأوغاد أسكرتما مالك الأراضي أبلوموف وأجبرتماه على توقيع سنَد دين باسم أختك؟
سأل تارانتييف:
هل قال فعلًا عبارة «وأحد الأوغاد»؟
نعم قال.
سأل تارانتييف ثانيةً:
من يقصد ب «أحد الأوغاد»؟
نظر صديقهُ له.
قال بمرارة:
لا أتوقع أنك تعرفهُ، هل تعرفهُ؟ هل يمكن أن يكون أنت؟
أنا؟ إذن تشوّش عليهم الأمر ولم يعرفوا.

بل عرفوا من الألماني وجارك الريفي. فالألماني، كما ترى، تحرّى كل شيء واستجوب الجميع...

وجَب أن تذكر لهم شخصًا آخر، يا صديقي، وتخبرهم بأني لا علاقة لي بالمسألة.

ولماذا يتوجب عليّ؟ هل أنت نوع من القديس؟

لكن ماذا قلت حين سألك الجنرال إن كان الأمر صحيحًا بأنك وأحد الأوغاد...؟ كان عليك أن تحاول تضليله.

تضليله؟ لا يمكن تضليل رجل مثل هذا! عليك أن ترى عينيه الخضراوين! بذلت جهدي لأقول له بأن الأمر كله مجرد كذب وافتراء، وإني لم أعرف شيئًا عن أبلوموف، وإنها كانت غلطة تارانتييف، لكن الكلمات خانتني ولم أستطع الكلام. لقد ارتميتُ عليه وطلبت رحمته فحسب.

سأل تارانتييف بصوت أجش:

وهل سيقاضوننا؟ تذكَّر، أن ليس لي علاقة بالأمر. والآن صديقي...

ليس لك علاقة بالأمر؟ كلا، سيدي، لو تمَّت مقاضاتنا ستكون أنت الأول. من أقنع أبلوموف بشرب الكحول؟ منْ أهانهُ وهدّدهُ؟

قال تارانتييف:

لكن كانت فكرتك؟

آه، وهل أنت قاصر؟ فأنا لا أعرف أي شيء عن المسألة بأكملها.

هذا ظلم صديقي! فكّر كم أخذتَ نقودًا كثيرة من خلالي، ولم أحصل أنا سوى على ثلاثمائة روبل فقط.

وهل تريد أن يوجَّه اللومُ إليَّ وحدي؟ أأنت ذكي؟ كلا سيدي، لم أكن أعرف عن الأمر شيئًا. لقد سألتني أختي لأصدّق سند الدَين لدى كاتب العدل، لأنها امرأة ولا تفهم بهذه الأمور، هذا كل ما في الأمر. أنتَ وزاتيورتي كنتما الشاهدين، لذا فأنت تتحمل المسؤولية!

قال تارانتييف:

يجب أن تتكلم كلامًا لائقًا مع أختك فكيف تجرؤ على أن تقف ضد أخيها؟

أختي حمقاء فماذا أفعل لها؟

وما رأيها هي؟

رأيها؟ إنها مستمرّة بالبكاء والإصرار على أن أبلوموف لا يدين لها بشيء وإنها لم تعطه أية نقود أبدًا.

قال تارانتييف:

لكن لديك سند دَين عليها. فأنت لن تفقد نقودك.

انتزع إيفان ماتفيفيتش سند الدَّين لأخته من جيبه ومزّقهُ وأعطاه إلى تارانتييف.

وأضاف:

خذه هدية مني إليك، ألا تريده؟ ماذا أستطيع أن آخذ منها؟ بيتها وحديقة الخضراوات؟ لا أملك ألف روبل لشرائه: فهو متداع. وعلى أية حال ماذا تتصورني جاحدًا؟ هل تريدني أن أجعلها تستجدي مع أطفالها؟

سأل تارانتييف خائفًا:

إذن سيقومون بمقاضاتنا، أليس كذلك؟ حسنٌ، صديقي، يجب أن تبذل ما بوسعك لكي نفلت من الورطة. عليك أن تخلّصني منها صديقي.

ومَن الذي سيقوم بمقاضاتك؟ لن تكون هناك أية مقاضاة. صحيح أنّ الجنرال هدّد بإرسالي إلى المدينة، لكن الألماني توسّط لي عنده. فهو لا يريد أن يجلب العار إلى أبلوموف.

قال تارانتييف:

لا تقل ذلك يا صديقي! كم زال الثقل عن كاهلي! دعنا نشرب!

نشرب؟ على حساب من؟ هل على حسابك؟

لماذا لا يكون على حسابك؟ فقد قبضت نقودك كالعادة اليوم بمقدار سبعة روبلات.

هل حقًا جمعتُ؟ أخشى أن أقول وداعًا لإيرادي. لم أكمل قصة ما قاله لي الجنرال.

سأل تارانتييف وأصبح فجأةً خائفًا ثانيةً:

آه، ماذا قال لك؟
أخبرني أن أقدّم استقالتي.
قال تارانتييف وحدّق في إيفان ماتفيفيتش:
يا إلهي!
ثم ختم غاضبًا:
حسنٌ، سوف أوبّخهُ الآن بصورة مناسبة!
كل ما تستطيع أن تفعلهُ أن توبّخ الناس!
قال تارانتييف:
سوف أخبرهُ ما رأيي به، وبكل ما تقوله! مع ذلك، ربما تكون على حق، وأفضّل الانتظار. لقد فكَّرتُ توًّا بشيء. استمعْ يا صديقي.
صاح إيفان ماتفيفيتش بارتياب:
ما هو؟
يمكن أن نؤدّي عملًا رائعًا، لكن من المؤسف أنك انتقلت إلى بيت آخر.
ماذا تقصد؟
قال تارانتييف ونظر إلى إيفان ماتفيفيتش:
أقصد أن نتجسّس على أبلوموف وأختك، فنرى نوع الفطائر التي تصنع هناك وحضّر شهودك! لن يستطيع الألماني نفسه عمل أي شيء حينئذ. والآن أنت حر: إذا ما جلبت دعوى قضائية ضدّهُ ستكون شرعية تمامًا! أجرؤ على القول إن الألماني أيضًا سوف يخاف وسيكون سعيدًا بالتوصل إلى اتفاق.
قال إيفان ماتفيفيتش متفكّرًا:
لا أعلم ربما تنجح الخطة! إنك جيد في طرح أفكار جديدة، لكنك لا تجيد مطلقًا العمل بمثل هذه المسألة ولا زاتيورتي. لكني سأعثر على طريقة ما.
قال وأصبح متحمسًا:
انتظر لحظة! سوف أريهم! سوف أرسل طبَّاختي إلى مطبخ أختي، ستعقد الصداقة مع أنيسيا وتكتشف كل شيء، وعندئذ دعنا نشرب يا صديقي!

كرّر تارانتييف:

فلنشرب! ثم سوف أعطي أبلوموف رأيي الصريح!

حاول شتولتس أن يأخذ أبلوموف بعيدًا إلى الريف، لكن أبلوموف طلب منه أن يسمح له بالبقاء لمدة شهر فقط، وكان طلبهُ بمنتهى الجدّ بحيث إن شتولتس لم يتمالك نفسه من إبداء الأسف على صديقه. زعم أبلوموف بأنه احتاج إلى الشهر كي يسدّد حساباته، ويتخلّى عن الشقة، ولكي يحسم شؤونه في بطرسبورغ لكي لا يحتاج إلى أن يرجع هناك. إضافة إلى أنه كان عليه أن يبيع كل شيء في بيته الريفي؛ أراد أن يجد ربة منزل جيدة، مثل أغافيا ماتفييفنا، ولم يكن يائسًا من إقناعها لكي تبيع بيتها وتنتقل إلى الريف، وإلى مهنة تليق بها التدبير المنزلي الصعب على نطاق واسع تمامًا.

قاطعهُ شتولتس:

بالمناسبة، أريد أن أسألك عن مالكة الشقة التي تنزل بها، ما هي علاقتك بها؟

تورّد أبلوموف خجلًا فجأةً.

سألهُ بسرعة:

ماذا تقصد؟

علّق شتولتس:

أنت تعرف جيدًا. وإلا لم يكن هناك داعٍ لكي تتورّد خجلًا. استمع يا إيليا، إذا كان التحذير يمكن أن ينفع فإني باسم الصداقة أدعوك أن تأخذ حذرك.

احتجّ أبلوموف وبدا مرتبكًا:

من أي شيء؟ يا إلهي!

إنك تتحدث بمنتهى الحماس بحيث إني بدأت أظن حقًا بأنك...

قاطعه أبلوموف بضحكة متكلِّفة:

أحبّها، هل أردتَ أن تقول ذلك؟ يا إلهي!

حسنٌ، ستسوء الأمور لو لم يكن حبًّا عذريا بينكما، ليته مجرّد...

أندريه، هل عرفتني دائمًا أرتكب أفعالًا غير أخلاقية؟

لماذا تورّدت خجلًا إذن؟
لأنك يمكن أن تكون قد فكرت بمثل هذا الأمر حولي.
هزّ شتولتس رأسه بارتياب.
خذ حذرك يا إيليا، ولا تسقط في الحفرة. امرأة عادية، حياة فاسقة، جو مخنوق، حماقة، خشونة أف!
صمت أبلوموف.
ختم شتولتس:
حسنٌ، وداعًا. سوف أخبر أولغا بأننا سوف نراها في الصيف، إن لم يكن في بيتنا، ففي أبلوموفكا. تذكّر: لن تتركك وحيدة.
أجاب أبلوموف:
أكيد، أكيد. يمكن أن تضيف إنها لو تسمح لي فسوف أقضي الشتاء معك.
يجب أن نكون مسرورين!
انصرف شتولتس في اليوم نفسه، وفي المساء وصل تارانتييف ليرى أبلوموف. لم يستطع أن يمنع نفسه من الغضب عليه لصالح إيفان ماتفيفيتش. أغفلَ أن يأخذ شيئًا في الاعتبار، أي، أنّ أبلوموف قد فقد في دائرة إلينسكي الاجتماعية عادة الارتباط مع الناس ومنهم تارانتييف واستساغ الفظاظة والتعجرف. أصبح ذلك واضحًا منذ مدة طويلة، وفي واقع الأمر، ظهر حين عاش أبلوموف في الكوخ الصيفي، لكن منذ ذلك الحين كانت زيارات تارانتييف قد أصبحت أقل تكرارًا، وكانا يلتقيان فقط بحضور الناس الآخرين، لذا لم تكن تحدث مصادمات بينهما.
قال تارانتييف بحقد دون أن يمد يده لأبلوموف:
مساء الخير صديقي.
أجاب أبلوموف ببرود ونظر عبر النافذة:
مساء الخير.
هل ودّعتَ صديقك الكريم؟
نعم. لماذا؟

واصل تارانتييف كلامه بشكل حاقد:
صديقك كريم!
أنت لا تحبّهُ، صحيح؟
قال تارانتييف بهسهسة تنمُّ عن الكراهية:
كلا، كنت سأشنقهُ!
حقًا؟
وأنتَ معه على نفس الشجرة!
لماذا؟
عليكَ أن تتعامل بأمانة مع الناس: إذا كان لهم دَينٌ عليك فوفِّ دَينهم ولا تحاول أن تتملص. ماذا فعلت الآن؟
انظرْ تارانتييف؛ أبعدني عن حكاياتك الخرافية: لقد استمعتُ لك بما فيه الكفاية بسبب كسلي وإهمالي. كنتُ أعتقد أنك تمتلك ذرة من الضمير لكني كنتُ مخطئًا. أنت وذلك الوغد الماكر أردتما خداعي. أيُّكُما الأسوأ لا أعلم، لكنكما بغيضان بالنسبة لي. لقد أنقذني صديقي من هذه الورطة الحمقاء...
قال تارانتييف:
صديق لطيف! فهمتُ أنه خدعك وسرق منك خطيبتك. تقول إنه صديق كريم ولطيف! حسنٌ يا صديقي، إنك مغفّل بالتأكيد!
حاول أبلوموف أن يضع حدًّا له:
كفى ملاطفات أرجوك!
سوف أقول ما يعجبني! أنت لا تريد أن تربطني علاقة معك إنك ناكر للجميل! لقد عثرت لك على بيت محتشم هنا، ووجدت لك امرأة هي بمثابة كنز حقيقي. الراحة والسلام أنا الذي يجب أن تشكرني عليهما، لأني أنا الذي جلبتهما لك، لكن لا تريد صداقتي معك. هل عثرت على صديق كريم؟ ألماني! يستأجر عزبتك؟ انتظر: سوف يسلخك حيًّا ويجعلك تبيع كل أسهمك. سيجعلك متسوِّلًا، تذكّر كلماتي! أقول لك إنك مغفّل. بل أكثر من مغفّل: إنك بهيمة ناكر للجميل!

صرخ أبلوموف مهدِّدًا:
تارانتييف!
صاح تارانتييف:
لماذا تصرخ؟ سوف أصيح بأعلى صوتي لكي يسمعه العالم كلّه بأنك مغفّل وبهيمة! خدمناك أنا وإيفان ماتيفيتش بتفانٍ، واعتنينا بك، وخدمناك كأننا عبدان من عبيدك، نمشي بحذر ونحاول أن نستبق رغبتك، وأنت ذهبت ووصمته بالسوء أمام رؤسائه. الآن فقد وظيفته ولا يستطيع كسب رزقه. تلك حيلة نذلة! يجب أن تعطيه الآن نصف ملكيتك. أعطني كمبيالة باسمه. أنت لستَ سكرانًا الآن لكن بكامل وعيك. أقول لك أعطني كمبيالة. لن أذهب دونها...
قالت سيدة المنزل وأنيسيا حين نظرتا عبر الباب:
لماذا تصرخ هكذا يا سيّد تارانتييف؟ لقد توقف شخصان في الشارع ليستمعا.
زعق تارانتييف:
سأواصل الصراخ. سوف أجلب العار والفضيحة لهذا الأحمق المغفّل! دع ذلك الألماني الوغد يغشّك الآن ويقيم علاقة غرامية مع عشيقتك...
وتردد صوت صفعة قوية في الغرفة. وبعد أن تلقاها تارانتييف على خدّه من أبلوموف خمد صامتًا فورًا وتهاوى على الكرسي ودوَّر عينيه بدهشة وانبهار.
قال شاحبًا والتقط أنفاسه ومسّ خدّه:
ما هذا؟ ما هذا؟ أهكذا تهينني؟ سوف تدفع الثمن! سوف أرسل شكوى إلى الجنرال المحافظ فورًا. هل رأيتنّ ذلك؟
قالت المرأتان بصوت واحد:
لم نرَ أي شيء!
آه، إنها مؤامرة إذن؟ مطبخ لصوص، صحيح؟ عصابة من الخنازير! سلب ونهب وقتل...
صاح أبلوموف وأصبح شاحبًا ويرتجف من الغضب:
اخرج أيها النذل! انصرف فورًا وإلاّ قتلتك مثل الكلب!

راح أبلوموف يبحث عن عصا.
صاح تارانتييف:
جريمة! أنقذوني!
صاح أبلوموف:
زاخار، ارمِ هذا السافل بعيدًا ولا تسمح له أن يظهر ثانية هنا.
قال زاخار لتارانتييف وأشار إلى الأيقونة والباب:
هيّا عجّل سيدي. فهنا الربّ وهناك الباب.
صاح تارانتييف:
لم آتِ لأراك بل لأرى صديقي.
قالت أغافيا ماتفييفنا:
على بركة اللهّ سيدي، أكيد أنا أريد أن أراك. فأنت معتاد على رؤية أخي وليس أنا. لقد أصبحتُ مرهقة ومريضة بسببك. أنت تأكل في بيتنا وتوجه لنا الإهانة فوق ذلك.
آه، هكذا إذن! حسنٌ جدًا، سوف يُريك أخوك حقائق الأمر! وأنت سوف تدفع الثمن بسبب إهانتك لي! أين قبعتي؟
وصاح بينما هو ينصرف عبر الفناء:
إلى الجحيم! لصوص، ومجرمون! ستدفع ثمن إهانتي، ستدفعها!
قفز الكلب من سلسلته ونبحَ بأعلى صوته. وكانت هذه المرة الأخيرة التي يرى فيها تارانتييف وأبلوموف أحدهما الآخر.

***

(8)

مرّت أعوام عديدة لم يزر فيها شتولتس مدينة بطرسبورغ. قام مرة واحدة بزيارة قصيرة إلى أبلوموفكا وعزبة أولغا. تسلّم أبلوموف رسالة منهُ حاول فيها شتولتس أن يقنعهُ أن يذهب إلى الريف ويتولى مسؤولية عزبته، التي هي الآن مُرتَّبة جيدًا الآن. سافر هو وأولغا إلى الساحل الجنوبي للقرم لسببين: فقد كان لديه عمل في أوديسا، وكانت أولغا في صحة سيئة منذ ولادتها وتأمل أن تفيدها العطلة في القرم. مكثوا في مكان صغير هادئ على ساحل البحر. كان بيتهما صغيرًا ومتواضعًا. كانت لعمارتِه وتصميمِه الداخلي أسلوبٌ خاص، حمل بصمة الذوق الشخصي وأفكار مالكيه. لقد جلبوا معهم العديد من الأشياء معهم وكان لهم الكثير من الرزم والحقائب والأحمال التي أرسلت من روسيا ومن الخارج. ربما هزّ عاشق المتعة كتفه للمظهر المتنافر الواضح للأثاث والصور القديمة والتماثيل ذات الأذرع والسيقان المكسورة، والنقوش، التي أحيانًا تكون رديئة لكنها غالية لأسباب وجدانية، وكل أنواع الحلي الصغيرة. عينا الخبير فحسب سوف تتوهجان بشكل متلهف لمرأى بعض الصور أو كتاب أصبح أصفر بمرور الزمن، وخزف الصيني القديم والأحجار والعملات المعدنية. لكن ثمة نفحة من الحياة الدافئة بين الأثاث من مختلف العصور، والصور، والتحف الزينية التي لا معنى لها بالنسبة للكل، لكنها تذكرهم ببعض الساعات السعيدة أو المناسبات البارزة، وبين عدد ضخم من الكتب والنوتات الموسيقية. ثمة شيء فيها كلها يحفّز العقل والإحساس الجمالي، شيء يجعل المرء مدركًا للفكرة اليقظة والجمال المشرق للإبداع الإنساني مثلما كان واعيًا بالجمال المشرق والأبدي للطبيعة من حولنا. كانت الطاولة الطويلة التي تعود إلى أب أندريه أيضًا موجودة هناك، إضافة إلى القفازات المصنوعة من جلد الشمواه[71]. كان معطف مطري من المشمّع معلقا في الزاوية قرب الخزانة، مع معادن وصدف المحار، وطيور محنّطة، ونماذج

71حيوان مجترّ من الضباء م.

من أنواع مختلفة من الطين، وبضائع وأشياء أخرى. كان مكان الصدارة يشغلهُ بيانو كبير من النوع الذي صنعهُ إرارد[72]، يلتمع من أثر ترصيعه بالذهب. كان الكوخ مغطّىً من أعلاه إلى أسفلهِ بشبكة من كرمة العنب واللبلاب والآس. يمكن النظر إلى البحر من جانب واحد من الشرفة، ومن الجانب الآخر يمكن مشاهدة الطريق المؤدية إلى المدينة.

من ذلك الطرف كانت أولغا تراقب عودة أندريه حين كان خارج البيت في مهمة ما، وعند رؤيته، ذهبت إلى الطابق الأسفل، وجرت عبر حديقة أزهار جميلة وشارع محاط بأشجار الحور، ثم ترمي نفسها حول رقبة زوجها، ويتورَّد خداها بالفرح وتتلألأ عيناها، مع أن هذه لم تكن السنة الأولى أو الثانية من زواجهما.

ربما كانت آراء شتولتس في الحب والزواج قد أصبحت غريبة ومبالغًا بها، لكنها على أية حال آراؤه الخاصة به. وهنا أيضًا تبعَ الطريق الحر البسيط كما يبدو له:

لكن أية دروس صعبة في المراقبة والصبر والعمل العسير قد تعلمها قبل أن يتعلم كيف يتخذ هذه «الخطوات البسيطة»! لقد ورث من أبيه عادة النظر بجدّية لكل شيء في الحياة حتى الأمور التافهة؛ ربما ورث منه أيضًا الصرامة المتحذلقة التي يقدّر الألمان من خلالها كل خطوة يتخذونها في الحياة ومن ضمنها الزواج.

كانت حياة شتولتس الأب هناك محددة بدقة، تمامًا كأنها قد نقشت على لوح حجر ولم تكن ثمة ورطات مخفية. لكن أم أندريه، بأغنياتها وهمساتها الرقيقة، والحياة المتنوعة في بيت الأمير، وفيما بعد الجامعة والكتب والمجتمع أدّت بأندريه إلى أن يبتعد عن الطريق المستقيم الذي رسمه له أبوه؛ كان الحياة الروسية ترسم أنماطها اللامرئية وتحول اللوح غير الممتع إلى صورة واسعة ولامعة.

لم يفرض أندريه قيودًا متحذلقة على مشاعره حتى أنه ذهب بعيدًا جدًا كأنه يمنح العنان إلى أحلام يقظتهِ ويحاول فقط أن «لا يفقد صوابه»، على الرغم من أنه حين استيقظ منها لم يستطع أن يحجم عن رسم استنتاج له صلة مباشرة بمشاكل الحياة،

72 صانع بيانو وقيثارات فرنسي من أصل ألماني م.

أما بسبب طبيعته الألمانية أو لسبب آخر. كان نشاطًا في جسمه لأنه كان نشطًا في عقله. كان حيويًا ويميل إلى المزاح في فترة شبابه، وحين يتخلى عن اللعب، يؤدي عملًا ما بإشراف والده. كان يسهب في أحلامه في الكثير من الأحيان.

لم يكن ليفسد خياله ويدمّر قلبه، فقد حافظت أمّهُ بشدة إلى العفة والطهارة في نفسه. كان يحرص بشكل غريزي على حيوية الشباب، حين بلغ سن الرشد، لكنه اكتشف بصورة مبكرة، بأن تلك الحيوية تولّد النشاط والفرح، وتكوّن الرجولة، التي تتجسّد فيها الإرادة والعزيمة، وتمنحان للروح الإنسانية القدرة على مواجهة أعباء الحياة، إذ إن الإنسان لا يعدّها عبئًا ثقيلًا، بل واجبًا يجب أن يخوض الكفاح من أجل أدائه. كرّس اهتمامًا كبيرًا لقلبه أيضًا، وبذل كل ما بوسعه من أجل حلّ مشاكله المعقدة. كان يراقب بشكل واع وعفوي التأثير الذي يخلقهُ الجمال على الخيال، إذ تحوّل هذا التبّدل إلى عاطفة، وبعد أن درسَ أعراضها وتجلياتها وعواقبها كان بوسعهِ عبر مساره الحياتي الواعي أن يكوّن له قناعة تتضمن فكرة أن الحبّ يحرّك العالم بقوة عتلة أرخميدس، وإنّ الخير والحقيقة الكونية التي لا تقبل الجدل يكمنان فيه، بقدر ما يكمن فيه القبح والخداع في حال سوء فهمه واستخدامه. ما هو الخير؟ وما هو الشر؟ وأين يكمن الحد الفاصل بينهما؟ عند سؤاله: ما هو الزيف؟ رأى في خياله موكبًا متنافرًا من أقنعة الماضي والحاضر.

تأمل بابتسامة ثم بخجل وعبوس في سلسلة لامتناهية من أبطال الحب وبطلاته: الدونكيخونتيون[73] بقفازاتهم الفولاذية، وسيدات أحلامهم، اللواتي بقين وفيات فيما بينهنّ بعد خمسين عامًا من الفراق، والراعيات ذوات الوجوه الوردية والعيون الواسعة الغرّة في مراعيهنّ وخرافهنّ. ظهر أمامه النبلاء بشعورهم المستعارة المليئة بالمساحيق وأشرطتهم، وبعيونهم التي تلمع بالذكاء والابتسامات الخليعة. ثم تبعهم الفارتريون[74] الذين انتحروا رميًا بالرصاص أو شنقوا أنفسهم، ثم العذراوات المحرومات والذابلات من الحب اللاتي ذرفن دموعا مستمرة إلى أن

73نسبة إلى دون كيخوته بطل رواية «دون كيخوته» لثربانتس.
74نسبة إلى فارتر بطل رواية «آلام فارتر» لغوته.

انتهى بهنّ الأمر إلى الدير، والأبطال من أصحاب الشوارب وذوي العيون التي بانت فيها رغبة وحشية ملحّة.
ثم أتباع دون جوان السذّج والخجلون، والرجال الأذكياء الذين يرتجفون عند أدنى شك في الحبّ، ويعشقون بشكل سرّي مدّبرات بيوتهم تذكّر كل هؤلاء. ولكي يجيب على سؤال: «ما هي الحقيقة؟» بحث بعيدًا وقريبًا في ذهنه وبعينيه، عن أمثلة من الألفة العادية والصريحة والعميقة والخالدة مع امرأة، لكنه لم يستطع العثور عليها؛ وإذا ما وجدها فإنها تبدو هكذا، ثم تبع ذلك انقشاع أوهامه مما جعله ينغمر في أفكار سوداوية حتى أنه أصابه اليأس من أنّ «هذه النعمة لم تمنح بكل امتلائها، أو أنّ أولئك الذين جرّبت قلوبهم سطوع الحب وإشراقه يعانون من الخجل! فهم خائفون ويفضلون الاختباء بدلًا من أن يجادلوا الناس الأذكياء؛ ربما يشعرون بالأسف لهم ويغفرون لهم باسم سعادتهم لأنهم داسوا ومرغوا في الطين الزهرة التي لا تنبت في تربتهم الضحلة وتكبر إلى شجرة تنتشر أغصانها فوق حياتهم كلها». تفكّرَ في الزواج والأزواج وموقفهم من زوجاتهم فوجده دائمًا مثل لغز أبو الهول؛ ثمة شي فيه لا يمكن فهمه، وبقي خفيًا؛ ومع أنّ أولئك الأزواج لم يتعبوا أذهانهم في المشاكل المعقدة، بل ساروا خلال الحياة الزوجية بخطوات مدروسة كأنّ لم يكن لديهم شيء لكي يحلّوه أو يكتشفوه. فكّر:
«هل هم ربما على حق؟ على الأرجح أنهم لا يحتاجون إلى أي شيء آخر» وشكّ في نفسه كأنه رأى كيف أن بعض الرجال قد تحملوا الحب بسرعة كونه ألف باء الزواج أو كشكل من أشكال المروءة، تمامًا كأنهم يقومون بانحناءة عند دخولهم غرفة استقبال، وسرعان ما يكيّفوا أنفسهم مع أكثر المسائل أهمية! إنهم ينبذون ربيع الحياة وقد فقدوا صبرهم؛ في الواقع أن العديد منهم ينظرون بريبة وشك إلى أزواجهم بقية حياتهم كأنهم عاجزون عن مسامحتهن بسبب حماقتهن ووقوعهن في الغرام معهم. غير أنّ هناك آخرين لم ينصرفوا عن الحب عدة سنين، أحيانًا حتى بلوغهم سن الكهولة، لكن ابتسامة الشبق لم تفارقهم أيضًا...

وأخيرًا فإن أغلب الناس يدخلون إلى مؤسسة الزواج كأنهم يشترون مُلكًا يستفيدون منه: إذ ترتب الزوجة البيت ترتيبًا ممتازًا فهي الآن ربة منزل، وأم، ومربية أطفال؛ لكنهم ينظرون إلى الحب كما ينظر مالك الأطيان ذو العقل العملي إلى محيط أملاكه الجميلة؛ أي أنه تعوّد عليه ولم يعد يلاحظه مرة ثانية.

سأل نفسه: «ما هو إذن؟ هل هو عجز طبيعي ناتج عن قوانين الطبيعة أم نقص في التعليم والتدريب؟ أين التعاطف الذي لن يفقد سحره الطبيعي، ولا يرتدي بشكل مبهرج، ويتحمل التعديلات لكنه لا ينطفئ أبدًا! ما هو الظل واللون الطبيعي لهذه السعادة التي توجد في كل مكان وتتخلل كل شيء ولهذه العصارة من الحياة؟ ألقى نظرة تنبؤ إلى المستقبل البعيد، وهناك نهضت أمامه، كأنها في الضباب، صورة الحب ومعها امرأة تلبس ملابس ملونة مشرقة بالضوء، صورة بسيطة جدًا، لكنها ساطعة وخالصة. قال مبتسمًا:

حلم! حلم!

واستفاق من إثارة حلم يقظته وبلادته. لكن محيط هذا الحلم عاش في ذاكرته رغمًا عنه. ظهرت هذه الصورة أولًا له كتجسيد لامرأة المستقبل. لكن حين كبرت أولغا وأصبحت في منتهى الأنوثة، رأى فيها لا روعة الجمال الراقي كليًا فحسب بل أيضًا قوة جاهزة لمواجهة الحياة ومتلهفة لفهم وخوض معارك الحياة من كل مقومات حلمه برزت هناك أمامه صورته القديمة المنسية تقريبًا عن الحب وبدأ يحلم بأولغا كونها تجسيدٌ له، وبدا له بأنّ الحقيقة ذاتها سوف تتجلى في المستقبل البعيد من خلال العاطفة المتبادلة بينهما دون أن يصبحا جائرين وبلا إهانات من أي نوع. لم يعبث شتولتس بمسألة الحب والزواج ويشوّشه بأي اعتبارات للمال والعلاقات والمراكز، فلم يتمالك نفسه من التساؤل عن كيفية المصالحة بين نشاطه الخارجي الدائب حتى الآن وحياته العائلية الداخلية، وكيف استطاع في الواقع أن ينقل نفسه من رحالة ورجل أعمال إلى زوج باق في البيت. إذا ما توجّب عليه أن يحسم ويضع نهاية لجريه المطّرد من مكان إلى آخر، فكيف سيملأ حياته في البيت؟ تربية الأطفال وتعليمهم وتوجيه الحياة لم تكن بالطبع سهلة أو واجب غير مهم،

بل مازال الطريق طويلًا، فماذا كان عليه أن يفعل في الوقت ذاته؟ لقد أزعجتهُ هذه الأسئلة، ولم يجد حياته حين كان أعزب عبئًا؛ ولم يخطر في باله أن يقيّد نفسه بأغلال الحياة الزوجية بمجرّد أن يخفق قلبه حين يجد نفسه في حضور الجمال. ذلك هو السبب في أنهُ بدا مهملًا لأولغا كفتاة وأعجب بها فحسب كونها طفلة ساحرة ذات مستقبل واعد. كان يرمي بشكل طارئ ومازح فكرة صريحة جديدة أو ملاحظة حادة عن الحياة داخل عقلها المتلهف المتفتّح، ويثير فيها، دون أن يدرك، فهمًا حيويًا للأحداث ووجهة نظر صحيحة للأمور؛ ثم ينسى أولغا ودروسه العرضية. أحيانًا، حين يرى أنها كانت تمتلك أفكارًا أصيلة ومزايا عقلية، بحيث لم يوجد زيف فيها، ولم تبحث عن إعجاب عام، وأنّ مشاعرها جاءت ثم ذهبت بشكل بسيط وحر، ولم يكن شيء ثانوي فيها، بل أن كل شيء كان خاصتها، وأن كل ذلك كان في غاية الصراحة والنضوج والثبات فإنهُ كان يتساءل من أين حصلتْ على كل ذلك ولم يميّز دروسه وملاحظاته المتلاشية. ولو أنه ركّز انتباهه عليها، لأدرك بأنها مضت في طريقها الخاص وحيدة تقريبًا، إذ تحميها عمتها من التطرف بإشرافها الظاهري عليها، لكن لم تقمعها سلطة المربيّات الكثيرات، والجدات والخالات ولا تقاليد عائلتهم وطبقتهم ذات السلوكيات والعادات والقوانين البالية. فلم يتم إرشادها ضد رغبتها على طول مسار مطروق، بل سارت على ممر جديد فتحتهُ بواسطة ذكائها وأفكارها وشعورها. لم تحرمها الطبيعة منه؛ فعمتها لم تسيطر على عقلها وإرادتها بشكل مستبد، وقد تنبأت أولغا وفهمت الكثير من الأمور بنفسها؛ راقبت الحياة باهتمام، مصغية من بين أمور أخرى إلى كلمات صديقها ونصائحه... لم يأخذ أي شيء في الاعتبار وتوقّع فحسب منها الكثير في المستقبل البعيد، دون التفكير بها كونها رفيقته المساعدة. لم تسمح له مدة طويلة أن يخمّن ماذا كانت حقًا بسبب كبريائها أو خجلها، فقد تمكن بعد صراع مبرّح في الخارج، أن يرى بكثير من الدهشة كم كانت هذه الطفلة الواعدة، التي كاد أن ينساها، تجسّد نموذجًا للبساطة والقوة والنزعة الطبيعية. عندئذ انكشف له جوف روحها بأكمله الذي حاول أن يملأه لكن فشل في ذلك.

كان عليه منذ أمدٍ طويل أن يقاوم طبيعتها المرحة ويدقّق في شبابها المتقّد ويبقي دوافعها ضمن حدود معينة، ويضفي الهدوء على مجرى حياتهما، لوقت معين فقط. حالما أغلق عينيه بثقة، كان ثمة إنذار بالخطر مرة أخرى، وكانت الحياة في حالة نشاط، وبرزت أسئلة جديدة من عقلها القلق وقلبها المستاء: كان عليه أن يهدئ خيالها المستثار، وأن يلطّف أو يوقظ كبرياءها. فإذا ما تأمّلت شيئًا ما أسرع إلى إعطائها المفتاح له. فالغشاوة والهلوسة والإيمان بالصدفة اختفت من حياتها. وانفتح أمامها أفقًا واضحًا كالماء الرائق، استطاعت أن ترى فيه كل حصاة وصدع ومن ثمّ القاع الرملي النظيف همست:

أنا سعيدة.

وألقت نظرة امتنان على حياتها الماضية، وحاولت أن تنظر إلى المستقبل، وتذكرت حلمها بالسعادة الذي جاءها بسويسرا في تلك الليلة الحالمة الحزينة، ورأت بأنّ ذلك الحلم كان يطارد حياتها مثل الظل. فكّرت بشكل متواضع: «لماذا كان ذلك من نصيبي». تأمّلت وكانت خائفة أحيانًا أن تنتهي سعادتها. مرّت السنوات، لكنهما لم يكلّا من العيش. حلّ السلام أخيرًا، وخمدت العواصف العاطفية؛ ولم تعد صروف الزمان تحيّرهما؛ فقد تكيّفا معها بفرح وصبر، ومع ذلك فالحياة لم تذوِ. بلغت أولغا فهمًا حقيقيًا للحياة. فقد اتحد كيانها مع كيان أندريه وأصبحا كيانًا واحدًا. لم يكن ثمة سؤال عن طيش العواطف الوحشية؛ كل شيء كان في حالة سلام وانسجام بينهما. سيبدو الأمر وكأنهما ذهبا ليناما بعد أن توفرت لهما هذه الراحة اللطيفة، وكانا سعيدين مسرورين مثل أولئك الناس الذين يعيشون في العزلة ويلتقون ثلاث مرات في اليوم، ويتثاءبون أثناء حديثهم المألوف ويناموان نومًا رتيبًا، ويشعرون بالتعب من الصباح حتى المساء لأنّه لم يبق شيء إلا وفكروا به، وتكلموا عنه مرارًا وتكرارًا، ولم يتبق لهم شيء يمكن التحدث عنه أو فعله ولأنّ «الحياة هي هكذا».

كان مظهر حياتهما الخارجي مثل الناس الآخرين. فهما ينهضان مبكرًا، لكن ليس في الفجر. كانا يحبّان أن يقضّيا وقتًا طويلًا أثناء تناول فطورهما وأحيانًا يظهران

صامتين وكسولين. ثم يذهبان إلى غرفهما أو يعملان معًا، ويتناولان الغداء ويذهبان بالعربة إلى الحقول، ويسمعان الموسيقى مثل أي شخص آخر كما كان يحلم أبلوموف. لكنهما لا يشعران بالنعاس أو الكآبة؛ فهما يقضيان الأيام دون ضجر أو لا مبالاة؛ لم يتبادلا كلمة أو نظرة رتيبة؛ كان حديثهما يتواصل بلا نهاية وكان أحيانًا حاميًا. وكانت أصواتهما الرنانة تتردّد في الغرف وتصل إلى الحديقة، أو تقتفي طراز أحلامهما، كانا يتبادلان بهدوء، عن طريق الاتصال بينهما، اضطرابات الفكرة الأولى التي بالكاد يمكن فهمها وهمهمة الروح التي من الصعوبة سماعها. وكان صمتهما أحيانًا هو السعادة في التفكير الذي كان أبلوموف يحلم بها، أو العمل الذهني المنفرد بالمادة المتصلة التي أتاحها أحدهما للآخر. في غالب الأحيان كانا ينغمران في دهشة صامتة أمام جمال الطبيعة السرمدي الجديد. يمكن لأرواحهم الحساسة أن تكون معتادة على هذا الجمال: الأرض، السماء، البحر كل شيء أيقظ مشاعرهما وجلسا في صمت جنبًا إلى جنب ونظرا بنفس العينين وبقلب واحد إلى عظمة الخلق وفهم كل منهما الآخر دون كلمات. لم يستقبلا الصباح بلا مبالاة؛ ويمكن أنهما لم ينغمرا في شفق ليلة دافئة مرصّعة بالنجوم في الجنوب. ظلا مستيقظين وكانت روحيهما متحمستين باطّراد حين استبدت بهما الحاجة للتفكير والشعور والتحدث معًا!

لكن ما موضوع هذه المناقشات الحامية والأحاديث الهادئة، والمطالعات والجدالات الطويلة؟ آه، كل شيء! بينما كانا في الخارج، فقد شتولتس عادة القراءة والعمل لوحده. بالكاد يمكنهُ أن يجاري السرعة المبرّحة لفكرتها وإرادتها.

لم تعد عاجلة مسألة ما سيفعل ضمن نطاق عائلته لقد وجد لها حلًا. فلقد لقّنها مبادئ حياته العملية، لأنها كانت تشعر بالكبت لو أنها لم تأخذ دورها الفعَّال في الحياة. لم يقم بأي عمل دون أن تعرف به أو تساهم فيه بنشاط، سواء أكان بناءً أو عمل له علاقة بعزبتها أو عزبة أبلوموف، أو المعاملات التجارية للشركة.

لم ترسل رسالة بدون أن تقرأها، ولم يتم حجب أية فكرة عنها بدرجة أقل إدراكًا؛ عرفت كل شيء، وكل شيء أثار اهتمامها لأنّ ذلك كان يهمّه. في البداية كان

يفعله لأنه وجد من المحال أن يخفيه عنها أي شيء: فإذا ما كتب رسالة أو أجرى محادثة مع وكيل أو متعهّد فهو يقوم بذلك بحضورها؛ واستمرّ بهذا فيما بعد بحكم العادة، وأصبح أخيرًا ضرورة بالنسبة له أيضًا. كان يعتبر ملاحظاتها ونصيحتها واستحسانها أو استهجانها تدقيقًا ضروريًا لخططه: رأى بأنها فهمت الأمور كما يفهمها هو، وكانت تفكّر وتجادل ليس بدرجة أسوأ منه... بغض زاخار مثل هذه القدرة في زوجته، وكذلك كرهها العديد من الرجال لكن شتولتس كان سعيدًا بها! أما القراءة والتعلُّم فهما غذاء الأفكار الدائم وتطوُّرها المتواصل! كانت أولغا تتلهف لقراءة كل كتاب أو مقالة لم تطلع عليهما وكانت تغضب بشدة أو تنزعج لو فكّر شتولتس إن كان جديرًا به أن يطلعها على أمر يعتبره خطيرًا أو ضجرًا أو مبهمًا جدًا بالنسبة إليها؛ فهي تصف فعلهُ هذا كونه حذلقة وابتذالًا وتخلُّفًا، وكانت تعنّفهُ لكونه «رجعيًا ألمانيًا عتيقًا». كانت تقع بينهما أحيانًا مشاهد حيّة من المشاحنات. كانت غاضبة وهو يضحك، فتصبح أشد غضبًا، وتسوّي الخلاف معه حين يكفّ عن المزاح ويتقاسم معها أفكاره ومعرفته وإطلاعه. وينتهي الأمر بينهما بالاتفاق بأنها يجب أن تعرف وتطلّع على كل شيء كان يريد أن يطلّع عليه شتولتس ويعرفه. لم يجبرها على استعمال مصطلحات تقنية لكي يتباهى بشكل أحمق بكونها «زوجة متعلّمة». إذا ما لفظت كلمة أو تلميح إلى مثل هذا الزعم من جهته، فإنه يشعر بالخجل بشكل أكبر مما لو أجابت، بنظرة فارغة من الجهل، على سؤال اعتيادي لم يشكل حتى الآن جزءًا من تعليم المرأة. كان يريد فحسب وهي أيضًا بشكل مضاعف أن لا يترك شيئًا مستعصيًا على فهمها ومعرفتها. لم يرسم المخططات والأشكال له، لكنه ناقش كل شيء معها وقرأ الكثير دون أن يتجنّب بشكل متحذلق النظريات الاقتصادية أو المسائل الاجتماعية أو الفلسفية؛ تكلم بشغف وحماس ورسم لها صورة حية متواصلة من المعرفة.

نسيت فيما بعد التفاصيل، لكن الطراز العام لم يُمحَ من عقلها الحسّاس، ولم تبهت الألوان، ولم تنطفئ النار التي أضاء فيها عالم المعرفة الذي خلقه من أجلها.

كان يرتعش زهوًا وسعادة حين لاحظ شرارة تلك النار تومض في عينيها بعد ذلك، وكيف أن صدى فكرة أفشاها لها تردّدَ في كلامها، وكيف دخل وعيها وفهمَها، وانتقل إلى عقلها وظهر في كلماتها، إذ لم يعد صارمًا وجافًا، بل ومض برقة أنثوية، وبالأخص حين كانت قطرة خصبة من كل ما ناقشه وقرأهُ ورسمهُ من أجلها، غارت مثل لؤلؤة، داخل أعماق وجودها الشفافة. كان ينسج مثل فنان ومفكّر، وجودًا عقليًا لها، ولم يحدث أبدًا في حياته لا في وقت دراسته ولا في الأيام الصعبة حين صارع الحياة محررًا نفسه من مشقاتها وأصبح قويًا وصلبًا في قضايا الرجولة وقد أصبح مستغرقًا الآن في الانصراف إلى هذا العمل المتفجّر المستمر لإنعاش روح زوجته.

قال شتولتس لنفسه: «كم أنا سعيد!» وحلم بطريقته الخاصة، محاولًا أن يخمّن كيف تكون حياتهما المستقبلية بعد السنوات الأولى من زواجهما.

لاحت له من بعيد صورة مبتسمة لا لأولغا الأنانية ولا لزوجة تحب بشكل محموم، ولا لأم مرضعة تتلاشى في النهاية إلى كيان شاحب لا يرغب به أحد، بل لشيء مختلف يكتسي بالمجد ولم يسمع به أحد تقريبًا... حلم بأم خلقت وساهمت في حياة اجتماعية وروحية لجيل كامل من الناس السعداء... تساءل بخوف إن كان لها ما يكفي من قوة الإرادة وساعدها بسرعة على إخضاع حياتها لكي تكتسب احتياطًا من الشجاعة من أجل معركة الحياة حدث ذلك الآن، بينما مازالا شابين قويين، والحياة ترقُّ لهما أو أنّ ضرباتها لم تبدو ثقيلة، وبينما كانت المصيبة يحجبها الحب. لقد أظلمّت أيامهما، لكن ليس لمدة طويلة. أخفاقات العمل وخسارة كبيرة في المال لكن كل ذلك لم يؤثر فيهما. كان يعني عملًا إضافيًا ورحلات أخرى، لكن سرعان ما طواه النسيان. أثار موت عمتها دموعًا مخلصة وألقى ظلًا حزينًا على حياتها لمدة ستة أشهر. كان مرض الأطفال مصدرًا لقلق مستمر وخوف شديد، لكن حالما تلاشى الخوف عادت السعادة. ما كان يقلقه أكثر صحة أولغا: فقد تطلب منها الأمر وقتًا طويلًا كي تشفى من مخاض ولادتها

وعلى الرغم من أنها شفيت، إلا أنه استمّر بالشعور بالقلق. لم يعرف محنة أشد فظاعة منها.

ظلت أولغا تردّد أيضًا بشكل رقيق: «كم أنا سعيدة!» وتنظر بمتعة إلى حياتها وهي تغرق في التأمل في مثل هذه اللحظات بالأخص التأمل في الماضي بعد ثلاث أو أربع سنوات من زواجها.

الإنسان مخلوق غريب! كلما كانت سعادة أولغا كاملة أصبحت أكثر اكتئابًا وقلقا. كانت تراقب نفسها بحذر، وتجد بأنه كانت مستاءة بسبب هدوء حياتها، وبالمناسبة، كان الأمر يبدو وكأنها تقف ساكنة خلال لحظات السعادة. أجبرت نفسها على تحطيم مزاجها الكئيب وتسريع خطى الحياة، باحثة بشكل محموم عن الصخب والحركة والمشاغل، سائلة زوجها أن يأخذها إلى المدينة، ومحاولة الدخول إلى المجتمع، لكن ليس لمدة طويلة. أثر عليها نشاط الحياة الصاخب قليلًا، وأسرعت بالعودة إلى بيتها الصغير لكي تتخلص من الانطباع المؤلف غير المألوف، وكرّست نفسها مرة أخرى تمامًا إلى مشاغل التدبير المنزلي الصغيرة، وكانت تبقى في غرفة الطفل عدّة ساعات وتنجز أعمالها كأم ومرضعة، أو تقضي الساعات وهي تقرأ مع أندريه وتتحدث معهُ حول الأمور «الجدية والرتيبة»، أو تقرأ الشعر أو تناقش السفر إلى إيطاليا. كانت خائفة من أن فتور الشعور مثلما حصل لأبلوموف. لكن مهما حاولت أن تتخلص من لحظات الخدر الدوري تلك وهجوع الروح، إلا أنّ حلم السعادة كان يكمن لها بين فترة وأخرى، حين أحاطت بها مرة أخرى ليلة حزينة وقيدها سحر النعاس، أعقبهُ فترة من الكآبة، كأنها فترة راحة من الحياة، ثم تبع ذلك اضطراب وخوف ولهفة، وهي أعراض السويداء الرتيبة، وامتلأ رأسها بالأسئلة الغامضة والملغزة. أصغت أولغا إليها بانتباه، وحاولت عبثًا أن تكتشف ما هو خطأها ولم تقدر على اكتشاف الشيء الذي كانت روحها تبحث عنه وتتلهف إليه حتى أنه من المفزع القول بأنّها بدت فاقدة لشيء، كأنّ الحياة السعيدة كانت غير كافية، وكأنها نشأت مرهقة منها فكانت تطلب تجارب جديدة، وتتطلع أبعد فأبعد إلى المستقبل.

فكّرت وقد أصابها الروع: «ما الأمر؟ هل ثمة شيء آخر أنا بحاجة إليه ويجب أن أرغب به؟ أين أذهب؟ إلى لا مكان». سألت نفسها: «هل هذه نهاية الطريق؟ هل أكملتُ دائرة الحياة؟ هل هذا كلّ...؟» وتركت القول مبتورًا، ونظرت حولها بقلق لتتأكد بأنّ لا أحد كانت يتنصت إليها إلى همس روحها... كانت عيناها تسائلان السماء والبحر والغابات ولم تكن ثمة إجابة من أي مكان؛ لم يكن هناك شيء سوى الفراغ والظلام.

نطقت الطبيعة بالشيء ذاته مرارًا وتكرارًا؛ رأت فيه جريان دائم ورتيب للحياة، دون بداية أو نهاية. عرفت من تستشيره عن قلقها وربما وجدت الإجابة؛ لكن أي نوع من الأجوبة؟ ماذا لو كان دمدمة تنم عن الاستياء لعقل عقيم أو، على الأسوأ، توق لقلب غير أنثوي لم يخلق من أجل العاطفة وحدها؟ يا إلهي، كانت معبودته قاسية القلب وتمتلك عقلًا صلبًا غير قانع أبدًا! ماذا ستصبح؟ هل امرأة مثقفة بالتأكيد؟ كم خاب رأيها فيه حين اكتشف هذه المعاناة الجديدة الغريبة، التي كان يعرفها بالطبع. اختفتْ عنه، أو تظاهرت بالمرض، وفقدت عيناها، رغمًا عنها، رقتهما المخملية وبدتا ساخنتين جافتين، وحامت غمامة ثقيلة على وجهها، وحاولت لكنها لم تستطع أن تجبر نفسها على الابتسام أو الكلام، وأصغت بشكل لا مبالٍ إلى الأخبار السياسية المثيرة في العالم والتفسيرات المهمة لبعض الاكتشافات العلمية أو الأعمال الإبداعية في الفن. مع ذلك لم ترغب بالبكاء ولم تشعر بأي حماس مفاجئ حين تكون أعصابها على حافة الانهيار أو حين تستيقظ قواها العذرية وتجد تعبيرها. كلا، ليس هذا ما تريده!

كانت تسرّ نفسها بيأس: «ما هو إذن؟» حين كانت تشعر بالضجر واللا مبالاة تجاه كل شيء رغم عذوبة المساء الهادئ الجميل، أو تجلس بجانب المهد، أو وسط ملاطفات زوجها وأحاديثه... كانت تقف ساكنة كالصنم فجأةً وتصمت، ثم تشغل نفسها بحيوية زائفة لكي تخفي اضطرابها الغريب، أو تقول بأنها مصابة بالصداع وتذهب إلى الفراش.

لكن من غير السهل لها أن تخفي نفسها عن عيني شتولتس الحادتين: أدركت الأمر وحضّرت نفسها داخليًا للحديث الذي سيدور بنفس القلق حين هيأت نفسها في مرة من المرات للاعتراف بماضيها. لقد حانت الفرصة أخيرًا.

في المساء قاما بنزهة في شارع محاط بأشجار الحور. كانت تستند على كتفه تقريبًا وبالكاد تنطق بكلمة. كانت تعاني من نوباتها الغامضة وتجيب بشكل مقتضب على ما يقوله.

سألها شتولتس:

تقول المربية بأن الطفلة تسعل في الليل. ألا تعتقد بأنه يجب أن نستدعي الطبيب غدًا.

أجاب بشكل رتيب:

سوف أعطيها شرابًا دافئًا ولن أسمح لها بالخروج للنزهة غدًا، وسوف نرى!

سارا إلى نهاية الشارع بصمت.

سألها:

لماذا لم تجيبي على رسالة صديقتك سونيا. بقيتُ أنتظر وكنت على وشك أن أتأخر عن البريد. إنها رسالتها الثالثة التي لم تردّي عليها.

قالت:

نعم، أريد أن أنساها بأسرع ما يمكن.

وصمتت.

بدأ أندريه الكلام مرة ثانية:

لغد أبلغتُ تحياتكِ إلى بيشورين. إنه معجب بك كما تعلمين لذا فكّرت ربما يجد في ذلك عزاء له، ويخفف من استيائه من عدم وصول محصوله من القمح في الوقت المناسب.

ابتسمت بشكل جاف.

قالت بعدم اكتراث:

نعم، لقد أخبرتني بذلك.

سألها:
ما الأمر؟ هل أنتِ تشعرين بالنعاس؟
خفق قلبها بشدّة، كما هو الحال في كل مرة كان يطرح فيها أسئلته التي تؤثر فيها تأثيرًا قويًا.
أجابت وتظاهرت بأنها فرحة:
كلا. لماذا؟
سألها ثانية:
هل تشعرين بالمرض؟
كلا، ما الذي يجعلكَ تفكّر بذلك؟
حسنٌ، إذن، لا بدّ من أن تكوني ضجرة!
ضغطت كتفه بشدة بكلتا يديها.
أعلنت بصوت مبتهج مبالغ به ويشي بالضجر:
كلا، كلا!
قادها خارج الشارع ودار وجهها نحو ضوء القمر.
قال وتمعّن في عينيها:
انظري لي! ربما يعتقد أحد بأنك كنتِ غير سعيدة! اليوم عيناك غريبتان جدًا ما الذي أصابك يا أولغا؟
وضع ذراعه حول خصرها وعاد بها إلى الشارع.
قالت محاولة أن تضحك:
تعلم بأني جائعة!
أضاف بقسوة متكلفة:
لا تكذبي! لا أحب الكذب!
كرّرت بعتاب، وأوقفتهُ في الشارع:
غير سعيدة!
وختمت كلامها بصوت رقيق جدًا بحيث إنه قبّلها:

نعم أنا غير سعيدة لأني في غاية السعادة!
أصبحت أكثر جرأة. فالافتراض، بأنها غير سعيدة، مع أنه جاء بشكل مازح، إلا أنه جعلها بشكل غير متوقع ترغب بالكلام بصراحة.
أنا غير ضجرة لا يمكن أن أكون كذلك، أنت تعرف ذلك تمامًا وأنا لست مريضة لكني لا أغالب الشعور بالحزن أحيانًا. يجب أن تعرف، أيها الرجل الذي لا يطاق! نعم أشعر بالحزن، ولا أعلم السبب!
وضعت رأسها على كتفه.
سأل برفق وانحنى عليها:
فهمت! لكن لماذا باللهَّ عليكِ؟
كرّرت أولغا:
لا أعرف.
لكن لا بدّ أن يكون هناك سبب، إن لم يكن يكمن فيّ، أو في محيطك، فإنه إذن في نفسك. أحيانًا يكون مثل هذا الحزن هو أحد الأعراض الأولى لمرض ما... هل أنتِ على ما يُرام؟
قالت بشكل جدّي:
نعم، ربما يكون شيئًا من هذا القبيل، على الرغم من أني لا أشعر بالمرض إطلاقًا. ترى كيف آكل وأنام وأعمل وأخرج للنزهات. ثم فجأة يهبط شيء فوقي؛ نوع من الكآبة. فلا أغالب الشعور بأن شيئًا مفقودًا في حياتي. لكن كلا، لا تستمع إليّ! إنه كله هراء!
ألحّ بإصرار:
واصلي الكلام. تقولين بأنك تشعرين بأن هناك شيئًا ينقصك في حياتك وماذا بعد؟
تابعت كلامها:
أحيانًا أبدو خائفة من أن الأمور ستتغير أو تبلغ نهايتها لا أعرف نفسي.
قالت ورقّ صوتها أكثر بأكثر وكانت خجلة من تلك الأسئلة:

أو تقلقني فكرة غبية ما الذي سيحدث بعد؟ ما هي السعادة؟ ما معنى الحياة؟
ثم همست:
كل هذه الأفراح والأحزان والطبيعة تبدو وكأنها تجعلني أذهب إلى مكان ما، وأصبح أرتاب بكل شيء. يا إلهي، إني جدُّ خجلة من كل هذا الغباء وحلم اليقظة هذا...
وطلبت منه بصوت متوسل وضمته إلى صدرها:
لا تهتمْ ولا تشغل بالك! فنوبة كآبتي سرعان ما تزول، وأشعر بالمرح والجذل مرة أخرى، كما أفعل الآن!
التصقت به بحياء ورفق، وشعرت بالخجل حقًا كأنها تطلب الغفران بسبب «حماقتها».
تحقّق منها زوجها منذ وقت طويل وتطلب الأمر زمنًا طويلًا لكي تخبرهُ، كما يخبر المريض طبيبًا، بأعراض حزنها، ولكي تجيب على كل الأسئلة الغامضة التي كانت تسبب لها القلق، وتصف الاضطراب في عقلها، ثم حالما يختفي السراب، تستطيع أن تتذكر كل شيء وتراقبهُ.
مشى شتولتس على طول الشارع بصمت، وكانت ينكّس رأسه متأملًا وقد شعر بالقلق والاضطراب بسبب اعتراف زوجته الغامض.
تمعنت في عينيه ولم تر شيئًا، وحين وصلا إلى نهاية الشارع للمرة الثالثة، لم تدعه يدور، لكنه أخذته بنفسها للخارج على ضوء القمر وحدّقت بشكل متسائل في عينيه.
سألته بخجل:
بماذا تفكّر؟ هل كنت تضحك على حماقتي؟ إنّ حزني دليل غبائي، أليس كذلك؟
لم يحر جوابًا.
سألته بنفاد صبر:
لماذا أنت صامت؟

لقد كنتُ صامتًا منذ وقت طويل، مع أنك كنتِ تعرفين، بالطبع، بأني كنتُ أراقبك بعض الوقت، لذا اسمحي لِي بالصمت وفكّري بالأمر. لقد كلفتِني بمهمة ليست سهلة.

أصافت حسنٌ، سوف تفكّر الآن وسأكون أنا قلقة بنفسي حد الموت وأحاول أن أخمّن أي استنتاج توصلت إليه بنفسك. من المستحسن أن تقول شيئًا...

قال مستغرقًا في التفكير:

ماذا يمكن أن أقول لك؟ ربما ما زلت تعانين من توتر الأعصاب، التي يجب أن تستشيرين طبيبًا من أجلها وليس أنا الذَي يقرّر حالتك. يجب أن نستدعيه غدًا.

لكن أن أتضح بأنه ليس توترًا...

وتوقف لفترة قصيرة.

أصرّت بنفاد صبر:

ماذا لو أتضح أنه ليس توترًا؟ أخبرني!

واصل المسير وما زال مستغرقًا في أفكاره.

قالت وهزتهُ من ذراعه:

أرجوك!

ختم كلامه بنغمة خافتة كأنه يتكلم إلى نفسه:

ربما هو خيال مفرط في النشاط، فأنتِ حيوية جدًا؛ أو مرة أخرى ربما كبرتِ وبلغتِ سنّ...

قالت متذمّرة:

من فضلك تكلّم يا أندريه. لا أتحمل الأمر حين تدمدم مع نفسك! لقد أخبرته الكثير من الهراء لكنهُ يدير رأسه ويدمدم مع نفسه! بصراحة أشعر بأني متوترة الأعصاب معك هنا في الظلام...

لا أعرف ماذا أقول تشعرين بالكآبة، وبالقلق من بعض الأسئلة لا أعرف ماذا أصنع. سوف نناقش الأمر لاحقًا مرة أخرى: ربما تحتاجين إلى العلاج بالسباحة بمياه البحر ثانيةً...

قلت في سرّك ربما كبرتِ وبلغتِ سن... فماذا كنت تقصد؟
قال ببطء:
أنت ترين إني قصدتُ...
وخانهُ التعبير، وارتاب بأفكاره وكان خجلًا من كلماته.
وأردف:
ترين أن هناك لحظات أقصد، إن لم تكن ثمة علامة على الانهيار العصبي، ولم يكن هناك مطلقًا شيء يثير اهتمامك، حينئذ تكونين ربما قد بلغتِ سن الرشد حين يتوقف الإنسان عن النضوج إذ لم تعد هناك ألغاز وكل شيء يصبح واضحًا...
قاطعتهُ بسرعة:
هل قصدتَ بأني أصبحتُ كبيرة السن؟ لا تجرؤ على الإيحاء بذلك!
ووجهت أصبعها له مهددة.
ثم أضافت وانتصبت:
مازلت شابة وقوية.
ضحك. وقال:
لا تَخَافِي. يبدو لي أنك لا تريدين أن تكبري! كلا، لم أقصد ذلك. في مرحلة الشيخوخة تفشل قوى المرء وتتوقف عن الصراع مع الحياة. كلا، فحزنكِ وكآبتكِ كما أعتقد هما بالأحرى علامتان على القوة. يحاول العقل الحيوي الذي يعاني من السأم أن يتوغل ما وراء حدود الحياة متسائلًا وحين لا يجد جوابًا بالطبع، تغمرهُ السويداء ويستاء مؤقتًا من الحياة. إنها سويداء الروح وهي تُساءل الحياة عن ألغازها. ربما ذلك ما يحدث لكِ... فإن كان كذلك فإنه ليس بحماقة.
تأوهت، لكن بدت آهة ارتياح لأنّ مخاوفها قد انتهت وأنها لم تسقط في عيني زوجها بل على العكس...
قالت:
لكني سعيدة، فعقلي غير كسول ولم أحلام يقظة وحياتي ممتلئة ماذا أبغي أكثر من ذلك؟ ولماذا أطرح كل هذه التساؤلات؟ إنه مرض، وهاجس!

نعم إنه ربما هاجس من عقل جاهل غير متمرس وضعيف. هذه السويداء وتلك التساؤلات ممكن أن تقود الناس إلى الجنون؛ وكانت تظهر بالنسبة للبعض كونها أشباحًا أو هذيانات محمومة للعقل.

سعادتي مترعة، لذا أريد أن أعيش وفجأة يغدو كل شيء مريرًا...

آه ذلك ما يدفعه المرء ثمنًا لنار بروميثيوس! فلا يكفي أن تعاني، بل يجب أن تحب هذه السويداء وتحترم شكوكك وتساؤلاتك: إنها تمثل الإفراط، وترف الحياة، وتظهر في الأغلب على قمم السعادة، حين لا تكون هناك رغبات فظّة؛ فالناس الذين في حالتي عوز وحزن لا ينزعجون منها؛ الآلاف الكثيرة من الناس يدخلون الحياة دون أن يعرفوا أي شيء عن ضباب الشكوك وألم التساؤلات المبرّح... لكن بالنسبة لأولئك الذين واجهوها في اللحظة المناسبة، فهي لم تكن أحزانًا بل ضيوفًا مُحتفى بهم.

قالت بتردّد:

لكن من المستحيل السيطرة عليها: فهي تجعلك تشعر بالبؤس واللا مبالاة بكل شيء تقريبًا.

قال:

لا لمدة طويلة مع ذلك. فهي تجعل الحياة فيما بعد أكثر إنعاشًا. إنها تقودنا إلى الهوة التي منها لا نحصل على أي جواب، ثم تجعلنا ننظر إلى الحياة بحبٍّ أكبر من أي وقت مضى... إنها تتحدى القوى التي حاولت سابقًا أن تتنازع معها، كأنها لا تريد لها أن تذهب لتستغرق في النوم...

قالت متذمرة:

لكي يصيبها القلق من التشوّش والأطياف. كل شيء ساطع ومشمس وفجأةً يخيّم ظلٌّ من الشؤم على الحياة! ألا يوجد علاج له؟

بالطبع هناك علاج! يجب أن تجدين القوة في الحياة، وإن لم تقدري، تصبح الحياة لا تُحتمل حتى بدون هذه التساؤلات.

وماذا أفعل حينئذ؟ هل أخضع وأكون بائسة؟

قال:

كلا البتة. سلّحي نفسك بالثبات وواصلي طريقك في الحياة بصبر وإصرار.

واصل كلامه ووضع ذراعه حولها:

أنا وأنتِ لسنا عمالقة. لن نذهب مثل مانفريد وفاوست لكي نصارع بجرأة المشاكل الهائلة؛ يجب أن لا نقبل بتحديها، لكن ننكّس رؤوسنا وندخل متذللين للأزمنة الصعبة، ثم ستبتسم لنا الحياة والسعادة مرة أخرى و...

سألت:

لكن ماذا لو لم تتركنا وحيدين فتصيبنا المشاكل بالحزن أكثر فأكثر؟

حسنٌ، ماذا لو يحصل ذلك؟ دعنا نتقبلهُ كعنصر جديد في الحياة. لكن كلا، ذلك لا يفيد ولا يمكن أن يحدث لنا؛ ذلك ليس حزنك، إنه مرض البشرية جمعاء.

لم تصبك منه إلا قطرة واحدة. سيكون الأمر مرعبًا حين يفقد الإنسان صلته بالحياة ويفقد ما يستند عليه. لكن بالنسبة لنا آمل أن تكون هذه الكآبة الشديدة لك ليس عرضًا لمرض ما فذلك سيكون أمرًا أسوأ بالنسبة لي وكارثة تتركني يائسًا وضعيفًا. لكن هل حقًا ما تعتقدينه من أنّ الحزن الغامض والشكوك، أو التساؤلات يمكن أن تحرمنا من سعادتنا ومن...

لم يكمل جملتهُ إذ إنها رمت بنفسها بين يديه مثل مجنونة وطوقت رقبته بذراعيها، كأنها باخوسية[75]، في عناق محموم، وبقيت ساكنة للحظة.

همست منتشية:

لن يحرمنا الحزن الغامض ولا المرض ولا حتى الموت من سعادتنا!

وأصبحت سعيدة ومرحة مرة أخرى. وبدا لها أنها لم تحبه يومًا بشغف مثلما أحبتهُ في مثل هذه اللحظة.

ختم كلامه بملاحظة خرافية وقد ألهمه الهمّ الرقيق:

75إحدى كاهنات أو عابدات باخوس إله الخمر في الأساطير اليونانية م.

احذري من ربة القدَر فإنها لن تسمع شكواك وتظنها جحودًا. إنها تكره الناس الذين لا يقدّرون هِباتها. حتى الآن أصبحتِ تعرفين الحياة؛ فما كان عليك سوى أن تختبريها. انتظري حتى تصبح جادّة تمامًا، حتى يأتي الحزن والاضطراب وسيأتيان فلن يكون لديك الوقت الكافي لمثل هذه التساؤلات...

وأضاف شتولتس برفق كأنه كان يتكلم إلى نفسه جوابًا على جيشانها العاطفي:

ادّخري قوتكِ!

وكانت ثمة نغمة من الحزن في كلماته كأنه استبق رؤية «الاضطراب والحزن» عن بُعد.

كانت صامتة واندهشت فجأة من نغمة الحزن في صوته. كان لديها إيمان تام به، وصوته منحها الثقة بنفسها. كان استغراقه في التفكير قد لوثها فأصبحت مستغرقة بنفسها. مشت بشكل بطيء وآلي ذهابًا وإيابًا في الشارع مستندة عليه، وغرقت في صمت عميق. سارت على خطى زوجها فنظرت بقلق إلى المستقبل حيث كانت المِحن والاضطراب والحزن، كما قال، في انتظارهما. لم تعد تحلم بليلة زرقاء؛ انفتح أمامها مشهدًا آخر ليس شفافًا أو مرحًا، ولا يمثل حياة يعمها السلام والوفرة، بل يصورها في عزلة معه. كلا، ما رأته هناك كان سلسلة من الحرمان والخسارة، المخضلّة بالدموع، والتضحيات التي لا مفر منها، حياة صيام ونكران ذات مُلزم، ونزوات ولدت في الكسل والأنين والمناحة التي سببتها مشاعر جديدة لم يجرباها سابقًا. حلمت بالمرض، وفشل العمل، موت زوجها... ارتعدت، وتاه قلبها، لكنها نظرت بشجاعة وفضول إلى ذلك الجانب الجديد من الحياة، وفحصته برعب وحددت القوة الكافية لديها لمواجهته... الحب وحده لم يخدعها في ذلك الحلم؛ فقد ظلّ يحرسها بصدق طوال هذه الحياة الجديدة أيضا؛ ومع ذلك كم كان مختلفا أيضا! فلم تكن ثمة آهات متقّدة أو أشعة ساطعة ولا ليالٍ زرقاء؛ وبمرور السنين اتضح أنه عبارة عن لعبة طفل بالمقارنة مع ذلك الحبّ البعيد الذي جربتهُ وسط حياة صارمة عنيدة. فأنتَ لا تسمع صدى ضحكات وقبلات هناك، ولا أحاديث وتأملات، ترتعش بالعاطفة المكبوتة، في

البيت الريفي بين الأزهار ومهرجان الطبيعة والحياة... فقد «ذوى ومضى» كل ذلك. لكن ذاك الحب الذي لا يمكن أن ينضب أو يدمّر يمكن ملاحظته في وجهيهما قويًا كقوة الحياة في أوقات الحزن العادي كان يشرق ببطء وصمت على شكل نظرة متبادلة مليئة بالمعاناة المشتركة، ويمكن أن يتجسّد في الصبر الدائم الذي كانا يواجهان به عذابات الحياة بدموع مكبوتة ونحيب خامد. أحلام أخرى بعيدة لكنها واضحة ومحددة ومتوعدة حلت بهدوء مكان أحزان أولغا الغامضة وتساؤلاتها... تحت تأثر كلمات زوجها المطمئنة والهادئة وبسبب الثقة التي شعرت بها نحوه بلا حدود، تحرّرت أولغا من حزنها الغامض الذي كان يعرفهُ القلة من الناس، ومن الأحلام النبوئية الصارمة للمستقبل، وتقدمت للأمام بابتهاج. أخلى «الضباب» مكانًا لصباحٍ مشرق ومشمس، وكانت الأم وربة البيت منهمكة بالمشاغل؛ شعرت بالانجذابِ نحو حديقة الزهور والحقول ومكتبة زوجها. لكنها لم تعد تعبث مع الحياة بإهمال وتنازل؛ وبدلًا من ذلك فقد اتخذت قلبًا رحيمًا وهيأت نفسها وانتظرت، بإلهام من فكرة سرّية... لقد ازدادت رحمةً وسموًا... رأى أندريه بأن مثالهُ السابق عن المرأة والزوجة لا يمكن بلوغه، لكنهُ كان سعيدًا حتى حين يتأمله تأملًا شاحبًا في شخصية أولغا: لم يكن يتوقع حتى ذلك. في الوقت نفسه كان يواجه أيضًا لعدة سنين، أو كل حياته تقريبًا، مهمة صعبة من الحفاظ على كرامته كرجل له نفس المستوى في عيني امرأة متباهية جدًا وتحترم ذاتها وتقدرها بشكل مناسب مثل أولغا، لا بداعي الغيرة المألوفة بل للتأكد من أنّ حياتها الصافية كالكرستال، يجب أن لا ينالها الظلام؛ وربما يحدث هذا لو أنّ إيمانها فيه قد اهتزّ قليلًا.

لم تعد العديد من النساء بحاجة لشيء من هذا النوع: فما إن يتزوجنَ حتى يستسلمن ويقبلنَ بميزات أزواجهن بخيرها وشرّها، ويروضنَ أنفسهنّ تمامًا على الموقع والمحيط الذي وضعنَ فيه، أو بينما يخضعن باستسلام إلى أول افتتان طارئ يجدنَ فورًا أنّ من المستحيل أو من غير الضروري مقاومته. ويسرنَ لأنفسهنّ:

«إنه القدر والشغف المرأة هي كائن ضعيف» الخ. حتى لو كان الزوج بدرجة أعلى من بقية الناس في الذكاء، الذي ينجذب إليه الرجل بشكل لا يقاوم، فإن تباهي النساء بتفوق أزواجهنّ يشبه التباهي بقلادة ثمينة، وحتى ذلك الحين ليت عقلهُ يبقى غافلًا بالنسبة لأحابيل الأنثى المؤسفة. لكن لو إنهُ يمتلك الجرأة ليشاهد الكوميديا السوداء لكيانهنّ المتكتّم والتافه والفاسد، فإنّهنّ يصفنَ عقله بالتصلّب والتشنّج.

لم تعرف أولغا منطق الاستسلام للقدر الأعمى ولم تقدر أن تفهم عواطف المرأة الثمينة وافتتانها. فما إن ميزت الكفاءة في رجلها المختار ومزاعمه عنها، حتى صدقت به ولهذا السبب أحبّتهُ، فإنْ كفّت عن تصديقه، فإنها ستكف عن حبّه، كما حدث مع أبلوموف. لكن كانت خطواتها في ذلك الحين ما زالت غير ثابتة وإرادتها ضعيفة؛ فقد بدأت توًا تراقب الحياة عن كثب وتتأمل فيها، لكي تصبح واعية بعقلها وشخصيتها ولتجمع معلوماتها. فالعمل الإبداعي ومسعاه لم يبدأ بعد ولم تقرر مسارها في الحياة. لكن إيمانها بأندريه الآن لم يكن أعمى بل واعيًا، ومثالها عن الكمال الرجولي تجسد فيه. كلما آمنت به بعمق ووعي شديد وجدت من الصعب لها أن تبقى على نفس القمة ولكي تكون بطلة لا لعقلها وقلبها فحسب بل لخيالها أيضًا. لكن إيمانها فيه كان من القوة بحيث إنها لم تعترف بوسيط أو قاضٍ بينها وبينه إلاّ اللهَّ. ذلك هو السبب في أنها لن تصبر على أي نقص طفيف في ميزاته التي اعترفت بها؛ فأي ملاحظة مزيفة في عقله أو شخصيته سوف تسبب التشتت والتنافر. صرح سعادتها المنهار سيدفن تحت أنقاضه، أو لو بقت قوتها، فإنها ستبحث لكن كلا، فامرأة مثلها لن تلدغ من جحر مرتين. فبعد انهيار مثل هذا الإيمان والحب، فمن غير الممكن بعثهما من جديد.

كان شتولتس في غاية السعادة بسبب حياته المترعة والمثيرة، التي يجري فيها الربيع الدائم، وقد اعتنى بها، تعلّق بها ومال إليها بحرص وتحمّس ونشاط. وقد أصابه الرعب فقط حين تذكّر بأن أولغا قد أصبحت على وشك الدمار؛ وأنهما تعثرا فحسب في مسارهما الصحيح في الحياة، واندمجت حياتهما في حياة واحدة، وربما

تباعدتنا؛ وأنّ ذلك الإهمال لوسائل الحياة ربما أدى إلى خطأ كارثي، وأنّ أبلوموف... توقف عن التذكر وأصابته رجفة. يا إلهي، كانت أولغا تعيش حياةً هيّأها لها أبلوموف! أولغا تدير الوجود اليومي، فهي سيدة ريفية تربّي أطفالها، ومدبّرة منزل، ولا شيء أكثر من ذلك! كل تساؤلاتها وشكوكها والإثارة في حياتها بأكملها قد تبدّدت في الاهتمامات المنزلية والتحضيرات للأعياد والضيوف وإعادة شمل العائلة وأعياد الميلاد وحفلات التعميد وكسل زوجها وفتوره! سيتحول الزواج إلى شكل لا معنى له، وسيلة لا غاية. سيصبح مجرد إطار كبير ثابت يجمع الضيوف وتسليتهم والولائم والحفلات والثرثرة الفارغة. كيف أمكنها أن تتحمل مثل هذه الحياة؟ في البداية كانت ستكافح محاولة أن تعثر على لغز الحياة وحلّه، وتبكي وتعاني، ثم تعتاد عليه، وتصبح بدينة وحمقاء، وتقضي وقتها في الأكل والنوم.

كلا، لن يحصل هذا معها: سوف تبكي وتعاني وينحل جسمها وتموت بين ذراعي زوجها المحبوب والبائس... مسكينة أولغا! ماذا لو أن النار لم تنطفئ، والحياة لم تبلغ نهايتها، لو أن قواها توقفت وراحت تنشد الحرية، لو بسطت جناحيها مثل الصقر القوي حاد العينين، ودققت للحظة في ذراعيها الضعيفتين، واندفعت بقوة على صخرة عالية وتمكنت أن ترى صقرًا أقوى منها وأحدّ بصرًا من بصرها؟ مسكين إيليا!

هتف أندريه في أحد الأيام:

مسكين إيليا!

وحين سمعت أولغا ذلك الاسم هبطت يداها فجأة وسقط تطريزها في حضنها، وارتمى رأسها للخلف واستغرقت في التفكير. لقد أثار هتافهُ الذكريات.

سألت بعد فترة توقف:

ما الذي يحصل له؟ ألا نستطيع أن نعثر عليه؟

هزّ أندريه كتفيه.

قال:

ربما يفكّر المرء لو كنا نعيش في زمن لا يوجد فيه بريد، حين يسافر الناس إلى أنحاء مختلفة ويعتبرون في حكم المفقودين فلا يعرف أثر لهم بعد ذلك.

يستحسن أن تكتب إلى بعض أصدقائك: يجب في الأقل أن نعثر على خبر عنه.

يجب أن لا نعثر على شيء لا نعرفه مسبقًا: فهو حي يرزق ويعيش في الشقة نفسها أعلم ذلك دون الحاجة إلى الكتابة لأصدقائي. أما كيف يعيش ويمضي حياته وهل مات معنويًا أم أن شرارة الحياة ما زالت تتوهج فيه فتلك أمور لا يعرفها الغريب.

من فضلك لا تتكلم هكذا يا أندريه: فذلك يخيفني ويؤلمني حين سماعه. أود أن أعرف وأنا خائفة أن أكتشف...

كانت على وشك البكاء.

يجب أن نرحل إلى بطرسبورغ في الربيع، ويجب أن نجده بأنفسنا.

هذا غير كاف. يجب أن نبذل ما بوسعنا.

ألم أفعل؟ لقد بذلت جهدي لإقناعه، وفعلت كل شيء أستطيعه من أجله، ورتبت أملاكه وشؤونه ليته أظهر ولو علامة طفيفة من التقدير! إنه جاهز لعمل أي شيء حين ترَينهُ، لكن ما إن تبتعدين عنهُ فوداعًا لقد عاد إلى النوم ثانيةً! وكأنكِ تتعاملين مع مدمن على الكحول!

قالت أولغا بنفاد صبر:

لكن لماذا سمحت له بالغياب عن بصرك؟ يجب أن تتعامل معه بحزم: تضعهُ في العربة وتأخذه. الآن سوف ننتقل إلى عزبتنا وسيكون قريبًا منّا. سنأخذه معنا...

قال أندريه وكان يمشي في الغرفة ذهابًا وإيابًا:

يا لها من مشكلة! لا يوجد حلٌّ لها!

قالت أولغا:

هل تجد ذلك عبئًا؟ عجبًا! إنها المرة الأولى التي أسمعك فيها تتذمّر من ذلك.

أجاب أندريه:

أنا لا أتذمّر بل أفكّر بصوتٍ عال.

ولماذا يجب أن تفعل ذلك؟ هل توصلتَ إلى استنتاج بأنهُ أمرٌ مضجر ومزعج؟
نظرت إليه بتمعّن. وهزّ رأسه نافيًا.
كلا، ليس أمرًا مزعجًا، لكنه ضياع للوقت. لم أتمالك نفسي من التفكير بذلك أحيانًا.
أوقفتهُ عن الكلام:
لا تتكلم هكذا أرجوك! سوف أقضي اليوم كله أفكّر به كما فعلت في الأسبوع الماضي وأشعر بالبؤس. لو أن صداقتك معه ماتت، فيجب أن تحاول أن تبذل ما بوسعك بداعي الإحساس الإنساني. وإذا كان ذلك قد أرهقك، فإني سأذهب له بنفسي، ولن أغادر دونه. أنا متأكدة أنه سوف يتأثر بتوسلاتي. لا أغالب الشعور بأني سأبكي بمرارة لو عثرتُ عليه منهارًا أو ميتًا. ربما تستطيع دموعي...
قاطعها أندريه:
أن تبعث الحياة فيه، هذا ما تفكرين به؟
حسنٌ، إذا لم تستطع أن تعود به إلى الحياة النشطة فإنها في الأقل تجعله ينظر إلى ما حوله ويغيّر طريقته في العيش بشكل أفضل. لن يعيش في القذارة، بل قرب نظرائه، معنا. لقد رأيتهُ مرة واحدة للحظة في ذلك الوقت، فثاب إلى نفسه فورًا وكان خجلًا.
سألها أندريه مازحًا:
هل مازلتِ مغرمة به؟
أجابت أولغا بجد تمامًا واستغرقت في التفكير كأنها تنظر إلى الماضي:
كلا. لا أحبه، لكن ثمة شيء أحبهُ فيه ومن أجلهِ بقيتُ وفيّة، ولن أتغيّر كما يفعل بعض الناس...
آه، مَنْ هؤلاء الناس؟ هل تقصدينني؟ لكنّكِ على خطأ. إذا أردتِ أن تعرفي الحقيقة، فأنا الذي جعلتكِ تحبينه ووقعت في مشكلة. فلولا أنا لمررتِ به دون أن تعرفيه. وكنتُ أنا الذي جعلكِ تدركين بأنه امتلك إدراكًا لا يقل عن الآخرين،

لكنه مدفون تحت كومة من الأنقاض ونائم بكسل. هل سأخبرك لماذا هو عزيز عليكِ ولماذا ما زلتِ تحبينه؟

أومأت برأسها موافقة.

لأنه امتلك شيئًا أكثر قيمة من إدراكه إنه القلب النزيه المخلص! إنه الكنز الثمين الذي حمله معافى خلال حياته. لقد أسقطهُ الناس أرضًا، فنهض غير مكترث وأخيرًا ارتمى نائمًا ومسحوقًا وخائب الأمل، وقد فقد قوته في العيش؛لكنه لم يفقد نزاهته وإخلاصه. فقلبه لم يعزف أي نغمة زائفة؛ ولم تكن ثمة شائبة في شخصيته. فلا الكذبة المبهرجة تخدعهُ ولا شيء يغريه ويحيدهُ عن الصراط المستقيم. كان ثمة محيط مألوف من الشر والدناءة يجيش حوله، وربما يكون العالم بأكمله مسمومًا ومقلوبًا رأسًا على عقب لن ينكّس أبلوموف رأسه لصنم الزيف، وستكون روحهً دائمًا نقية ونبيلة ونزيهة... روحه الشفافة والصافية كالكرستال.

مثل هؤلاء الناس نادرون؛ هناك قلة منهم؛ إنهم مثل اللآلئ بين الحشود! لا يمكن لقلبه أن يرتشي؛ فيمكن الاعتماد عليه في كل مكان وزمان. بسبب هذا بقيتِ وفية له، وذلك هو السبب في أني إذا لم أفعل شيئًا له فسيكون دائمًا عبئًا عليّ. عرفت الكثير من الناس الذين يمتلكون مزايا راقية، لكني لم أجد قلبًا أشد نقاءً ونبلًا وبساطة من قلبه. لقد أحببت ناس عديدين، لكن لم أحب أحدًا بدفء ورسوخ كما أحببتُ أبلوموف. فحين تتعرفين عليه لا تستطيعين التوقف عن حبّه، هل كلامي صحيح؟ هل أنا على حق؟

كانت أولغا صامتة، وركّزت عينيها على تطريزها. وبقي أندريه يتأمل.

أضاف بعد أن ثاب إلى نفسه:

هل هذا كل ما في الأمر؟ هل ثمة شيء آخر؟ آه، لقد نسيتُ تمامًا «رقته البريئة»...

ضحكت أولغا ورمت بسرعة بمطرزاتها، وركضت نحو أندريه، وشبكت ذراعيها حول عنقه، وحدّقت في عينيه بضعة دقائق بعينين ساطعتين، ثم وضعت رأسها على كتف زوجها وغرقت في التفكير. وبرز في ذهنها وجه أبلوموف

الرقيق الحالم، ونظرته الوادعة، وإذعانه، ثم ابتسامته الخجولة الجديرة بالرثاء التي أجاب بها على تعنيفها له عند افتراقهما وشعرت بالبؤس والرثاء له.
قالت وذراعاها ما زالت تطوقان رقبة زوجها:
لن تتركهُ وتتخلى عنه. صحيح؟
أبدًا! إلا إذا انشقت أمامنا هاوية فجأة أو قام بيننا جدار.
قبّلت زوجها.
هل تأخذني معك إلى بطرسبورغ.
تردّد وكان صامتًا.
سألته وأصرّت على الإجابة:
هل ستأخذني؟ هل ستأخذني؟
قال وحاول أن يخلّص رقبته من عناقها:
اسمعي يا أولغا، يجب أولًا...
كلا، قل نعم! أوعدني وإلا لم أتركك لوحدك.
أجاب:
حسنٌ، ليس في المرة الأولى بل في الثانية، أنا أعرف جيدًا بأنك سوف تشعرين وكأنه...
قاطعتهُ:
لا تقل كلمة أخرى! نعم ستأخذني: سنفعل كل شيء سوية. لن تكون قادرًا على ذلك لوحدك ولن ترغب به!
قال ولم يكن مسرورًا تمامًا لأن أولغا أجبرتهُ على القبول:
ربما تكونين على حق، فقط إني خائف من أنك ستكونين مستاءً، وربما لوقت طويل.
ختمت حديثها واستعادت مقعدها:
تذكّر إذن. سوف تتخلى عنهُ «لو انشقت أمامكما هاوية أو قام بينكما جدار». لن أنسى هذه الكلمات.

❊ ❊ ❊

(٩)

ساد السلام والهدوء أنحاء فايبورغ، إذ إن شوارعها غير المبلطة وأرصفتها الخشبية، وحدائقها الخاوية وحفرها نما فيها نبات القرّاص بكثرة، حيث العنزة والحبل البالي حول رقبتها تنشغل بالقضم أو تنام بكسل بجانب السياج؛في منتصف النهار، كان عقبا موظف أنيقان عاليان يقعقعان على طول الرصيف، وتتحرك إلى الجانب ستارة مصنوعة من الموسلين في إحدى النوافذ، وتبصبص زوجة موظف حكومي من وراء أزهار الجيرانيوم؛ ويظهر وجه فتاة عذب فجأة فوق سياج إحدى الحدائق ثم يختفي فورًا، ويتبعهُ وجهٌ آخر لفتاة، يختفي أيضًا، ثم يظهر الوجه الأول مرة أخرى ثم يلحقه الثاني؛ حينئذ يمكن سماع صراخ الفتيات وضحكاتهنّ وهنّ على الأراجيح.

كل شيء كان هادئًا في بيت السيدة بشينتزين. حين تمشي داخل الفناء الصغير تصبح وسط مشهد رعوي حي: فالديكة والدجاج كانت في حالة هيجان إذ تركض لتختفي في الزوايا؛ والكلب بدأ القفز من سلسلته والنباح بأعلى صوته؛ توقفت أكولينا عن حلب البقرة، وترك الحارس تقطيع الخشب، وكلاهما نظرا إلى الضيف القادم باهتمام.

قال الحارس:

مَنْ تريد؟

وما إن سمع اسم أبلوموف أو سيدة المنزل، أشار بصمت إلى العتبات الأمامية وبدأ يقطع الخشب من جديد. مشى الزائر عبر الممر النظيف المكتسي بالرمل إلى العتبات الأمامية، المغطاة بالسجاد العادي النظيف، وسحب مقبض جرس النحاس المصقولة اللامعة، وكان الباب تفتحهُ أما أنيسيا، أوالأطفال، وأحيانًا السيدة نفسها أو زاخار وكان زاخار دائمًا الأخير.

كل شيء في بيت السيدة بشينتزين كان يحمل بصمة الوفرة والازدهار، التي لم يتم ملاحظتها سابقًا حتى حين كانت مارفا ماتفييفنا تحتفظ بالبيت لها ولأخيها.

كان المطبخ وخزانات المؤن والخوان مليئة بالأواني الخزفية والأطباق المدورة والبيضوية الصغيرة والكبيرة وأواني صب الصلصة والأكواب وأكوام من الصفائح، وقدور الطبخ الحديدية والنحاسية والخزفية والغلايات. كانت أدوات أغافيا ماتفييفنا الفضية استرجعت منذ مدة طويلة ولم يتم رهنها بعد ذلك، جنبًا إلى جنب مع فضيات أبلوموف. كانت هناك صفوف كاملة من أباريق الشاي وعدة صفوف من أكواب الصيني العادية والمذهبة، والمصبوغة بالشعارات والقلوب المتوهجة والرجال الصينيين؛ وكانت ثمة دوارق زجاجية ضخمة للقهوة والقرفة والفانيلا وصناديق الشاي الكرستالية وأباريق الزيت والخل. رفوف كاملة كانت مثقلة بالرزم والقناني وصناديق الإسعافات المنزلية، والأعشاب، والمراهم واللواصق والكحول، والكافور والمساحيق البسيطة ومساحيق التطهير؛ كان هناك أيضًا الصابون ومادة لتنظيف الأشرطة من البقع... الخ... الخ كل شيء في الواقع كانت ربة البيت الجيدة في المقاطعات تحتفظ به في بيتها. حين فتحت أغافيا ماتفييفنا فجأة باب الخزانة المليئة بتلك اللوازم، اجتاحتها كل هذه الروائح المخدّرة فكان عليها أن تدير وجهها عنها للحظة. في موضع حفظ اللحوم كانت قطع من لحم الخنزير معلقة من السقف لكي لا تصل إليها الفئران، إضافة إلى الجبن وأقراص السكّر والسمك المملّح وأكياس الفطر المجفف والمكسّرات التي ابتاعتها من الباعة الفنلنديين الجوالين. كانت تنتصب على الأرضية عُلب الزبدة وأكواز ضخمة مغطاة بالخزف من الكريمة الحامضة وسلال من البيض وعدد كبير من الأغراض الأخرى. سيحتاج المرء إلى قلم هوميروس ثانٍ لكي يصف تمامًا وبالتفصيل كل ما تجمع في جميع الزوايا وفي الرفوف لهذا المعبد الصغير من الحياة المنزلية. كان المطبخ مشهدًا حقيقيًا من النشاط لربّة منزل عظيمة ومساعدتها الوجيهة أنيسيا. كل شيء يحتاجونه كان موجودًا في البيت، في متناول اليد وفي مكانه الصحيح؛ في الواقع، كان هناك ترتيب ونظافة في كل مكان إذ يمكن القول إنه لا توجد زاوية في البيت إلا وفيها شعاع من نور ونَفَس من الهواء النقي، وقد تسللت إليها عين أغافيا ماتفييفنا أو

يد أنيسيا السريعة الكاسحة. أما غرفة زاخار أو جُحره فلم يكن فيها نافذة والظلام الدائم ساعد على تحويل المسكن الإنساني إلى مجرد جحُر مظلم. إذا ما وجد زاخار أحيانًا أغافيا ماتفييفنا هناك ومعها كل الخطط لتحسين المكان وتنظيفه، كان يعلن بثبات بأنه ليس من شأن المرأة أن تقرّر متى وكيف يجب أن تحفظ فرَشَهِ ودهان أحذيته وجزمهِ، وليس من شأن أي إنسان أن يسأل عن سبب وجود أكوام ملابسه على الأرضية، والغبار الذي يغطي فراشه في الزاوية خلف الموقد، وإنه هو وليس هي الذي كان يرتدي تلك الملابس وينام على الفراش. أما بالنسبة للمكنسة وبعض الألواح الخشبية والطابوقتين وقاعدة البرميل وقطعتين من الخشب يحتفظ بها في غرفته، فإنه لا يستطيع أن يعمل بدون هذه اللوازم في عمله على الرغم من أنه لم يوضح السبب؛ إضافة إلى أنّ الغبار والعناكب لم تزعجهُ، أي منذ أن تخلى عن عادة التطفّل على مطبخهم، فلم يكن ثمة سبب لتدخلهم في شؤونه. حين وجد أنيسيا هناك في أحد الأيام عاملها باحتقار شديد وهدّدها بكوعهِ بشكل جدّي بحيث إنها كانت خائفة من النظر إليه. حين رفعت القضية إلى المرجع الأعلى خضع إلى قرار سيّده، فقد ذهب أبلوموف لكي يلقي نظرة على غرفة زاخار بقصد اتخاذ جميع الإجراءات الضرورية وتنفيذها بصرامة ودقة، لكن حين أطلّ برأسه عبر باب غرفة زاخار وحدّق لحظة بكل ما كان موجود فيها، بصق فقط ولم ينطق بكلمة. «حسنٌ، هل حصلتما على مرادكما؟» قال زاخار لأغافيا ماتفييفنا وأنيسيا اللتين جاءتا مع أبلوموف على أمل أن اهتمامه قد يؤدي إلى تغيير ما. ثمّ ابتسم بأسلوبه الخاص عبر وجهه بأكمله بحيث إن حاجبيه وشاربيه أخذا يتحركان منفردين. كانت كل الغرف الأخرى مشرقة ونظيفة ومتجددة الهواء. استبدلت كل الستائر القديمة البالية وقد علقت على نوافذ وأبواب غرفة الاستقبال والمكتبة بُسُط خضر وزرق كما ربطت على ستائر الموسلين حبال حمر للزينة وكلها كانت من عمل يدي أغافيا ماتفييفنا. كانت الوسائد بيضاء كالثلج وترتفع كالجبل تقريبًا إلى السقف؛ كانت البطانيات منجدّة ومصنوعة من الحرير. في نهاية أسابيع عديدة كانت غرفة سيدة المنزل

تحتشد بمناضد لعب الورق، مفتوحة وموضوعة طرفًا لطرف، وكانت لحف أبلوموف ومبذله منشورة عليها.
كانت أغافيا ماتفييفنا تفصّلها وتبطنها، وفي أثناء عملها كانت تعتصر صدرها المكتنز وتركّز بصرها حتى أنها تقوم بعضّ الخيط وقطعه بأسنانها؛ كانت تعمل بجد ومحبة وبصنعة لا تبالي بالتعب، وكان تستأنس بشكل متواضع بفكرة أن المبذل والبطانيات المضرّبة سوف يضعها أبلوموف الرائع على جسمه لكي تمنحهُ الدفء واللطف والسرور. كان حين يستلقي على الأريكة في غرفته عدة أيام يصبح معجبًا بالطريقة التي يتحرك بها مرفقاها العاريان ذهابًا وإيابًا على أثر الإبرة والقطن.
وكما هي الحال في الأيام الماضية في أبلوموفكا، كان أكثر من مرة يصيبه النعاس بسبب الصوت المنتظم للإبرة وهي تدخل وتخرج من النسيج وطقطقة الخيط حين تعضّهُ بأسنانها.
التمسها قائلًا:
توقفي عن العمل من فضلك؛ ستشعرين بالتعب.
أجابت ولم تنتزع يداها ولا عيناها عن عملها:
اللهّ يحبُّ العمل.
كانت قهوته تقدّم بعناية ولطف إضافة إلى أنها صنعت من البداية، حين انتقل إلى البيت قبل عدة سنوات. حساء كبد الطيور، والمعكرونة وجبن البارميزان وفطائر اللحم أو السمك، والسمك البارد وشوربة الخضراوات، والدجاج المحلي كلها كانت تتبع بعضها البعض في دوران صارم وتقدم تنوعًا مبهجًا داخل الحياة الرتيبة لهذا المنزل الصغير. كانت الشمس المشرقة تملأ البيت من الصباح إلى المساء، وهي تتسلل عبر النوافذ من جانب واحد ثم من الجانب الآخر، ولا شيء يعيقها، بفضل بساتين الخضروات التي تحيطها من كل مكان. كان أصوات عصافير الكناري تتردّد بمرح؛ أما أزهار الجيرانيوم والياقوتية التي كان الأطفال يشترونها من حديقة الكونت فقد كانت تبعث عبيرًا قويًا في الغرفة الصغيرة، وتمتزج

بعذوبة مع رائحة دخان سيجار الهافانا الخالص ورائحة القرفة أو الفانيلا التي تقوم سيدة المنزل بطحنها، وهي تحرّك مرفقيها بنشاط. عاش أبلوموف، إذا جاز القول، ضمن هيكل الحياة الذهبي الذي تتبدل فيه، كما في اللوحة المتغيرة، أطوار الحياة العادية مثل الليل والنهار والفصول. لم تكن هناك تغييرات أخرى ولا حوادث خطيرة تعكّر صفو الحياة، وتحرّك غالبًا الرواسب الكدِرة المريرة. منذ ذلك الحين، كان شتولتس قد أنقذ أبلوموفكا من ديون الاحتيال لأخ سيدة المنزل، وقد اختفى إيفان ماتفيفيتش وتارانتييف تمامًا، كما تلاشى كل أمر ذي طبيعة عدوانية من حياة أبلوموف أيضًا. والآن هو محاط بناس تتجلى فيهم ميزات البساطة والعطف والمحبة والذين لا يتوانون في بذل جهدهم ليجعلوا من حياته مريحة ما أمكن، وليساعدوه على التخلي عن الهم والقلق. كانت أغافيا ماتفييفنا في أوج حياتها. عاشت وهي تشعر بأنّ حياتها كانت ممتلئة كما لم تكن هكذا من قبل؛ لكنها كما في السابق، لم تستطع أن تعبّر عن ذلك بالكلمات، أو بالأحرى، لم يخطر في بالها أن تفعله. كانت تدعو فحسب أنّ الله سوف يطيل بعمر أبلوموف وينقذهُ من «الحزن والغضب والعوز»، وهي تسلّم أمرها وأمر أطفالها وبيتها إلى إرادة اللهَّ.

كما لو أنها تريد تجميله، كان وجهها دائمًا يكتسي بنفس التعبير الذي يشي بالسعادة المثالية الكاملة، لكنها سعادة لا تقترن بالرغبات، وهو أمر مستحيل بالنسبة لامرأة ذات مزاج مختلف. لقد ازداد وزنها؛ وكان ثمة شعور بالقناعة حول بصدرها وكتفيها، أما عيناها فقد توهجتا بالرقة، وإذا ما وجد فيهما تعبير من الهمّ فإنه يتعلق فحسب بواجباتها المنزلية. استعادت هدوءها وكرامتها، إذ إن أنيسيا وأكولينا الطائعتين والحارس بأكمل الاستعداد لتنفيذ أوامرها. وكما في السابق، كانت تبدو وكأنها تبحر ولا تمشي من الخزانة إلى المطبخ، ومن المطبخ إلى حجرة المؤن، وهي تعطي أوامرها بنغمة غير متسرعة وموزونة في صوتها، وتعي تمامًا بما كانت تفعله.

أصبحت أنيسيا أكثر حيوية من قبل لأنها كان لديها الكثير من العمل لتؤديه؛ فهي دائمًا في حالة حركة وإسراع وعمل لتنفيذ أوامر أغافيا ماتفييفنا. أصبحت عيناها أكثر إشراقًا وأنفها المتكلم، فقد اندفع للأمام، وتوهّج بالهموم والأفكار والغايات وبدا ناطقًا مع أنّ لسانها كان صامتًا.

كانت ملابس المرأتين كليهما منسجمة مع مكانتهما الموقرة وواجباتهما العديدة. فأغافيا ماتفييفنا امتلكت خزانة للثياب تحتوي على صف من الملابس الحرير، والأوشحة، ومعاطف الفراء؛ وكانت تشتري قلنسواتها من شارع ليتيني على الجانب الآخر من النهر. لم تشترِ أحذيتها من السوق بل من رواق التسوّق المقنطر، أما أحذيتها فكرّوا بالأمر! فاشترتها من شارع مورسكايا. كانت أنيسيا أيضًا تنهي عملها في المطبخ، وتلبس ثوبًا صوفيًا، وبالأخص في أيام الآحاد. مازالت أكولينا هي الوحيدة التي تمشي وتنورتها مثنية عند خصرها، ولم يقدِر الحارس على العمل دون فروته المصنوعة من صوف الغنم حتى في العطل الصيفية. أما زاخار فكان بالطبع سيئًا كما هو دائمًا: لقد صنع لنفسه سترة من معطفه الفراك الرمادي، ومن المستحيل تحديد لون بنطاله ولا القماش الذي صُنعت منهُ ربطة عنقه. كان ينظف أحذيته ثم يذهب لينام، أو يجلس عند البوابات، وهو يحدّق ببلادة إلى قلة من المارة، أو يمضي وقته أخيرًا وهو يجلس بالقرب من دكان البقال، إذ كان يقوم بأمور وبنفس الطريقة كما كان يفعل سابقًا، أولًا في أبلوموفكا، ثم في شارع غوروخوفايا. وماذا عن أبلوموف نفسه؟ كان أبلوموف انعكاسًا كاملًا وتعبيرًا طبيعيًا لذلك الاتساق والقناعة والهدوء الجليل الذي ساد من حوله. فبعد التفكير بطريقة عيشه، وإخضاعها لفحص محكم، والاعتياد عليها أكثر فأكثر، قرّر أخيرًا إنه ليس لديه شيء ليكافح من أجله، ولا ليبحث عنهُ وأنه حقق مثاله في الحياة، على الرغم من أنّ ذلك المثال مجرّد من الإحساس الشعري وينقصه التألق الذي معهُ كان خياله قد منح مرّة حياةً وافرة خالية من الهمّ لمالك أرض ريفي في عزبته الخاصة، بين فلاحيه وأقنانه. نظر إلى أسلوب حياته الراهنة كاستمرار لوجوده الأبلوموفي نفسه، عدا أنه عاش في مكان وزمان مختلفين إلى حدّ ما. وهنا، كما في

أبلوموفكا، نجح في عقد صفقة جيدة مع الحياة، وقد حصل منها على ضمان السلام والهدوء. كان يشعر بالنصر في أعماقه لأنه فرّ من مطالبها وعواصفها المزعجة والمؤلمة التي انفصلت من ذلك الجزء من الأفق حيث تومض بروق الأفراح الوافرة وتدوّي الرعود المفاجئة للأحزان الساحقة، وحيث تعبث الآمال الزائفة والأطياف المهيبة للسعادة، حيث يتغذى فكر الإنسان على حيويته وأخيرًا يلتهمها وتقتله العاطفة الجامحة، حيث الإنسان مشغول بمعركة لا تنتهي أبدًا فيترك ساحتها محطمًا لكنه يبقى مع ذلك نهمًا وساخطًا. لم يجرّب الأفراح التي حصل عليها من الصراع، فشجب نفسه عقليًا، وشعر بالسلام مع نفسه في ركنه المنسي من العالم، حيث لا صراع هناك ولا حركة ولا حياة. ولو توهّج خياله مرة أخرى، وإذا ما نهضت أمامه الذكريات المنسية والأحلام غير المحققة، ولو أنّ ضميره بدأ يوخزهُ لأنه أمضى حياته بطريقة واحدة غير مختلفة فإنه كان ينامُ نومًا قلقًا، ثم ينهض، ويقفز من فراشه، وأحيانًا يبكي بكاءً مريرًا بسبب مثاله الساطع في الحياة الذي اختفى الآن تمامًا، كما يبكي شخص على أعزائه الراحلين الذين فارقهم بوعي مرير إذ لم يقدّم لهم ما يكفي بينما كانوا أحياء. بعد ذلك ينظر إلى ما حوله، ويتذوق طعم الأشياء الطيبة سريعة الزوال في الحياة، ويهدأ، وينظر بشكل حالم إلى شمس المساء التي راحت تهبط ببطء وهدوء وتغرب في لهبٍ متّقد. قرّر أخيرًا بأن حياته لم تتحول حتى الآن لتكون بسيطة وغير معقدة، لكنها خُلِقت واكتسبت معناها هكذا لكي تُظهر بأن الوجه المثالي الهادئ للوجود الإنساني كان ممكنًا. راح يتأمّل ما يحدث للكثير من الناس حين يعبرون عن أوجه الحياة المضطربة، ويحرّكون قوى الإبداع والتدمير فيها: فلكلّ غايته الثابتة في الحياة! هكذا نجحت فلسفة أبلوموف الأفلاطوني التي كانت تهدهدهُ لكي ينام وسط المطالب الملحة للواجب ومشاكل الوجود الإنساني! لم يولد ويتعلم لكي يكون شخصية المُجالد[76] في الحلبة، بل هو متفرج هادئ على المعركة؛ لم تستطع روحه

76الأسير أو العبد الذي كان يقاتل حتى الموت في روما القديمة م.

المتوجّسة المتراخية أن تتحمل لهفة السعادة أو الضربات التي توجهها الحياة لذا نادرًا ما عبّر عن مشاعره تجاه جانب واحد منها، ولم يكن ينفعه الأسف أو محاولة تغييرها أو التحرر منها. وبينما كانت السنون تمر، أصبح رويدًا رويدًا منزعجًا من الندامة والإثارة، واستقرّ بهدوء تدريجيًا داخل تابوت بسيط وواسع صنعهُ خلال الفترة الباقية من حياته، كما يحفر الناسك الكهل، بعد أن ملّ من الحياة، قبره الخاص في الصحراء. تخلى عن حلم ترتيب عزبته والانتقال إلى هناك. كان الوكيل الذي عينهُ شتولتس يرسل له بانتظام في كل عيد ميلاد دخلًا معتبرًا، وكان الفلاحون يجلبون له الحبوب والدواجن، فازدهر البيت بالوفرة والمسرّات. حصل أبلوموف أيضًا على عربة يجرها زوج من الخيول لكن اختارها بحذره المعتاد إذ كانت الخيول التي اشتراها من الهدوء بحيث إنها تبدأ في المسير عند الضربة الثالثة للسوط، بينما في الضربة الأولى والثانية كان يترنّح أحد الخيول ويخطو جانبًا، ثم يترنح الحصان الآخر ويخطو جانبًا، وعندئذ تمدّ أعناقها وظهورها وذيولها وتتحرك معًا وتخبُّ ورؤوسها تتمايل.

وكانت الخيول تستخدم في نقل فانيا إلى المدرسة على الجانب الآخر من نهر النيفا وأغافيا ماتفييفنا للتسوّق. وفي عيد الصوم الكبير وعيد الفصح كانت العائلة بأكملها مع أبلوموف يركبون العربة ذاهبين إلى المعرض؛ أحيانًا كانوا يحجزون مقصورة في المسرح ويجلسون هناك كلهم معًا. وفي الصيف كانوا يذهبون في نزهة إلى الريف، وفي عيد القديس إلياس يرحلون إلى مصانع البارود، وتستمر الحياة بسلام، حدثٌ عادي يتبعه آخر، ولا يجلب معه أي تغييرات مدمرة، يمكن تصل ضرباتها إلى مثل هذه الزوايا المسالمة. لكن من سوء الحظ أن هزيم الرعد الذي يهزّ أسس الجبال والفضاء الجوي الشاسع يطال أيضًا جحور الفئران، بدويٍّ أقل قوة ربما، لكن بشكل ملحوظ. كان أبلوموف يأكل بحماس وشهية كما كان في أبلوموفكا، ويمشي ويعمل قليلًا وبكسل كما كان في أبلوموفكا أيضًا. وعلى الرغم من تقدمه في العمر إلا أنه كان يشرب النبيذ والفودكا ولا يبالي تمامًا، وكان ينام ساعات عديدة بعد الغداء بلا مبالاة كبيرة.

فجأة تغيّر كل ذلك.
في أحد الأيام، حين بعد أن أخذ قيلولة بعد الغداء، أراد أن ينهض من الأريكة ولم يستطع؛ رغب أن يقول شيئًا، لكن لسانهُ لم يطاوعه. أخذ يلوّح بيده بذعر، وهتف للنجدة. لو كان أبلوموف يعيش مع زاخار وحده، لظلّ يلوّح بيده حتى الصباح، ولمات في النهاية، ولاكتشفت جثته في اليوم التالي؛ لكن عين سيدة المنزل راقبته مثل العناية الإلهية: حدسها وليس فطنتها هو الذي أخبرها بأنّ شيئًا خطيرًا كان يحدث لأبلوموف. وحالما بزغ الصباح أرسلت أنيسيا في عربة من أجل جلب الطبيب، ووضعت أغافيا ماتفييفنا الثلج حول رأسه وأفرغت خزانة الأدوية من كل أنواع المراهم ومستخلصات الغلي وكلّ شيء في الواقع كانت الدُربة والإشاعة تحفزانها على استعماله في حالة الطوارئ. حتى زاخار نجح في مساعدته على لبس إحدى فردتي حذائه في ذلك الحين، بعد أن نسي كل ما يتعلق بالفردة الأخرى، وساعد الطبيب وأغافيا ماتفييفنا وأنيسيا على الحضور وملازمة سيّده.
أعيد أبلوموف إلى وعيه وفُصِد دمهُ وأخبره الطبيب بأنهُ تعرّض إلى سكتة دماغية، ويجب عليه أن يعيش حياة مختلفة كليا في المستقبل. مُنعت عنهُ الفودكا والبيرة والنبيذ والقهوة، عدا في مناسبات قليلة نادرة، إضافة إلى اللحم وكل أنواع الأغذية الغنية بالدهون والتوابل؛ ونُصح بممارسة الرياضة في كل يوم والنوم باعتدال فقط في الليل. لم يتم تنفيذ كل ذلك لولا أغافيا ماتفييفنا وإشرافها المستمر، لكنها عرفت كيف تطبّق هذه الحمية بجعل كل أفراد المنزل يخضعون لها كما استطاعت عن طريق المكر تارة والعطف تارة من إلهاء أبلوموف عن إغراءات النبيذ وفطائر السمك الغنية والنوم بعد وجبة الغداء. ففي اللحظة التي يشعر فيها بالنعاس ويكون على وشك النوم، حتى يقع كرسي في الغرفة، دون أي سبب واضح، أو تتكسر آنية قديمة لا نفع فيها بضجة في الغرفة المجاورة، أو أنّ الأطفال يحدثون ضجة صاخبة كافية لإخراج المرء من طوره. كل ذلك من أجل منع أبلوموف من النوم نهارًا، فإن لم تنفع هذه الأساليب فإن صوتها الرقيق كان يسمع وهي تناديه وتسأله بعض الأسئلة لكي تمنعه من النوم. كان ممر الحديقة قد امتدّ

إلى داخل بستان الخضروات، وكان أبلوموف يمشي فيه لمدة ساعتين كل صباح ومساء.

ومشت معهُ أغافيا ماتفييفنا، فإن لم تستطع، ففانيا أو ماشا، أو صديقه القديم ألكسييف الوديع والمطيع، الذي كان جاهزًا دائمًا ليلبّي كل طلب.

هنا كان أبلوموف يمشي على الممر، مستندًا على كتف فانيا. فانيا، الذي هو شاب الآن ويرتدي زيّه المدرسي، بالكاد أستطاع أن يسيطر على خطواته السريعة والرشيقة وكان يحاول بصعوبة في مجاراة خطوات أبلوموف، الذي يجد مشقة في تحريك إحدى ساقيه بسبب آثار السكتة الدماغية.

قال أبلوموف:

دعنا نرجع إلى غرفتي يا صديقي فانيا.

وشرعا بالسير نحو الباب الأمامي. والتقت أغافيا ماتفييفنا بهما عند عتبة الباب.

سألت ومنعتهما من الدخول:

لماذا أنتما عائدان مبكرًا؟

ليس مبكرًا على الإطلاق! لقد مشينا عشرين مرة ذهابًا وإيابًا على الممر، والمسافة منا هنا إلى السياج حوالي مئة وثلاثين ياردة، فمجموع ما مشيناه فوق الميل تقريبًا.

سألت فانيا الذي بدا متردّدًا في جوابه:

كم مرة مشيتما؟

صاحت متوعدة ونظرت في عينيه:

لا تجرؤ على الكذب عليّ! أخبرك فورًا. تذكّر ذلك. لن أسمح لك بالخروج في يوم الأحد.

في الواقع، لقد مشينا يا أماه حوالي اثنتي عشرة مرة!

قال أبلوموف:

أنت أيها الوقح، لقد رحت تقطع أوراق الأكاسيا، بينما أنا أحصيتها في كل مرة...

قرّرت أغافيا ماتفييفنا:

كلا، من الأفضل أن تمشيا مسافة أطول. فحساء السمك لم يجهز بعد، على أية حال.

وأغلقت الباب في وجهيهما.

كان على أبلوموف أن يمشي ويحصي ثماني مرات أخرى، شاء أم أبى، وحينئذ سمح له بالدخول.

وجدَ هناك حساء السمك يتصاعد منه الدخان على المنضدة الكبيرة المدوّرة. جلس أبلوموف في مكانه المتعاد، وحده على الأريكة؛ وجلست على يمينه أغافيا ماتفييفنا في كرسيٍّ على يسار طفل حوالي في الثالثة يجلس في كرسيٍّ صغير بماسك أمان. وجلست ماشا الآن فتاة في الثالثة عشرة من عمرها، جوار الطفل، ثم فانيا، وأخيرًا جلس ألكسييف، الذي كان يزورهم في هذا اليوم، مواجهًا لأبلوموف.

قالت أغافيا ماتفييفنا ووضعت السمك في طبق أبلوموف:

دعني أعطيك حصتك من السمك: لقد عثرت على واحدة سمينة!

قال أبلوموف:

قطعة صغيرة من فطيرة ستناسب هذا الطبق.

قالت أغافيا ماتفييفنا بمهارة:

يا إلهي، لقد نسيتُ، فكّرت بها الليلة الماضية، لكنها طارت من ذهني!

والتفتت إلى ألكسييف وأضافت:

وأخشى إني نسيت طبخ الملفوف مع لحمة الضلع لك يا إيفان الكسييفيتش. آمل أن لا تؤاخذني.

كانت تلك مجرّد حيلة.

قال ألكسييف:

لا يهمّ. بوسعي أن آكل كل شيء.

سأل أبلوموف:

لماذا لم تحضّري له فخذ الخنزير مع البازلاء الخضراء أو شريحة البقر المطبوخة؟ فهو يحبّها.

قالت:

ذهبت إلى المتاجر بنفسي يا إيليا إليتش، لكن لم أجد أي نوع جيد من لحم البقر.

ثم أضافت والتفتت إلى ألكسييف:

صنعتهُ لكَ هلامًا من عصير الكرز. أعلم أنك تحبّهُ.

لا يمكن لهلام الفواكه أن يسبب ضررًا لأبلوموف، وكان ذلك السبب في أنّ ألكسييف، الذي كان جاهزًا للالتزام، قد أكلهُ وأعجبهُ.

بعد الغداء لا أحد باستطاعته أن يمنع أبلوموف من الاستلقاء. كان عادةً يستلقي على الأريكة في غرفة الطعام لكي يستريح لمدة ساعة. ولكي تتأكد أغافيا ماتفييفنا من أنه غير نائم، كانت تصب له القهوة وتجلس على الأريكة بجانبه، ويظل أطفالها يلعبون على السجّادة، فكان على أبلوموف أن يشارك معهم شاء أم أبى.

نهرَ فانيا الذي كان يضايق الولد الصغير:

لا تزعجْ أندريه، سيبكي في أي لحظة.

قال محذّرًا وأصابه القلق حين زحف الطفل تحت الكرسي:

ماشا، عزيزتي، احذري أن يضرب أندريه رأسه بالكرسي.

وهرعت ماشا لكي تنقذ«أخاها الصغير» كما كانت تسمّيه.

كان كل شيء هادئًا للحظة بينما ذهبت أغافيا ماتفييفنا إلى المطبخ لترى إن كانت القهوة جاهزة. هدأ الأطفال. وكان يُسمع صوت شخير في الغرفة، في البداية بدا رقيقًا كأنه سرّ، ثم أصبح عاليًا، وحين ظهرت أغافيا ماتفييفنا بكوب القهوة الساخن، اصطدمت بصوت الشخير العالي كأنه صادرٌ من ملجأ الحوذي. هزّت رأسها وأنّبت ألكسييف.

قال ألكسييف دفاعًا عن نفسه:

حاولت أن أوقظهُ لكنه لم ينتبه.

وضعت كوب القهوة بسرعة على المنضدة، ورفعت أندريه من الأرضية، ووضعتهُ بهدوء على الأريكة بجانب أبلوموف. زحف الطفل إليه، وبلغ وجهه، وأمسكه من أنفه.

صاح أبلوموف مهددًا واستيقظ:

ماذا؟ مَنْ هذا؟

قالت أغافيا ماتفييفنا بعطف:

لقد نمتَ نومًا خفيفًا وتسلّق أندريه الصغير على الأريكة وأيقظك.

احتجّ أبلوموف وأخذ الطفل من ذراعيه:

لم أنم مطلقًا. هل تعتقدين بأني لم أسمعه وهو يزحف عليّ بذراعيه الصغيرتين؟ لقد سمعت كل شيء. آه، أيها الولد الوقح! هل أمسكتني من أنفي؟

قال وراح يلاعب الطفل ويلاطفهُ:

سأضربك ضربًا مبرّحًا! فقط انتظر!

وضعهُ على الأرض وتنفس الصعداء. ثم قال:

أخبرني يا ألكسييف.

أجاب ألكسييف:

لقد ناقشنا كل شيء يا إيليا إليتش. ليس لديّ شيء لأخبرك به.

ليس لديك شيء؟ آه، أنت دائمًا تتجول وتلتقي بالناس. هل أنت متأكد من أنه لا توجد أخبار جديدة؟ فأنت تقرأ الصحف أليس كذلك؟

نعم سيدي أنا أقرأها أحيانًا أو يقرأها لي الآخرون أو يتحدثون بها وأنا استمع. أمس كنت عند ألكسي سبيريدونوفيتش، وقد قرأ ابنهُ، وهو طالب جامعي، بصوت عال.

ماذا قرأ؟

قرأ عن الإنكليز الذين أرسلوا البنادق والبارود إلى مكان ما. قال ألكسي سبيريدونوفيتش بأنّ حربًا ستنشب.

أين أرسلوها؟

آه، إلى أسبانيا أو الهند لا أتذكّر، لكن السفير كان قلقًا جدًا.

سأل أبلوموف:

أي سفير؟

قال ألكسيف ورفع أنفهُ إلى السقف في محاولة للتذكر:
آسف، لقد نسيتُ تمامًا.
مع مَنْ ستنشب الحرب؟
مع الباشا التركي كما أعتقد.
قال أبلوموف بعد فترة توقف:
حسنٌ، هل هناك أخبار أخرى تتعلق بالسياسة؟
قالوا بأن الأرض سوف تبرد وفي يوم ما ستتجمّد كلها.
قال أبلوموف:
وهل نحن بحاجة لذلك؟ لكن هذا ليس خبرًا سياسيًا.
وأصبح ألكسييف خامدًا تمامًا.
قال مبرّرًا:
في البداية أشار ديمتري ألكسييتش إلى السياسة ثم ظل يقرأ بصمت إلى أن انتهى. أعلمُ أنه كان قرأ بعدها أخبار الأدب.
سأل أبلوموف:
ماذا قرأ عن الأدب؟
قرأ وقال بأن أفضل المؤلفين هم ديمتربيف، وكارامزين، وباتيوشكوف وجوكوفسكي.
وبوشكين؟
قال ألكسييف:
لم يذكره أبدًا. أنا أيضًا تعجبتُ من عدم ذكره له. آه، لقد كان بوشكين عبقريًا.
ولفظَ حرف العين في كلمة «عبقري» بصعوبة.
ساد الصمت. جلبت أغافيا ماتفييفنا أدوات خياطتها وبدأت تخيط بأبرتها بعزم، وهي تنظر بين آونة وأخرى إلى أبلوموف وألكسييف وتنظر إلى أبلوموف وألكسييف، وترهف السمع لأي ضجة أو اضطراب في البيت، لكي تتأكد من أن زاخار لم يتشاجر مع أنيسيا في المطبخ، وأن أكولينا كانت تقوم بأعمال الغسيل،

وأنّ البوابة في الفناء لم تصدر صريرًا أي أن البواب لم يخرج إلى الحانة لكي يشرب الكحول.
استغرق أبلوموف ببطء في الصمت وأحلام اليقظة: لم يكن نائمًا ولا يقظًا، لكنه سمح لأفكاره أن تحوم بشكل جذل، دون تركيزها على أي شيء، وهو يصغي بهدوء إلى الضربات المنتظمة لقلبه ويطرف بعينه من وقت لآخر كأنه رجل لم يكن ينظر لأي شيء معيّن.
مرّ بحالة غامضة ملغزة، هي نوع من الهلوسة. هناك لحظات نادرة ووجيزة تشبه الحلم حين يبدو الإنسان وهو يعيش ثانيةً ظرفًا مرّ عليه من قبل في مكان وزمان مختلفين. سواء كان يحلم بما يجري أمامه الآن، أو أنه يعيش خلاله سابقًا ونساه، تبقى الحقيقة أنه يرى نفس الناس يجلسون بجانبه ثانيةً كما في الماضي ويسمع الكلمات التي تم التلفظ بها سابقًا في إحدى المرات: فالخيال عاجز عن نقله هناك مرة أخرى والذاكرة لا تبعث الماضي، ومن النادر أن تولّد الطبع المستغرَق في التفكير. حدث الشيء نفسه لأبلوموف الآن. فقد انقضّ عليه السكون الذي جربه في مكان ما سابقًا؛ فهو يسمع تكتكة الساعة المألوفة، وطقطقة الخيط المقطوع بالأسنان؛ وتتكرّر الكلمات المعتادة مرة أخرى، والهمسات: «يا إلهي، حقًا إني لا أستطيع أن أدخل الخيط في ثقب الإبرة: حاولي يا ماشا، فعيناك أكثر حدّة من عينيّ!». كان ينظر إلى عيني أغافيا ماتفييفنا بشكل كسول وآليّ وغير واعٍ تقريبًا، وقد ارتفعت من أعماق ذاكرته صورة مألوفة رآها في مكان ما سابقًا. حاول أن يفكّر مليًّا أين ومتى سمع بكل ذلك... ورأى أمامهُ غرفة استقبال كبيرة مظلمة في بيت والديه، كانت تنيرها شمعة مصنوعة من الشحم الحيواني، وكانت أمّهُ وضيفاتها يجلسن حول مائدة مدوّرة وهنّ يخيطنَ بصمت؛ فقد اختلط الماضي والحاضر وامتزجا. حلمَ بأنه وصل إلى الأرض الموعودة التي تجري بالحليب والعسل، حيث كان الناس يأكلون رزقهم الذي لم يكسبوه ويتزينون بالذهب والفضة. كان يسمع قصص الأحلام والعلامات، وقعقعة السكاكين وصليل الأواني الفخارية. كان يتعلق بمربيته ويصغي إلى صوتها المرتجف وهي تقول:

«ميليتريسا كيربيتييفنا!» وتشير إلى أغافيا ماتفيينا. بدا له بأن الغيمة نفسها كانت تحوم في السماء الزرقاء، والنسيم نفسه كان يهبُّ خلال النافذة ويتلاعب بشعره؛ كان الديك الرومي في أبلوموفكا يختال ويثير جلبة كبيرة تحت النافذة. وكان كلب ينبح الآن: فلا بدّ من أنّ ضيفًا قد وصل. هل هو أندريه وأبوه الذي جاء من فايبورغ؟ كان يوما عظيما بالنسبة له. حقا لا بد من أن يكون هو: فخطواته تقترب أكثر فأكثر، وانفتح الباب... صاح:

أندريه!

وكان أندريه يقف أمامه فعلًا، لكن لم يعد صبيًا بل رجلًا في متوسط العمر.

استيقظ أبلوموف من حلمه: كان يقف أمامه شتولتس الحقيقي كائنًا حيًا كبيرًا، في الواقع لا في الهلوسة.

وسرعان ما أمسكت أغافيا ماتفيفنا بالطفل، والتقطت عدة خياطتها من المنضدة، وابتعدت بالأطفال. اختفى ألكسييف أيضًا. ظلّ شتولتس وأبلوموف وحدهما، يتبادلان النظرات بصمت وسكون. وبدا شتولتس يوجه تحديقة ثاقبة إليه.

سأل أبلوموف بصوت كان غير مسموع تقريبًا يشي بالانفعال، كما يسأل عاشق حبيبته بعد فراق طويل:

هل أنت أندريه حقًا؟

قال أندريه بصوت رقيق:

نعم أنا. هل أنت على ما يرام؟

عانقهُ أبلوموف وضمّه بقوة.

أجاب بصوتٍ متطاول:

آه!

وكأنه وضع في هذه»الآه» كل شدة الحزن والفرح الذي ظلّ مخفيًا في قلبه لعدد كبير من السنين وربما لم يطلقها أحد منذ فراقهما.

جلسا وتبادلا النظر بإمعان.

سأل أندريه:

هل أنت على ما يرام.

نعم والحمد اللهَّ.

لكن هل أنت مريض؟

نعم يا أندريه. لقد أصابتني سكتة دماغية.

صاح أندريه بذعر وتعاطف:

حقًا؟ يا إلهي. هل هناك مضاعفات؟

أجاب أبلوموف:

كلا، عدا أنّي لا أستطيع أن أستخدم ساقي اليسرى بسهولة.

آه، إيليا، إيليا! ما الذي أصابك؟ إنك على وشك أن تبلى تمامًا. ماذا كنت تفعل طوال هذه المدة؟ هل يعقل أننا لم يرَ أحدنا الآخر لمدة خمس سنين؟

أطلق أبلوموف حسرة.

لماذا لم تأتِ إلى أبلوموفكا؟ لماذا لم تكتب لي؟

قال أبلوموف بأسى:

ماذا ينبغي أن أقول لك يا أندريه؟ أنت تعرفني، لذا لا تسألني المزيد من فضلك.

قال شتولتس ونظر في أنحاء الغرفة:

وأنت هنا في هذه الشقة طوال هذه السنين؟ ألم تسافر؟

كلا، لقد عشت هنا طوال الوقت ولم أتحرك حتى الآن أبدًا.

حقًا لا تريد أن تتحرك؟ أبدًا؟

حقًا يا أندريه.

نظر شتولتس إليه بإمعان واستغرق في التفكير وراح يمشي في الغرفة.

وأولغا سرغييفنا؟ هل هي على ما يرام؟ أين هي؟ هل ما تزال تتذكرني؟

وانقطع عن الحديث مستريحًا.

إنها بخير وتتذكرك كأنك فارقتنا بالأمس. سأخبرك الآن أين هي...

وأطفالك؟

كلهم بخير أيضًا. لكن أخبرني يا إيليا هل أنت جاد في البقاء هنا؟ لقد جئت من أجلك لكي آخذك معنا إلى الريف...

صاح أبلوموف كلا، كلا، أرجوك لا تذكر ذلك ولا تتكلم عليه.

وخفض صوته ونظر بشكل قلق إلى الباب، كأنه أصابه الذعر.

بدأ شتولتس:

لماذا؟ ماذا أصابك؟ أنت تعرفني: وضعتُ هذه المهمة منذ مدة طويلة، ولن أتخلى عنها. حتى الآن امتنعتُ عن أداء كل الأعمال والآن أنا حر. يجب أن تعيش معنا، وبالقرب منا. ذلك ما قررناه أنا وأولغا وذلك ما سيكون. الحمد للهّ أني وجدتك هكذا وليس بشكل أسوأ. لم يكن لديّ أمل... تهيأ إذن! هيّا عجّل! فإنا جاهز تمامًا لأخذك ولو بالقوة! يجب أن تعيش بشكل مختلف، أنت تعرف كيف...

أصغى أبلوموف إلى هذا الخطبة المسهبة بنفاد صبر.

توسّل به:

أرجوك لا تصرخ. تكّلم بهدوء... فهناك...

ماذا تقصد ب»هناك»؟

أعني، ربما يسمعون هناك وربما تعتقد مالكة شقتي بأني حقًا أريد الرحيل.

وماذا يهم؟ دعها تسمع!

قاطعهُ أبلوموف:

آه، لا أستطيع أن أفعل ذلك.

وأضاف فجأةً بنغمة جازمة لم يسمعهُا شتولتس سابقًا:

اسمع يا أندريه. لا تضيّع وقتك وأنت تحاول إقناعي: يجب أن أبقى هنا!

نظر شتولتس إلى صديقه بدهشة. واجه أبلوموف نظرته بهدوء وعزم.

قال:

لقد هلكت يا إيليا! هذا البيت، وهذه المرأة وأسلوب العيش هذا بأكمله... مستحيل! هيّا، فلنذهب!

أمسكهُ من كمّهِ وسحبه نحو الباب.

قال أبلوموف وقاومه:
لماذا تريد أن تأخذني معك؟ إلى أين؟
أصرّ شتولتس بشكل صارم ومتجبّر تقريبًا:
اخرج من هذه الحفرة وهذا المستنقع إلى الضوء والهواء الطلق والحياة الطبيعية! أين أنت؟ ما الذي حصل لك؟ عدْ إلى صحوتك! هل هذه الحياة التي كنت تهيّأ نفسك لها أن تنام كالفأرة في جحرها؟ من الأفضل أن تجّدد عقلك!
قال أبلوموف ونظرَ مدركًا تمامًا لما قاله وعزم على فعله بغير إرادته:
لا تذكّرني، لا تثرْ الماضي، لأنك لن تعيده أبدًا. ماذا تريد أن تفعله لي؟ لقد تحطمتُ كليًا في العالم الذي تسحبني إليه: أنت لا تستطيع أن تلحم نصفين انفصلا. أنا ملتصق بهذا الجحر بأضعف عضو في جسدي إذا ما سحبتني فسأموت!
لكن باللهَّ عليك يا رجل انظر إلى المكان الذي أنت فيه والرفقة التي حولك!
أعرف ذلك وأدركه... آه، يا أندريه، أنا أعي كل شيء وأفهمه: لقد كنت خجلًا منذ أمد طويل من العيش في هذا العالم! لكني لا أستطيع أن أستمر بنفس طريقك حتى لو توفرت لديّ الرغبة بذلك. ربما كان ذلك ممكنًا في آخر مرة كنت هنا، لكن الآن...
خفض عينيه وتوقف للحظة ثم أضاف:
فقد أصبح الوقت متأخرًا جدًا. اذهب ولا تنتظرني. فاللهَّ يعلم إني جدير بصداقتك، لكني غير جدير بأذيتك.
قال:
كلا يا إيليا، أنت تخفي شيئًا عني. أخبرتكَ أني عازمٌ على أخذك معي لأني أشكّ بك. استمعْ. البس ملابسك واذهب معي إلى بيتي. اقض المساء معي. لديّ الكثير من الأخبار لك: لا تعرف الأمور المثيرة التي تحدث في نَاحيتنا الريفية الآن. ألم تسمع بها؟
نظر أبلوموف إليه مستفهمًا.

نسيتُ إنك لا ترى الناس: عجّلْ، سوف أخبرك بكل شيء. هل تعلم من الذي ينتظرني في العربة عند البوابة؟ سوف أناديها!

صاح أبلوموف فجأة مذعورًا وشحب لونه:

أولغا! باللهّ عليك لا تسمح لها بالدخول هنا. أرجوك. ابتعد. وداعًا، وداعًا باللهّ عليك!

وكان على وشك أن يدفع شتولتس خارج الغرفة؛ لكن شتولتس لم يتحرك من مكانه.

لا أستطيع أن أذهب إليها دونك. لقد أعطيتها وعدًا هل تسمع يا إيليا؟ إن لم يكن اليوم فغدًا تستطيع أن تؤجل الأمر، لكن لا تطردني... غدًا أو بعد غد لكن يجب أن نلتقي مرة أخرى.

كان أبلوموف صامتًا ونكّس رأسه ولم يجرؤ على النظر إلى شتولتس.

متى سنلتقي؟ أكيد أن أولغا سوف تسألني.

قال أبلوموف بصوت رقيق متضرّع وعانق شتولتس ووضع رأسه على كتفيه:

آه، أندريه. أرجوك اتركني تمامًا انسني...

سأل شتولتس بدهشة وحرّر نفسه من عناق أبلوموف ونظر إلى وجهه:

ماذا، للأبد؟

همس أبلوموف:

نعم.

تراجع شتولتس خطوة عنه.

قال مؤنّبًا:

أنتَ يا إيليا تطردني وتطردها من أجل تلك المرأة! يا إلهي!

وكان على وشك أن يبكي كأنه حدث له ألمٌ مفاجئ:

وهذا الطفل الذي رأيته الآن إيليا، إيليا! اهرب اهرب من هنا! دعنا نذهب في هذه اللحظة! كيف سقطتَ! وتلك المرأة منْ تكون بالنسبة لك؟

قال أبلوموف بهدوء:

إنها زوجتي.
وبُهتَ شتولتس.
ختم أبلوموف اعترافه:
وذلك الطفل هو ابني! اسمه أندريه، وقد سميتهُ باسمك!
وتنفس الصعداء حين ألقى عبء سرّه.
حلّ الآن دور شتولتس لكي يتغيّر لونه. نظر حوله بعينين حائرتين فارغتين. وفجأة «انفتحت» أمامه «الهوّة» وانتصب «الجدار الصخري» ولم يعد أبلوموف موجودًا هناك، كأنه اختفى عن نظره أو غاص في الأرض. شعر بالألم الممض الحارق الذي يحسّه إنسان حين يسرع بحماس للقاء صديق بعد فراق طويل ثم يعلم بأنّ الصديق قد مات منذ مدة طويلة.
همس بشكل آلي:
لقد قُضي عليه! ماذا سأقول لأولغا؟
سمع أبلوموف الكلمات الأخيرة وكان على وشك أن يقول شيئًا، لكنه لم يستطع. مدّ ذراعاه كلاهما لأندريه، وتعانقا عناقًا شديدًا بصمت، كما يتعانق الناس قبل المعركة وقبل أن يموتوا. وأخمد هذا العناق كلماتهما ودموعهما ومشاعرهما.
لا تنسَ ابني أندريه!
كانت تلك كلمات أبلوموف الأخيرة التي لفظها بصوت خافت.
مشى أندريه خارج البيت ببطء وصمت، ثم سار متمهلًا ومستغرقًا في التفكير عبر فناء المنزل، وصعد إلى العربة، بينما كان أبلوموف يجلس على الأريكة، مستندًا بمرفقيه على المنضدة، ودافنًا وجههُ في يديه.
فكّر ستولتس بحزن بينما كان يعبر الفناء: «كلا، لن أنسى ابنك أندريه. لقد هلكتَ يا إيليا: من غير المفيد إخبارك بأن أبلوموفكا لم تعد قفرًا، إذ جاء دورها فغمرتها أشعة الشمس أخيرًا! لن أقول لك بأنّه في غضون السنوات الأربعة الأخيرة ستكون ثمة سكة حديد هناك، وأن فلاحيك سيعملون في خط السكة، وفيما بعد سيقوم القطار بحمل حبوبك إلى جانب الرصيف. ثم يتم بناء المدارس

وينتشر التعليم. لكن لا! سوف تخشى فجر السعادة الجديد؛ سوف يؤلم عينيك التي لم تتعودا على الضوء الساطع. لكن سوف أقود ابنك أندريه إلى المكان الذي لم تذهب إليه، وسوف أحقق أحلام الشباب سويةً معه».

قال ونظر للخلف إلى نوافذ البيت الصغير:

وداعًا يا أبلوموفكا القديمة! لقد مضت شهرتك!

سألت أولغا وخفق قلبها بسرعة:

ماذا يحدث هناك؟

أجاب أندريه بشكل جاف ومقتضب:

لا شيء.

هل هو حي وبخير؟

أجاب أندريه على مضض:

أجل.

لماذا رجعتَ بسرعة؟ لماذا لم تنادني هناك أو تجلبه هنا؟ دعني أذهب إليه.

لا يمكن أن تذهبي إليه!

سألت أولغا مذعورة:

ما الذي يجري هناك؟ هل «انفتحت الهوّة»؟ ألا تخبرني؟

ظلّ صامتًا.

لكن يا إلهي ماذا يجري هناك؟

ردّ أندريه عابسًا:

أبلوموفية!

وعلى الرغم من أسئلة أولغا إلا أنه حافظ على صمته وتجهّمه إلى أن وصلا إلى البيت.

***

(10)

مضت خمس سنوات، حدثت خلالها العديد من التغييرات في فايبورغ: كانت الشوارع الفارغة التي تفضي إلى بيت السيدة بشينيتزين مليئة بالأكواخ حديثة البناء، ومن بينها انتصبت بناية حكومية مشيدة من الحجر حجبت أشعة الشمس من التسلل ببهجة عبر نوافذ المأوى الهادئ الذي يشي بالصفاء والخمول. أصبح المنزل الصغير نفسه متداعيًا قليلًا وبدا كالحًا ومهملًا، مثل رجل لم يحلق ويغسل. تقشّر الصبغ، وتكسرت أنابيب تصريف المطر في أماكنها، ولذا نشأت بركٌ كبيرة في الفناء وضع عبرها ألواح خشبية ضيقة. حين كان شخص يمرّ عبر البوابة، فإن الكلب الأسود العجوز لم يقفز من سلسلته بنشاط بل يكتفي بالنباح نباحا مبحوحًا ورتيبًا دون أن يخرج من وجاره.

أما بالنسبة للتغييرات داخل البيت! فإنّ امرأة أخرى كانت تديره وكان ثمة أطفال آخرون يلعبون في أنحائه. كما كان الوجه الأحمر الثمل لتارانتييف الفظّ يظهر هناك بين آونة وأخرى، أما ألكسييف الرقيق والوديع فلم يعد يُرى هناك. ولا يمكن رؤية زاخار أو أنيسيا، فقد تولت مسؤولية أعمال المطبخ امرأة بدينة جديدة، وكانت تنفذ أوامر أغافيا ماتفييفنا بفظاظة وعلى مضض، وكان طرف تنورتها، مثل أكولينا، معلقًا بخصرها، وهي تغسل الأواني والجرار الخزفية؛ وكان نفس الحارس الوسنان يرتدي نفس سترته المصنوعة من جلد الغنم وهو يقضي بتكاسل ما تبقى من سنوات عمره في كوخه المظلم. وكان إيفان ماتفيفيتش يمرق مرة أخرى كالسهم مارًا بالسياج المتشابك في الساعات المعينة من الصباح الباكر ووقت الغداء برزمته الكبيرة تحت ذراعه وهو يلبس جزمته المطاطية في الشتاء والصيف.

ما الذي حدث لأبلوموف؟ أين هو؟ أين؟ كان جسده يرتاح تحت جرة متواضعة، تحيط بها الشجيرات، في زاوية وحيدة من المقبرة القريبة. تغفو فوق قبره أغصان الليلك التي زرعتها يد حانية، وأشجار الشيح تنشر عبيرها الحاد في الهواء الساكن. يبدو ملاك السلام نفسه حارسًا لنومة أبلوموف. ومهما كانت

الشدة التي كانت تراقب بها زوجته بعينيها المحببتين كل لحظة من لحظات حياته، إلا أن السكون الدائم وممر الزمن البليد كان يخمد آلية الحياة ببطء. من الواضح أن أبلوموف مات دون ألم، أو معاناة، تمامًا مثل ساعة تعطلت لأنها لم يتم تدويرها. لم يشهد أحد لحظاته الأخيرة أو يسمع آخر آهاته.

فقد أصابته سكتة دماغية أخرى بعد سنة من الأولى، ونجا منها ثانيةً، لكنه أصبح ضعيفًا وشاحبًا، ويأكل القليل، وبالكاد يخرج إلى الحديقة وأصبح أكثر فأكثر تكتمًا واستغراقًا في التفكير؛ وأحيانًا كان يبكي أيضًا. كان لديه شعور بأن الموت يقترب، وكان خائفًا منه. وحصلت له نوبات من الإغماء، لكنها مرّت بسلام. وفي صباح أحد الأيام كانت أغافيا ماتفييفنا تحمل له القهوة كالعادة، فوجدته مستكينًا برفق إلى الموت كما يستكين إلى النوم، عدا أن رأسه قد انزاحت قليلًا عن الوسادة وانضغطت يده متشنجة على قلبه الذي من الواضح أن شريان الدم قد انفجر فيه.

ظلت أغافيا ماتفييفنا أرملة لمدة ثلاث سنين؛ وخلال ذلك الوقت كان كل شيء قد عاد إلى مجراه المعتاد السابق. وقد عمل أخوها في المقاولات الحكومية، لكنه أصيب بالإفلاس ونجح في استعمال كل الوسائل المراوغة من أجل استعادة عمله السابق سكرتيرًا في الدائرة التي «يسجّل فيها الفلاحون». وسارَ ثانيةً إلى الدائرة واستعاد قطع كوبيكات من فئات الخمسين، والخمسة والعشرين، والعشرين لكي يودعها في صندوقه المخفي. ومرة أخرى، كما في الأيام الماضية قبل مجيء أبلوموف، كانوا يتناولون نفس العدد الوافر والغني من الوجبات البسيطة والرديئة. كان الدور الرئيس في البيت تشغلهُ أرينا بانتليفنا زوجة إيفان ماتفيفتش، أي أنها احتفظت بحق النهوض في وقت متأخر، وشرب القهوة ثلاث مرات في اليوم، وتغيير ملابسها ثلاث مرات في اليوم، وتهتم بأمر واحد في البيت: أن تكون تنوراتها منشّاة على أكمل وجه، ولم تشغل نفسها بأي شيء آخر، وكانت أغافيا ماتفييفنا كالسابق، هي اللولب الحي في البيت: فهي تهتم بالمطبخ والوجبات وتصب الشاي والقهوة لكل أفراد العائلة، وترتق ملابسهم، وتراقب الغسيل والأطفال وكولينا والحارس. لكن لماذا فعلت ذلك؟ أليست هي زوجة

السيّد أبلوموف مالك الأراضي؟ ألم تستطع أن تعيش بنفسها بصورة مستقلة ودون الحاجة لمساعدة أحد؟ ما الذي جعلها تتولى عبء تدبير منزل الناس الآخرين، والاعتناء بأطفالهم وكل تلك الأمور التافهة التي تكرّس المرأة نفسها لها أما بسبب الحب أو الواجب المقدس للرباط العائلي، أو من أجل أسباب العيش؟ أين زاخار وأنيسيا وخدمها؟

وأخيرًا أين الثمرة الحية الذي تركها لها زوجها، أين أندريه الصغير؟ وأين أطفالها من زواجها الأول؟

رسخ أطفالها أقدامهم في الحياة، أي أنّ فانيا أكمل دراسته وحصل على مهنة موظف في الخدمة المدنية؛ تزوجت ماشا مراقبًا في دائرة حكومية، أما أندريه الصغير فقد قام شتولتس وزوجته بتربيته حسب طلبها، ويعاملاه كأحد أفراد أسرتهم. لم تفكّر أغافيا ماتفييفنا بمقارنة مستقبل أندريه الصغير بمستقبل أطفالها الأكبر، على الرغم من أنها، في أعماق قلبها، كانت تضعهم، دون أن تدرك، في نفس المكانة معه.

لكن تعليم أندريه وأسلوب عيشه، ومستقبله تعتبرهُا مختلفة كليًا عن نمطي حياة فانيا وماشا.

قالت باستخفاف:

فانيا وماشا مشرّدان مثلي. لقد تحدّرا من محتد غير نبيل.

وأضافت مشيرة باحترام إلى أندريه الصغير المدلّل، لكن بخوف وحذر:

لكن هذا الولد هو نبيل صغير! انظر إلى بشرته كم هي جميلة مثل الخوخة الناضجة! ويداه وقدماه رقيقتان وشعره مثل الحرير. إنه صورة طبق الأصل من أبيه!

ذلك هو السبب الذي حداها إلى أن توافق، بفرح ودون اعتراض، على مقترح شتولتس بتربية أندريه الصغير مع أطفاله، معتقدة بأن مكانه الصحيح كان هناك، وليس في بيتها بين الرعاع من أولاد اخيها القذرين.

عاشت مع زاخار وأنيسيا في البيت لمدة ستة أشهر بعد موت أبلوموف، وقد استسلمت للأسى بسبب المحنة. كانت تطأ ممرًا يؤدي إلى قبر زوجها وتذرف الدموع عنده، وبالكاد تأكل شيئًا أو تشرب، وتعيش بصورة رئيسة على الشاي؛ وتمضي الليل بأكمله لم يغمض لها جفن وقد أصبحت من جراء ذلك مرهقة تمامًا. لم تشكُ لأي شخص حول أي شيء وبمرور الزمن أصبحت مستغرقة أكثر فأكثر في الحزن، فكانت تنعزل عن الكل حتى عن أنيسيا. ولم يعرف أحدٌ عن شعورها الحقيقي.

قال البقال للطبّاخة:

سيدتك ما زالت تبكي على زوجها.

علّقت خادمة الكنيسة:

مازالت حزينة على زوجها.

وأشارت إلى المرأة التي قدمت خبز القربان إلى كنيسة المقبرة، إذ الأرملة الكئيبة تأتي كل أسبوع تبكي وتصلّي.

قالوا في بيت أخيها:

مازالت المصيبة تضنيها.

في أحد الأيام اقتحمت بيتها عائلة أخيها بأكملها، الأطفال، وحتى تارانتييف فجأة من بحجة تقديم التعازي. وقد انهالوا عليها بالمواساة والالتماسات المبتذلة، لكي «تهتم بنفسها من أجل أن أطفالها»، وحصل ذلك قبل خمسة عشر سنة حين توفي زوجها الأول، لكن كان له تأثيره المرجو فتلقته بارتياح في ذلك الوقت. أما الآن فقد تلقتهُ، لسببٍ ما باشمئزاز وضيق. شعرت بالراحة حين غيّروا الموضوع وأخبروها بأنهم الآن يستطيعون العيش معا مرة أخرى، وأنّ ذلك أفضل لها لأنها «سوف تعيش وسط أهلها وناسها»، وأيضًا لهم لأنه لا يوجد أحد أحسن منها في العناية بالبيت. طلبت منهم أن يتيحوا لها الوقت لكي تفكّر، وبعد أن أمضت شهرين آخرين في الحزن، قبلت أخيرًا على مشاركة البيت معهم. في هذا الوقت أخذ شتولتس أندريه الصغير للعيش معهم وتركوها وحيدة.

كانت ترتدي ثوبًا أسودَ وتضع شالًا صوفيًا أسود حول رقبتها، وهي تمشي من غرفتها إلى المطبخ مثل الظل، فتفتح وتغلق الخزانات كالسابق، وتخيّط، وتكوي الدانتيلا، لكن ببطء ودون نشاط؛ كانت تتكلم، إذا جاز التعبير، على مضض، وبصوت خافت، ولم تعد تنظر حولها، كالسابق، بلا مبالاة وبعينين غير مثبتتين على مكان واحد، لكنها كانت تنظر بتعبير مركز في وجهها ومعنى مخفي في عينيها. بدت هذه الفكرة مستقرة بشكل غير ملحوظ في وجهها في اللحظة التي حدّقت بتركيز ولمدة طويلة في وجه زوجها الميت، ولم تفارقها منذ ذلك الوقت. كانت تتحرك حول البيت وتعمل كل ما هو ضروري، لكن عقلها لم يكن مركزًا على عملها.

فوق جثة زوجها، وبعد فقدانه، فهمت فجأةً معنى الحياة بأكملها وراحت تتأمل فيها ومنذ ذلك الحين ظلت تلك الفكرة تتوالد على وجهها مثل الظل. وبعد أن فرّجت عن نفسها بالبكاء والنحيب من مصيبتها الفادحة، ركزّت على حسها بالفقدان: فالبقية موتى بالنسبة لها عدا أندريه الصغير. فحين كانت تراه تظهر علامات الحياة على محّياها وتنبعث ملامحها، وتمتلئ عيناها بنور الفرح ثم بدموع الذكرى. فقدت الاهتمام بكل مما حدث حولها: لو كان أخوها غاضبًا بسبب روبل إضافي تم صرفهُ، أو كان الشواء محروقًا قليلًا، أو أنّ السمك لم يكن ناضجًا كما رغب؛ لو استاءت زوجة أخيها لأنّ تنورتها لم تكن منشّاة بشكل كافٍ، أو أنّ شايها بارد أو خفيف، ولو تعاملت معها الطباخة بشكل فظّ فإنّ أغافيا ماتفييفنا لم تكن تلاحظ أي شيء، كأنهم لم يتكلموا معها أو لم تسمعهم وهم يهمسون بتهكّم: «سيدة، ومالكة أراضٍ!». كانت إجابتها على كل ذلك مكظومة في نفسها العزيزة الحزينة وصمتها المستكين. من جهة أخرى، وحين تحل أعياد الميلاد أو عيد الفصح أو يوم الصوم الكبير فإنهم يقيمون الحفلات المرحة وترى الكلّ في البيت يغنّي ويفرح ويأكل ويشرب، إلا أغافيا ماتفييفنا فإنها تنخرط فجأةً في البكاء وسط الفرح الشامل وتخفي نفسها في غرفتها. ثم تثوب إلى نفسها مرة أخرى وتنظر إلى أخيها وزوجته، إذا جاز القول، بكبرياء وشفقة. كانت تدرك بأن الفرح

والضحك قد اختفيا من حياتها، وإنّ الرب نفخ روحًا فيها ثم انتزعها ثانيةً، وأنّ الشمس التي أشرقت عليها مرة قد توارت للأبد... للأبد، حقًا. لكن حياتها قد اكتسبت معنىً للأبد: فقد عرفت الآن لماذا عاشت ولم تكن حياتها عبثًا.
لقد أحبّت أبلوموف حبًا شديدًا تمامًا، كعشيق وزوج وسيّد نبيل؛ لكنها، كالسابق، لم تخبر أحدًا بذلك. ولم يستطع أن يفهمها أحد من الذين حولها. أين ستجد الكلمات المناسبة؟ كلمات ليست موجودة في قاموس مفردات أخيها وتارانتييف أو زوجة أخيه، لأنهم كلهم لا يعرفون عن ماذا تعبّر هذه الكلمات؛ كان أبلوموف وحده يفهمها، لكنها لم تخبره، لأنها في ذلك الوقت لم تفهم الأمر بنفسها ولم تعرف كيف تعبّر عنه. وفهمت، بمرور السنين، ماضيها بشكل أفضل كثيرًا وأخفتهُ بعمق في داخلها فأصبحت أكثر كتمانًا وتحفظًا. ألقت السنين السبع التي مضت كلمح البصر ضوءًا رقيقًا على حياتها كلها. ولم يكن ثمة شيء آخر ترغب به أو مكان تذهب إليه. لكن حين شتولتس إلى بطرسبورغ في الشتاء، هرعت إلى البيت ونظرت بلهفة إلى أندريه الصغير وهي تربّت عليه برقة وتوجّس. كانت تريد أن تقول شيئًا لشتولتس وتشكرهُ وتبسط أمامه كل ما كان محبوسًا ومكتومًا في قلبها هناك للأبد لقد فهمها، لكنها لم تعرف كيف، فاندفعت إلى أولغا وضغطت شفتيها على يديها، وذرفت فيضًا من الدموع الحارقة بحيث إن أولغا لم تتمالك نفسها من البكاء معها أيضًا، وأسرع أندريه مهتاجًا جدًا وخرج من الغرفة.
كان يجمعهم كلهم نفس الشعور والذكرى لروح صديقهم الميت صاحب الروح النقية الصافية. حاولوا إقناعها بالذهاب إلى الريف والعيش معهم، بالقرب من أندريه الصغير لكنها كانت دائما تجيب: «يجب على الإنسان أن يموت في الأرض التي ولد وعاش فيها». عبثا حاول شتولتس أعطاها حسابات إدارته لعزبتها وإرسال الوارد المستحق لها. فقد أرجعت النقود كلها وطلبت منه أن يدّخرهُا لأندريه الصغير.
كانت تكرّر القول بإصرار:

إنها له وليست لي. سوف يحتاجها. إنه رجل نبيل، وأستطيع أن أدّبر أموري دونها.

❊ ❊ ❊

(11)

كان رجلان نبيلان يمشيان في أحد الأيام على طول الأرصفة الخشبية في مدينة فايبورغ حوالي الساعة الثانية عشرة؛ وكانت تتبعهما عربة ببطء. أحدهما كان شتولتس والآخر كان صديقًا له، وهو كاتب ذو جسم بدين ووجه فاتر الملامح وعينان متأملتان وناعستان لو جاز التعبير. جاءا لزيارة الكنيسة؛ لقد انتهى قداس الصباح وتدفّق الناس في الشوارع، يسبقهم حشد كبير متنوع من المتسولين.

قال الكاتب ونظر إلى حشد المتسولين:

أود أن أعرف من أين يأتي هؤلاء المتسولون.

من أين أتوا؟ آه، من كل مكان.

أجاب الكاتب:

لا أقصد ذلك. أود أن أعرف كيف يصبح الإنسان متسولًا وكيف يصل إلى مثل هذا الوضع؟ وهل يحدث الأمر فجأة أم تدريجيًا؟ وهل هو صحيح أم مزيّف؟

ولماذا تريد أن تعرف ذلك؟ هل ستكتب رواية عنوانها: أسرار بطرسبورغ؟[77]

أجاب الكاتب وتثاءب بكسل:

ربما.

حسنٌ، ها قد حلت فرصتك: اسأل أحد المتسولين، وأعطيه روبلًا وسوف يبيع لك قصة حياته. تستطيع بذلك ذلك أن تكتبها وتبيعها وتربح منها. ها هو رجل كهل يبدو نموذجًا اعتياديًا من المتسولين. أنتَ أيها العجوز تعالَ هنا لحظة؟

التفت العجوز وخلع قبعته ومشى إليهما.

قال بصوت أجش:

اعطفْ عليّ سيدي، وساعدْ جنديًا عجوزًا فقيرًا خاض ثلاثين حربًا وجرح فيها جروحًا بالغة...

صاح شتولتس مندهشًا:

77أي على غرار الرواية المتسلسلة «أسرار باريس» ليوجين سو المؤلفة عامي 1842 1843.

زاخار! هذا أنت؟
غار زاخار في الصمت فجأة، ثم نظر بإمعان إلى شتولتس حاجبًا ضوء الشمس عن عينيه بيده.
آسف، سيّدي، لم أستطع أن أميّزك مطلقًا، فأنا خائف، وأعمى تمامًا يا سيّدي.
قال شتولتس معاتبًا:
هل نسيتَ شتولتس، صديق سيّدك؟
آه، السيد شتولتس! سيدي لقد غلبني العمى فأصبحت كالعمود! أنا آسف سيدي!
حاول أن يمسك يد شتولتس، ونتيجة اضطرابه لم يستطع فقبّل طرف معطفه.
هتف بصوت تراوح بين البكاء والضحك:
الحمد للهّ أن جعل من رجل لئيم وبائس مثلي أن يعيش ليرى مثل هذا اليوم السعيد.
كان وجهه كله، من جبينه حتى ذقنه، يبدو موسومًا بالأرجواني. إضافة إلى أنّ أنفهُ ذو لون أزرق خفيف. كان أصلع تمامًا؛ وشارباه كبيران كالسابق، لكنهما متشابكان على شكل حصيرة ثخينة، ويبدو كل منهما كأنّ كتلة من الثلج قد وضعت فيه. كان يرتدي معطفا رثًّا باليًا، تمزق أحد جوانبه، ويلبس بقدميه العاريتين زوج أحذية متهرئًا قديمًا، ويمسك بيديه قبعة بالية من الفرو.
أعتقد أن العزيز القدير يا سيدي قد أيّدني بعطفه هذا الصباح بسبب هذه المتعة البالغة.
لماذا أنت بهذه الحال؟ ألا تخجل؟
قال زاخار وأطلق حسرة عميقة:
يا إلهي، وماذا كان عليّ أن أفعل يا سيّدي؟ كان يجب أن أحفظ الجسد والروح معًا يا سيدي. وأنت ترى، سيّدي، أنه حين كانت أنيسيا حية لم أكن أهيم في الشوارع لأنّ لديّ ما يكفي من الأكل، لكن حين ماتت بالكوليرا اللهّ يرحم روحها رفض أخو السيدة أن يبقيني ودعاني بالطفيلي، وكان السيد تارانتييف

دائمًا يحاول أن يضربني من الخلف حين أمرُّ به. آه، يا سيدي، بوسعي أن أقول لك أنها كانت حياة مريرة. الأسماء التي يطلقونها عليّ، يا سيّدي! صدّقني سيدي كانت تمرّ عليّ أيام دون أن أحصل على كسرة من الخبز فقدت شهيتي. لولا السيدة الله يبارك فيها! لكنتُ قد هلكتُ منذ مدة طويلة من الصقيع. كانت تمنحني بعض الملابس للشتاء وتعطيني ما أشاء من الخبز، وخصصت لي بارك الله قلبها ركنًا على سطح الموقد أيضًا، لكنهم بدؤوا يتذمرون منها بسببي، لذا خرجت من البيت يا سيدي. آه، سيدي، ستمر سنتان منذ أن بدأت أمارس هذه الحياة البائسة...

سأل شتولتس:

ولماذا لم تحصل على عمل؟

واصل زاخار كلامه بشكل حزين:

آه سيدي، لا تستطيع أن تحصل على عمل بسهولة في هذه الأيام. تهيأت لي فرصتان للعمل يا سيدي، لكني لم أقتنع بهما. الآن الأمر مختلف كليًا عما كان في الأيام الماضية الجميلة يا سيدي. أصبح أسوأ. فالخادم يجب أن يعرف القراءة والكتابة، ولم تعد غرف المدخل لدى النبلاء الكبار، يا سيّدي، تكتظ بالخدم كما اعتادوا على ذلك. كل ما يحتاجونه خادم واحد أو خادمان على الأغلب. فهم ينزعون جزمهم بأنفسهم ويبدو أنهم اخترعوا آلة خاصة لذلك. إنه عار وفضيحة يا سيّدي! لم يبق شيء من النبالة!

وأطلق حسرة.

هل تعلم يا سيدي، إني حصلت على عمل مع أحد التجار الألمان في الجلوس عند غرفة المدخل. وقد سارت الأمور بشكل أفضل إلى أن كلفني بعمل يتضمن الانتظار عند المائدة. وهل هذا عمل يناسبني يا سيّدي؟ وكنتُ يومًا أحمل آنية وكانت من الخزف الصيني من بوهيميا وكانت الأرضية زلقة، اللعنة عليها! حسنٌ، سيدي، فجأة انزلقت قدمي وتحطمت الآنية على الأرض مع الصينية

كلها سيدي، فقاموا بطردي. وفي إحدى المرات أعجبت كونتيسة عجوز بمنظري. وقالت حين رأتني:

«تبدو رجلًا محترما» وعينتني بوابا في المدخل. وهو عمل جيد عتيق، سيدي. كل ما تفعله أن تجلس على كرسيّ وتبدو جدّيًا، وتصالب ساقيك، وتؤرج قدمك ببطء، وإذا ما جاء أحد فيجب أن لا تجيب فورًا، بل عليك أن تدمدم ثم تدعهُ يدخل أو تطردهُ. وإذا ما جاء ضيوف محترمون فيجب أن تحييهم بعصاك هكذا سيدي!

وأشار زاخار بذراعه كيفية تحيتهم. وتابعَ:

لا شكّ أنه عمل لا بأس به سيدي. لكن السيدة كانت من النمط الذي يصعب إرضاؤه جدًا! ففي أحد الأيام نظرت داخل غرفتي، ورأت بقة، فطردتني من وظيفتي وهي تذمني بطريقة فاضحة، وكأنني أنا الذي اخترعتُ البق! وهل ثمة بيت يخلو من البق يا سيّدي؟ ومرة مرت بي وشمّت رائحة فودكا فظنّت إني مخمور، وقامت بطردي...

قال شتولتس:

أنت فعلًا تنبعث منك رائحة الفودكا بقوة أيضًا!

قال زاخار بصوت أجش، ولوى وجهه حانقًا بشدة من قدره:

نعم سيدي، أشرب أحيانًا لكي أدفن أحزاني؛ حاولت أن أعمل حوذيًا بالأجرة لمالك عربة لكن قدميّ تجمدتا. لقد فقدت قوتي يا سيّدي، وأصبحتُ كهلًا، تلك هي المشكلة! في أحد الأيام كان الحصان جامحًا واندفع تحت عربة وكاد أن يلقيني خارج مقصورتي، ومرّة داس على امرأة عجوز فأخذوني إلى مركز الشرطة...

كفى! الآن أصغي إليّ؛ لا تشرب وتتسكّع في الشوارع، لكن تعال معي وسوف أجد مكانًا لك في بيتي تستطيع أن تأتي معنا إلى الريف هل تسمعني؟

نعم سيدي، لكن...

أطلق حسرة وصاح:

أنت ترى يا سيدي، لا أرغب أن أبتعد من هنا، أعني عن قبره! عزيزنا السيد إيليا إليتش. لقد صلّيت من أجله اليوم مرة أخرى. اللهّ يرحم روحه! كم كان سيدًا كبيرًا أخذه الرب منّي. لقد عاش من أجل سعادة الجميع آه، ليته عاش مئة سنة، سيدي.

قال زاخار ونشج ولوى وجهه:

كنت اليوم عند قبره، سيدي. متى ما أزور تلك النواحي أذهب فورًا إلى قبره. أجلس هناك ساعات عديدة وأذرف الدموع يا سيدي.

أحيانًا أتصور فجأة وسط الهدوء السائد إنه يناديني: «زاخار! زاخار!»، يا إلهي، فيقف شعر رأسي يا سيدي! آه، لن أجد سيّدًا مثله ذلك أكيد! وكم كان يحّبك سيدي، اللهّ يرحم روحه!

قال له شتولتس ومنحه بعض المال:

حسنٌ، تعال لترى أندريه الصغير. سوف أخبرهم أن يعطوك وجبة وملابس لائقة، ثم تستطيع أن تعمل ما يحلو لك.

سوف أزوركم بالتأكيد لأرى ابن سيّدي الصغير! أتوقع أنه كبر الآن! يا إلهي، يا له من نهار سعيد! نعم سوف أزوركم؛ عسى اللهّ أن يمنحكم موفور الصحة وطول العمر سيّدي.

غمغم زاخار بينما كانت العربة تبتعد.

قال شتولتس لصديقه:

حسنٌ، هل سمعتَ قصة هذا المتسول؟

سأل الكاتب:

من إيليا إليتش الذي ذكره؟

أبلوموف: الذي كنتُ أحدّثك عنه دائمًا.

نعم، أتذكر الاسم، كان صديقك وزميل دراستك. ما الذي جرى له؟

إنه ميت الآن. لقد ضيّع حياته!

تنهّد شتولتس واستغرق في التفكير.

وكان ذكيًا مثل الجميع، وروحه نقية وصافية كالبلور كان نبيلًا وعطوفًا ومع ذلك فقد هلك!

لكن لماذا؟ ما السبب؟

قال شتولتس:

السبب يا له من سبب! إنها الأبلوموفية!

كرّر الكاتب بدهشة:

الأبلوموفية؟ وما هي؟

سوف أخبرك بعد لحظة: دعني أستجمع أفكاري وذكرياتي. ودوّنْها أنت، فربما سيجدها أحد ويستفيد منها.

وروى له ما مكتوب هنا.

❋ ❋ ❋